عهد دميانة

رواية

أسامة عبد الرءوف الشاذلي

الرواق للنشر والتوزيع

قرية (أبو جِنّس)

(١١٦١ ميلاديًا)

(١)

كان الوقت وقت ظهيرة حين جلست (وَضن) أمام فرن الخبيز فوق سطح منزلها، تشقُّ أقراص العجين -التي خَمَّرتها أشعة الشمس- من منتصفها، وتُلقي بها فوق حجر الفرن المستعر حتى تنضج، بينما كانت (بِميانة) تجمع أرغفة الخبز الناضجة في سلة من الخوص، تهبط بها إلى فِناء الدار، ثم تقوم برصِّها فوق طاولةٍ كبيرةٍ حتى تبرد. يوم الخبيز هو يوم شاقٌّ بالنسبة لها، لفحات الهواء الساخنة، وأشعة الشمس المتسللة من بين فُرجات العريش، رغم اعتدال الجو في شهر (بابه)، تجعل وجهها يبدو لمن يراه كرغيف أنضجته النيران من جانب واحد، خاصةً مع قميصها الذي كشف الحد الفاصل بين جِيدها الحِنطيِّ وصدرها الأبيض. شعرت بالعطش، مع طول بقائها فوق السطح، فنادت على (بِميانة) التي كانت بالفِناء، قائلةً:

- أحضري جرّة الماء يا (بِميانة)!

أتاها صوت (بِميانة) قائلةً:

- حاضر يا أمي.

وقبل أن تُلقم فوهة الفرن بقرص العجين الأخير، طرق سمعَها صراخُ (بِميانة) في الفناء. ألقت القرص من يدها ثم هبطت درجات السلم اللبنِي في سرعة. رأتها تقف مرتجفةً، فهتفت ملتاعةً:

- (بِميانة)! ماذا جرى؟

لم تنطق الصغيرة، أشارت بخوف نحو جرّة الماء، وجسدها يرتجف. نظرت

(ومن) إلى حيث أشارت، ثم تقدمت ببطء، هزّت الجرة برفق، فأدركت أنها فارغةً من الماء ولكن شيئًا ما كان يتحرك بداخلها، أطلّت بعين واحدة من الفتحة في حذر خشيةَ أن يخرج منها ما يثير فزعها؛ فأحيانًا تتسلل الأفاعي إلى جرار المياه هربًا من حرارة الجو، أو بحثًا عن المياه. فجأةً استحال خوفُها غضبًا، تخلّت عن حذرها وقلبت الجرّة رأسًا على عقِبٍ وهي تقول في غيظ:

- فعلتها الملعونة!

انقلبت الجرّة فتساقطت منها بضعةُ فئرانٍ وليدةٍ مغمضةُ العين كقطع اللحم الوردية، تصرُّ صريرًا خافتًا وتحرّك أطرافها في فزع. هرولت (دميانة) في ركن الدار وانكمشت رعبًا حينما رأت الفئران الكفيفةَ تحبو في كل اتجاه، بينما التقطت (وَمن) حذاءها ذا النعل الخشبيِ الثقيل، وتتبعت الفئران الصغيرةَ بضرباتٍ قاتلة، وهي تقول في غضب:

- كنتُ أعلم أنها حُبلى حين رأيتُها تختّر ببطنها المنتفخة فوق الجدار!

فرغتْ من معركتها ثم وقفتْ لاهثةً ويدُها ترتعش من الانفعال. تلفتتْ حولها كي تتأكدَ أنها لم تُفلت منها أحدًا. انتعلت الحذاء مرةً أخرى، ثم كنست الفئرانَ المصروعة وألقت بها إلى خارج الدار. جلست على الأريكة تلتقط أنفاسها، ثم قالت لـ (دميانة) بنبرة لا تخلو من الحدة:

- ارفقي بي! ستقتلني صرخةٌ مثلُ هذه في يوم من الأيام.

قالت في خوف:

- أفزعني شكلُها.

قالت لائمةً:

- ما هي إلا فئرانٌ صغيرة، وأنتِ لستِ بصغيرة!

رأت حزنًا في عينيها، فأشفقت عليها، ضمَّتها إليها وقالت:

- لا بأس! لقد رحلوا بغير رجعة.

قالت (دميانة) بصوتٍ متردِّدٍ من الخوف:

- ألا يُمكن أن تؤذيَنا أمُّهم؟!

قالت (وَمن) بصوتٍ عالٍ وكأنها تُسمِع الفأرة:

- لو عادت سوف أهوي فوق رأسها بالعصا.

اطمأنت، فهي تعلم أن (ومن) لا تخاف، والأهم أنها لا تفارقها أبدًا. تكاد سنوات عمرها يقتصِرن على ذكرياتهما سويًا، فهما يفعلان كل شيء معًا؛ يأكلان معًا، وينامان معًا، ويعملان أيضًا في البيعة معًا. أخبرتها (ومن) أنها كانت ترافقها في العمل بالبِيعة التي تتبع دَيرَ (أبي جِنّس) منذ كانت في عامها الثالث. كانت تضعُها على كتفيها، أو تحيط خصرَها بساقَيها، وتحملها بيدٍ، بينما تعمل بالأخرى، حتى لا تفارقَها. كان وجودهما معًا يُهوِّن عليها شقاء العمل وينسيها وحدتها في الحياة، كلما داعبت أنفاسُ الطفلة جِيدَها، أو شعرت بدقات قلبها الصغير وهي نائمةٌ على صدرها.

أرادت (ومن) أن تُنسيَها فزعها، فقالت وهي تمسح على شعرها:

- ستلتحقين غدًا بدروس الكنيسة حتى تتعلمي القراءة والتراتيل.

تعلقت بعنقها وقبلتها في فرح، فكثيرًا ما كانت تسمعأصوات الأطفال وهم يصدحون بالتراتيل من حُجرة الدرس الملحقة بالكنيسة في أيام الآحاد، فتشعر بالبهجة، خاصةً مع تلك الكلمات القبطية التي كانوا يرددونها بسجعٍ مُنغَّمٍ خلف المعلم، مقترنةً بمعناها بالعربية. كلماتٌ حفظَتها من كثرة

تكرارها حتى صارت ترددها أثناء لهوها في فناء البيت: «ثلاثا ضؤوي - صباح الخير»، «ثلاثا روهي - مساء الخير»، «أوجاي - كُنْ معافى». لم تعلم أن (وَشن) حين تركتها بعد القُدّاس الأخير وجلست إلى الكاهن (سمعان)، لم تكن تجلس إليه للاعتراف كما اعتادت أن تفعل في كل أسبوع، فـ (وَشن) كانت شديدة الخوف فيما يتعلق باقتراف الخطيئة، ولا يمرّ عليها الأسبوع دون أن تجلس مع الكاهن كي تضع بين يديه وساوسَ تظنُّها خطايا، فيمحو لها الكاهن تلك الوساوس، ويدعو لها بالسكينة، وقد أدرك أن الشيطان يريد أن ينفذ إلى قلبها بالخوف. ففي هذه المرة جلست إليه (وَشن) كي تُلقي إليه برغبة عاشت من أجلها قديمًا، ثم عاندتها الأيامُ في تحقيقها. قالت وهي تفرك يديها المرتعشتين:

- أريد أن أنذِر (دميانة) للبتولية.

- النذر فيما نملك، فهل تضمنين الوفاء بنذرك؟

- ليس لأحد حُكمٌ عليها سواي.

- ولكن (دميانة) تملك الحكم على نفسها، من أدراكِ أنها إذا كبرت لا ترغب في البتولية ؟

- أدعو الربَّ في كل أجبية أن يمنحها الخلاص كاملًا.

- للخلاص سُبل كثيرة، وقد يُثمر المرء في العالَم، أكثر مما يُثمر في البتولية. دعيها تختار طريق خلاصها.

- حسنًا، أريدها أن تتعلم التراتيل، وأن تحفظ المزامير.

- لا بأس، سأسمح لها بحضور الدرس في الكنيسة.

- أتمنى أن تكون (دميانة) أفضل مني!

- ليس بإرادتك أنتِ، ولكن بإرادته هو!

* * * * *

(٢)

كان الطريق بين منزلها ودَير (أبي حنّس) يستغرق سِتّ درجاتٍ زوالية، ولكنه طريق مؤنِس لا يشعر السائر فيه بالجهد ولا بالملل. فالطريق تحدّه من جهة اليمين أحراشٌ من نباتات البَرديّ وأعشاب النعناع، التي تنبت على ضفاف النهر وتغطي الجرف بأكمله، يفوح منها عبيرٌ يثير البهجة كلما داعبتها نسمات الهواء، حتى إن السائر على الطريق يستطيع أن يُميز دخوله في زمام القرية من رائحة النعناع. أما جهة اليسار فتمتد حقولُ القصب صيفًا، أو الذُرة شتاءً، مع أشجار النخيل التي تصل إلى مشارف الجبل. امتزاج اللونين الأخضر والأصفر هو أكثر ما يُميز تلك البقعة من الوادي. نضارة الأخضر وبهجته، وذبول الأصفر وكآبته، يُلخصان دورةَ الحياة، ويبدو الحدّ الفاصل بينهما كالحدّ بين الحياة والموت. حين يقترب الطريق من نهايته، تختفي منازل القِبط، وتظهر صوامع الدّير وقلاياته خلف السور الحَجريّ، الذي بُنِيَ قديمًا كي يحميَ الدّير من هجمات العربان وقُطّاع الطرق. السور وبُرجا الكنيسة اللذان بُنِيا بالآجُرّ يمنحان الدير مهابةً، ويُضفيان عليه سمت الحصون الرومانية.

في يومها الأول للتردد على الكنيسة طالبةً، تدلّت خلف رأسها ضفيرة، وإلى جانب وسطها حقيبةٌ من الكتان، لم تحوِ سوى نصفِ رغيف من الخبز الشمسي، وبضعِ حباتٍ من التوت، وقلمٍ من لحاء القصب لا تعرف كيفيةَ استخدامه. دلفتا من باب الدّير فاستقبلهما العمّ (بشندي) قيّم الكنيسة بابتسامة. العم (بشندي) هو أقدم خُدام الكنيسة وحاملُ مفاتيحها، الذي ورث المهنة عن أبيه وجده. لا يستطيع أحدٌ أن يُخمّن عمره، ربما بسبب تلك

الرأس الصلعاء والوجه الأملس الخالي من منابت الشعر حتى في حاجبيه. الشيء الوحيد الذي يشي بأنه قد عتا في السن، هو تلك الأسنان الصفراء التي تآكلت حروفُها وتكشّفت جذورها، كشجرة مُعمّرة جُرّفت الأرضُ من تحتها. يفتخر العمّ (بشندي) دائمًا بأن عائلته منذ حملت مفاتيح الدير لم تُغلِق أبوابه أبدًا حتى في أحلَك الأيام وأسوئها. يروي عن جده الأكبر أنه في أيام الشدة المستنصرية، أغلقت كل الأديرة أبوابَها وهجر الرهبان قلاياتهم بعدما افترسهم الجوع، إلا دير (أبي حنّس)، الذي ظل مفتوحَ البابِ رغم رحيل الرهبان عنه. والسر -كما يزعم (بشندي)- كان في عشبة النعناع الجافة، التي جمعها جدّه من ضفاف النهر وصنع منها شرابًا أبقاه على قيد الحياة. ابتسم (بشندي) حين رآهما، وقال مداعبًا (دميانة):

- قد حلّت البركة علينا بمقدمكِ يا (ميمونة).

هكذا كان يداعبها كلما رآها، ضحكت (ومن) وقالت:

- بل أتت لتنالَ البركة منكم يا عم (بشندي).

عبرت الفِناءَ المُبلّط بالحجر إلى مدخل الكنيسة العتيقة. توقفتْ للحظاتٍ أمام أيقونة القديس (يوحنس القصير)، الذي أقام الديْرَ في زمنٍ كان القبط فيه يتعرضون للاضطهاد من الرومان، ثم رسمت الصليب عنده، قبل أن تهبط الدّرج الفضي إلى بهوٍ مُقسّمٍ بأعمدة تحمل تيجانًا كسعف النخيل، إلى صفوف تُسمى خوارس. أولها خورس الزائرين، ثم خورس التائبين، ثم خورس المؤمنين، وأخيرًا خورس الشمامسة والمعلمين. اتجهتا نحو الهيكل الذي جلس أمامه الأبُ (سمعان) بعد أن فرغ من عِظته، على أريكةٍ بجوارها حَجر من الرُّخام نُقِش عليه بالقبطية نصٌ من رسالة يعقوب، يقول فيها: «ماهي حياتُكم؟! إنْ هي إلا بخارٌ يظهرُ قليلًا ثم يَضمحِلّ». وقد أخذ يستمع إلى حوائج أهل القرية المتزاحمين حوله بصبرٍ واهتمام. يبذل الأب

(سمعان) جهدًا كبيرًا كي يحفظ إيمان شعبه، وكي يربطهم بالكنيسة، خصوصًا في تلك الأيام التي يتزايد فيها الفقر والغلاء. أغلب الناس لا تسأل في أمور الدّين وإنما في أمور الدنيا، رغم أن عِظته كانت في الزهد وعدم التنعّم، ولكنه يعلم أن الزهد هو رفاهية القادر، وقدَرُ العاجز. انتظرت (ومن) حتى فرغ الزحام ولم يتبقَّ سوى رجلٍ من قرية الشيخ عبادة، التي تقع إلى الشمال من قرية (أبي جِنْس)، كان يتحدث إلى الأب (سمعان)، وقد بدا أنه غاضب، يُلوِّح بيده في الهواء مع كل كلمة ينطقها، وكأنها صدًى لصوت كلماته، ويقول:

- اشتريتُ بغلةً ولم تلِد يا أبانا!

قال الأب (سمعان) في هدوء:

- البغال لا تلد يا (جرجس)!

قال الرجل مدافِعًا:

- ولكن بغلة جاري (سعدان) قد وطئها حصانٌ عربيٌ ووضعت بغلًا وليدًا!

تنهّد الأب (سمعان) وهو يقول:

- قلتُ لكَ: البغال لا تلد يا (جرجس)! لعلها كانت أتانًا أومُهرة!

قال (جرجس) في عناد:

- أقسم بالعذراء إني قد رأيتها بعيني وهي تضع وليدها. ثم أردف في قهر:

- يُعيّرني (سعدان) ببركة الشيخ عبادة على قريتهم!

زفر يائسًا، فهو يعلم أن (جرجس) لا يكفّ عن التناوش مع جاره المسلم، مآله في نفاد صبر:

- وملذا تريد مني يا (جرجس)؟!

قال (جرجس):

- نذرتُ شمعةً لأمّنا البتول، وأرجو أن تدعوَ لي كي تلد بغلتي.

صمت الأب (سمعان) قليلًا ثم قال:

- أقول لك شيئًا أفضل يا (جرجس)؟ إذا قابلت جارك هذا فقل له: إن بغال القبط لا تطؤها أحصنةُ العرب.

فغرَ (جرجس) فاه، ثم قال:

- لا أفهم!

قال القس (سمعان):

- لا يهم، قل له ذلك وسيكفّ عن معايرتك.

انطلق الرجل، وهو يغمز في مشيه لعرجٍ في قدمه، مرددًا كلام الأب (سمعان) مرةً أخرى، وقد شعر بأنه سيكون ردًا مُفحِمًا على جاره المشاكس، تتكرر تلك المناوشات بين المسلمين والنصارى بكثرة في تلك الأيام. فالغلاء والفقر والحرب الدائرة بين الوزراء على السلطة، تجعل الناس تتشبث بانتصارات وهمية، حتى ولو كانت بغلةً تلد بكرامة وليٍّ من أولياء الله. بعدما انصرف الرجل، تقدمت (وَمْن) من الأب (سمعان) فانتبه لوجودها، وكأنه كان يبحث عنها. نظر بطرف عينيه نحو الصفوف الخلفية، فوقعت عينه على رجل كان يجلس على مصطبة منزوية، وبجواره صبيٌ يتلفّت حوله باستغراب. قالت له (وَمْن):

- أتيث بـ (دميانة) كي تحضر الدرس كما وعدتني.

مسح على رأس الطفلة في حنان، وقال:

- مرحبًا يا (دميانة)، هل تعلمين أن اسمك جميل؟

أومأت برأسها وقالت:

- نعم، على اسم ستنا (دميانة).

ابتسم، وقال:

- بارك الرب فيك يا بنيتي.

ثم نادى على شماس، وقال له:

- اجعلها تلتحق بدرس التراتيل والألحان الآن، ومُر المعلمَ بأن يبدأ معها دروسَ تعليم القبطية.

ابتسم الشماس لـ (دميانة)، ثم ذهب معها إلى حجرة التراتيل. بعدما انصرفا همت (وَمن) بأن تخبره بأمر الفئران، وهل قتلها خطيئةٌ أم لا، ولكنه بادرها قائلًا:

- انتظريني بتلك الحجرة يا (وَمن).

وأشار بيده نحو حجرة جانبية بجوار المذبح. انصاعت لأمره ودلفت من باب الحجرة الضيقة، التي خلَت من الأثاث إلا من مكتب يعلوه صليبٌ خشبي وأيقونةٌ لمريمَ العذراء، وأمامه مصطبةٌ جلست عليها. ألقت ببصرها خارج الحجرة، فرأت الأب (سمعان) يقف مع الرجل الغريب وقد أخذا يتحدثان باهتمام، فجأةً نكّس الغريبُ رأسه، بينما عبّس وجه الأب (سمعان) وهو ينظر نحوها في شفقة. قامت من جلستها احترامًا، حينما رأت الأب (سمعان) يدلف إلى الحجرة، وفي يده صندوق صغير ولكن قلبها

انقبض حينما قال في بطء المتحسس لوقع كلماته:

- أتى التاجر (موهوب) من الفسطاط لأجلِكِ يا (ومن)!

قالت متوجسةً:

- ماذا حدث؟

قال الأب (سمعان) في حزن:

- لقد مات (يوسف بن صَدقَة)!

وكأنما عصفت عبارتُه بمصراعي نافذة أملٍ فتحتْها لسنين، فأوصدتها في وجهها فجأةً! شعرت بألم ينهش صدرها في موضع كسرٍ قديم، فأمسكت صدرَها بيدها، وسقطت متهالكةً فوق المصطبة.

***

عادت من الدير عارية النفس، وقد تهتّك ثوبُ الأمل الذي ارتدته لسنوات طويلة، فكشفَ عن ندباتٍ عميقةٍ لا يزال بعضها حيًّا مُتقيّحًا. تركت (نميالة) التي كانت لا تزال على نشوتها بدرس الألحان، ثم دخلت إلى غرفتها. وضعت الصندوق الذي أعطاه لها التاجر (موهوب) على الفِراش، ثم ألقت بنفسها على السرير باكية. قبضت أصابعها، وكأنها تلملم روحها المبعثرة في يدها. وخزها ضلعها في موضع الكسر الذي يتجدد ألمه من آنٍ لآخر فشعرت بروحها تُزهق، تمامًا كيوم كسرِه. لماذا تعاودها الذكرى كعنقاء معمّرة تنقرها في صدرها كلما تعافت من الألم؟ ولماذا يستقر الليل حولها وكأنما وجد لنفسه محلًا إلى الأبد؟! صهرت الدموع وجنتيها وهي تتذكر يومَ أن قال لها: (قلبكِ أرضٌ بِكر ومن يملكه سيرفع رايته عليه ولن يرحل!) ولكنه غرس رايتَه في قلبها ورحل! رحل في المرة الأولى تاركًا لها

الأمل، ورحل في الثانية بلا رجعة تاركًا لها صندوقًا لا تعرف ما به! قامت ونظرت إلى الصندوق. فتحته، فوجدت به مفتاحًا كبيرًا على شكل مفتاح عنخ، ورسالةً من البردي. فتحت الرسالة، ثم قرأتها بعينٍ متلهفة مراتٍ ومرات، قبل أن تتركها وتنخرط في البكاء. دخلت عليها (دميانة)، فانزعجت. سألتها:

- ما بكِ يا أمي؟

مسحت دموعها، وضمتها إلى صدرها، ثم ناولتها الرسالة، وقالت:

- هذا ميراثُ أبيكِ يا (دميانة)!

*****

مدينة قوص

(١١٥٥ ميلاديًا)

(٣)

لا زحامَ يفوق زحام شهر شوال في أسواق (قوص). ففي هذا الشهر تصل قوافل الحُجّاج عبر النهر إلى ميناء (قوص) لتمكثَ بها أسبوعين أو ثلاثة، كي تتزود بالمؤن، قبل أن تستأنف رحلتها عبر البراري الوعرة إلى ميناء(عيذاب)، حيث يركب الحُجاج البحرَ مرةً أخرى كي يصلوا إلى إمارة الحجاز. في هذا العام كان الزحام مضاعفًا، فقد وافق شهرُ شوال الهجريِّ شهرَ كيهك القبطي، الذي يحتفل القبط في آخره بيوم الميلاد. اكتظ سوق اللبادين بالقبط الذين توافدوا من الكورات والنجوع لشراء الملابس والأقمشة استعدادًا للاحتفال بالعيد. أصبح الإقبال على ارتداء الجوخ الفرنجيِّ متزايدًا بعدما عمَّ الغلاءُ وعجَزَ الناسُ عن شراء الصوف. سار

(مينا) بين زحام الناس التي تُقلّب في البضائع ببؤس وهي تختار من بينها الأرخص لستر أجسادها. يقترب العيدُ فيستحيل العجز ماردًا تنسحق تحت أقدامه رؤوسُ الفقراء. أزاح أكتافَ الناس التي فاح من أفواهها بخرُ الشتاء محملًا برائحة الجوع، واخترق طريقه بين الصفوف شاردَ العقل، قاصدًا حانوت صديقه (إبراهيم النصراني) في سوق الشمّاعين.

يمتلك (مينا) أرضًا خصبةً في نواحي (قوص)، يزرعها بالقصب، ويُقيم إلى جوارها معصرةً تُدِرُّ عليه من المال ما يجعله في زُمرة الأعيان، ويعيش في بيتٍ واسعٍ مع ابنته (وَمَن) بعدما تُوفيت زوجته. استطاع (مينا) أن يصنع ثروةً في مدينةٍ يحكمها الأغرابُ بغير تنازلات كبرى. صنع لنفسه دائرةً آمنةً حيث لا حديث في أمور الحُكم ولا حديث في أمور الدين. كلُّ ما يربطه برجال السلطة هو البَرطلةُ التي يدفعها للأمراء حتى يأمن شرَّهم، وكل ما يربطه بالكنيسة هو تلك العُشور التي يؤديها للبِيعة، من أجل الفقراء، وليس من أجل الآباء! فقد كان يرى أن معاناة الناس في العالَم قد صنعها الولاةُ، ورجالُ الدين على السواء .

تذكر ما وقع بينه وبين ابنته (وَمَن) في ذلك الصباح، فاغتم. فبعد وفاة زوجته، شغله العملُ وجَمْعُ المال عن القرب منها. ترك تربيتها لخادمته العجوز (حِنّة)، التي تركتها لراهبات الدَّير كي يقُمن بتعليمها فروض الدين. حتى كبرت (ومن) وصارت فتاةً يافعةً يطلبها الخُطاب، وأصبح لزامًا عليه أن يختار لها زوجًا يحفظ مالَها الذي أفنى العمرَ في جمعه. ألحَّ عليه ابنُ أخيه (بطرس) في طلبها فوافق. لم يكن (بطرس) الأفضلَ، ولكنه الأنسبُ من وجهة نظره وحساباته. فقد كان (بطرس) يتولى إدارةَ معصرته منذ سنين، وكان شديد الإخلاص والصدق، وهما الصفتان المحببتان إلى قلبه حتى وإن كان الفقر قرينَهما.

في ذلك الصباح، عزم أن يخبر (وَسَن) بما استقر عليه رأيه. انتظر حتى وضعت (جِنَة) صحيفة الطعام أمامه، ثم قال لها:

- أين (وَسَن)؟

- في الطابق العلوي، تعد لها الحائكةُ ثوبَ العيد، كي تحضر به قُداس عيد الميلاد.

أزعجه ما تقول، فقال لها متهكمًا بصوته العريض:

- ثوب العيد؟! الفتيات في الثامنة عشرةَ يحِكنَ ثوبَ الزفاف، وهي لا تزال تحيا كصبيةٍ في العاشرة يا (جِنَة)!

قالت كي تُرقق قلبه:

- (وَسَن) تحب تلاوة المزامير وسماع الألحان يا سيد (مينا)، ولا بأس من بعض الفرح في العيد بثوب جديد.

لم يعجبه كلامها، ولكن لاحَ له أن يسألها عن رأيها في زواج (وسن)، فقد كانت (جِنَة) هي أقرب الناس إليها، فقال:

- ما رأيكِ في زواج (وَسَن) يا (جِنَة)؟ قد خطبها ابن عمها (بطرس) مني.

امتقع وجه المرأة الأسمر حتى بدا كلونِ طرحتها الأجرب، وتمتمت في خفوت:

- خطبها (بطرس)؟!

قطّب حاجبيه وكأنه لا تُعجبه ردةُ فعلها، ثم قال:

- نعم، لماذا تندهشين؟

قالت متلجلجةً:

- لا شيء! ولكني أعتقد أن (وَصْن) قد لا ترغب في الزواج منه.

صدمه قولها، فقال في حدة:

- لماذا؟ ما الذي يعيب (بطرس)؟

قالت مسرعة:

- لا شيء يا سيد (مينا)، ولكنّ ظني أن الفتاة لا تزال صغيرةً على الزواج.

قال في حدة:

- صغيرة! بلغت الثامنة عشرة، وتقولين صغيرة!

ثم أردف في عنف جعلها ترتجف:

- قد أفسدها تدليلُكِ يا (حِنّة)! اذهبي وأحضريها، ولا تخبريها بشيء.

بعد قليلٍ عادت ومعها (وَصْن) وكان يبدو أنها قد أخبرتها. جلست (وَصْن) إلى جواره وهي تفرك يديها المرتعشتين، أبعدت ناظريها عنه، وقالت وهي تُطرق ببصرها نحو الأرض:

- أمرك يا أبي!

قال في هدوء:

- لقد كبرتِ يا (وَصْن) وكثر خُطّابك!

لم تنبس بكلمة، وإن ازدادت رعشةُ يديها، فتابع بالهدوء ذاته:

- قد تقرّب إليّ أعيانٌ من القبط يريدون مصاهرتي، ولكني لا أرغب إلا أن تعيشي في كنف زوجٍ يحفظك، ويعرف قدرك، وهذا لن يكون إلا مع رجلٍ

نعرفه ويعرفنا، وبيننا وبينه عصبٌ ودمٌ.

ظلّت على صمتها، فأردف:

- قد ألحّ عليّ ابن عمك (بطرس) في الزواج منك، وأرى أنه خير من يحفظ شرفنا، وأموالنا، فماذا تقولين؟

تلاحقت ضربات قلبها حتى ظنّت أنه سيقفز من فمهاالخرج صوتها متحشرجا مطموس الحروف وهي تقول:

- لا أريد!

كذّب سمعه، فأمال رأسه نحوها وقال مستوضحًا:

- لا تريدين؟

- نعم!

- لماذا؟

انتفضت خوفًا، وهي تتأهب لما ستقول، كانت تعلم أنهاسوف تثير غضبه، ولكنها عزمت أن تقوله مهما حدث. قول الحق يُحرر الإنسان، هكذا تعلمت من معلمة الدين. تعلم أن أباها قد شرد عن حظيرة الإيمان منذ زمن بعيد. لم ترَهُ يومًا يقف معترفًا أمام مجمرة البخور، ولم تشاهده يومًا في قداس الآحاد يصلي خلف الكاهن. كان فقط يرافقها في قداس الأعياد، لا لشيءٍ إلا ليرى فرحتها بالعيد. كانت تود أن تسأله دائمًا: لماذا لا يهتم بالبحث عن الخلاص لنفسه، فالخير لا يزال بداخله، ولكنها كانت تخشى من ردة فعله. أما الآن فلن تسمح له بأن يسحبها عن طريق الخلاص الذي اختارته لنفسها. جمعت شتات أنفاسها، واستلهمت صورةَ القديسة الشهيدة (دميانة) وهي تجلس في قصر أبيها في البراري، تحيط برأسها هالةُ القديسين، وتقول:

«لماذا تريد زواجي من الأمير يا أبي؟ وأنا أريد أن أعيش معك؟» أغمضت عينيها، ثم قالت بصوتٍ واضحٍ جلي:

- لا أريد الزواج يا أبي، فأنا أريد أن أحيا في البتولية!

وبدلًا من أن تسمع صوته، هوَت على وجهها صفعةٌ، تركت علامةً على وجهها لأيام.

* * * * *

(٤)

تجاوز سوق اللبّادين المزدحم، بعقلٍ منشغل، ثم عبر زقاقًا جانبيًا كي يصل إلى سوق الشمّاعين. في منتصف الزقاق الضيق الخالي من المارة، بيتٌ من بيوت الخواطي، تجلس على مصطبته فتاةٌ من البغايا ينحسر الثوبُ عن ساقيها، ويُزين كاحلها الأيمن خلخالٌ من الفضة. مالت الفتاة بجسدها للخلف، وتمتمت في غنجٍ حين رأته، وكأنها تدعوه إلى الدخول. ألقى إليها بنظرةٍ مهيبة، لملمت معها الفتاة ساقيها، ثم تجاوزها واستكمل طريقه إلى سوق الشمّاعين. صعد الدرَج المؤدي إلى حوانيت السوق، التي تتحلى على مداخلها الشموع والقناديل، ويفوح من مباخرها أريجٌ يُزيل من صدر الداخل إلى السوق دَنَس المرور بزقاق الخواطي. اتجه إلى زاوية السوق، حيث حانوت صديقه (إبراهيم النصراني)، هكذا يناديه الناس في السوق، لتفادي الخلط الذي يُحدثه اسمه الذي يتسمّى به المسلمون والنصارى على السواء، رغم أن الرجل لم يُقصّر في إظهار هويته، فقد كان يُعلّق صليبًا من السعف على مدخل الحانوت، ويضع بداخله أيقونةً لمريم البتول، تعلوها مجمرةٌ من البخور، وشمعةٌ من دهن مُعطّر تدوم رائحتها لأيام. كان (إبراهيم) يجلس على كرسي أمام الحانوت، وأمامه امرأةٌ تشتري شمعتين

من المعروض أمامها، ومعها طفلة صغيرة، سألته المرأة:

- بكم هاتان الشمعتان يا عم (إبراهيم)؟

ابتسم ابتسامةً رائقة، ثم قال:

- بدعوتي بَركةٍ من سيدة النجاة.

ابتسمت المرأة، فتابع:

- قولي: قبلت، فقد بعتُهما لامرأةٍ قبلك بثلاث دعوات!

ضحكت المرأة، وقالت:

- بل أدعو لك ثلاث دعوات.

ناول الطفلةَ الصغيرة شمعةً حمراء إضافية، وقال وهو يمسح على رأسها:

- وهذه هديةٌ للملاك الصغيرة، مقابل الدعوة الثالثة.

لمح (مينا) مقتربًا منه فقام مُرحِّبًا به، ثم سحب كرسيًا خشبيًا من داخل الحانوت، وأجلسه إلى جواره. قال (مينا):

- أراك تبيع شموعَك بدعوات المصلين!

قال (إبراهيم):

- دعواتهم هي كل ما أرجوه من ربح.

ثم أردف حين رأى الهمَّ على وجهه:

- ما بك؟

زفر (مينا) زفرةً أحس هو بمرارتها في حلقه، فسأله مرةً أخرى منزعجًا:

- ما الذي حدث يا أبا (ومن)؟

أعاد (مينا) أحداث الصباح، وحكَى ما وقع بينه وبين ابنته. يدرك (إبراهيم) أن (مينا) أبعد ما يكون عن السماح لابنته بالبتولية. كم دارت بينهما نقاشات، يأس فيها من تغيير قناعات صديقه، الذي يؤمن بأن كلّ شيء قد ضاع بيد الآباء يوم أدخلوا العربَ إلى مصر كي يطردوا الروم الملكانيين منها كثيرًا ما كان يردد: «كان خيرًا لنا أن نحيا مع الروم الملكانيين بدلًا من أن نجاور العرب»، ثم يتذكر أنه قد خرق عهده بعدم الحديث في أمور السياسة، فيكفّ عن الجدال، ويعود للصمت مكرَهًا.

استمر الصمت بينهما للحظات، تفكّر (إبراهيم) خلالها، ثم قال:

- دعها تختار طريقها يا (مينا)!

نظر إليه متعجبًا ثم قال:

- لا أريد لنسلي أن ينقطع بعد موتي يا (إبراهيم)!

- ما دمتَ تؤمن بالموت، فما الذي يهمك من أمر الولد؟

- جمعتُ المال من أجلها ومن أجل أولادها!

- بل جمعتَه لأجلك أنت!

- لن أعيش أبد الدهر.

- الحياة لا يضمنها المال والولد، بل يضمنها الإيمان بالرب.

- لو كان الإيمان ضامنًا للحياة لما مات القديسون بأيدي الطغاة.

- ماتوا كي يَحيَوْا في الأبدية.

- أريد أن أحيا على الأرض، وليس في الأبدية!

ثم ابتسم وقال كي يُغيّر مجرى الحديث:

- دعْ لي أنا جمع المال على الأرض، وبِعْ أنت شموعك لأجل الحياة الأبدية!

ثم أردف:

- على ذكر الشموع، يريد قصر الوالي ألف شمعة، وخمسين مُدًا من العسل!

قال متعجبًا:

- ألف شمعة!

ابتسم ساخرًا وقال:

- نعم، يُزينون القصر ويستقدمون الشعراء للاحتفاء بالوالي (شاور بن مجير السعدي)!

قال (إبراهيم):

- حسنًا، سأحصي ما عندي من شموع وأخبرك بعددها، متى نرسلها؟

- بعد العيد.

قام (مينا) ثم صافحه وهمّ أن ينصرف، ولكن (إبراهيم) أمسك بيده في رجاء وقال:

- دعِ الربّ يختار لابنتك طريقها يا (مينا)!

ثم أردف وقد ارتعش صوته:

- صدّقني، لا حيلةَ مع القدر.

تنهد (مينا)، ثم قال:

- ليتني أمتلك الحيلة يا (إبراهيم)، مأدَعُ الأيامَ تفعل ما تشاء.

* * * * *

(٥)

غادَر (مينا) زحام السوق واجتاز الطريق متجهًا نحو المعصرة. اختار طريقًا مختصرًا بين حقول القصب، المحببة إلى قلبه، تحيط به عيدانها الذهبية، وتيجانها الخضراء الطويلة التي تتأرجح مع نسمات الصباح. علم من مسنٍّ قبطيٍّ -وهو صغيرٌ- أن نبتة القصب كانت تُسمى (آرو) عند القبط في زمن الوثنية، وأنهم كانوا يرسمونها على جدران البرابي، ويؤمنون بأنها الجنة التي تشرق منها الشمس ولا يدخلها إلا من حظِيَ بتحنيطٍ جيد. كان يراوده شعورٌ دائمٌ بالسعادة كلما مرَّ في هذا الطريق، وكيف لا، وهو يحيا في الجنة التي تمناها أجداده للآخرة، وهو لا يزال بعدُ في الدنيا! وصل إلى المعصرة المبنية بالطوب اللبِن، وسُقفت جدرانها بعريشٍ من خشب البلوط، ثم دلف من بابها. رأى أحد العمال يضع عودًا من القصب لم تُنزع أوراقه جيدًا بين أسطوانتي المعصرة الخشبية، فاستشاط غضبًا. ثم لمح عامل المستوقَد يزُبُّ العسلَ في بطءٍ وكأنما غلبه النعاس، فصرخ فيه كي ينتبه ويستعيد سرعته في العمل. خرج (بطرس) مع الصوت المرتفع، وقد أدرك من غضب عمه، أن اليوم لن يكون هينًا. سار إلى جواره صامتًا، ثم دخلا إلى عريش المكتب. زفر (مينا) متأففًا ثم قال:

- من أين أتيتَ بهؤلاء العمال يا (بطرس)؟! يُلقِمُ أحدهم الآلةَ بالقصب كما يُلقم البهيمة، ويزُبُّ الآخرُ العسل بخمولٍ كما تزُبُّ الجاريةُ العجين.

قال (بطرس):

- أصبحنا لا نجد عمالًا يا عمّاه، ترك العمال المَعاصر.

- وماذا يعملون؟

- يطوفون بالشموع والمباخر والفخار في أسواق (قوص)، أو يفترشون الأرض بها حول خانات الحجيج.

يدرك (مينا) هذه الحقيقة، فمنذ تحوّل طريق الحج من (القلزم) إلى (قوص)، تجنبًا لهجمات الفرنجة، ازدادت التجارة في أسواق المدينة. وجذب ذلك الشباب أملًا في الربح العاجل، أو «الربح الزائف» كما يسميه. فلا شيء يُبغضه قدرَ شابٍّ يطوف بفخّارة ليبيعها، لا هو صنعها، ولا يثيره أن يتعلم كيف تُصنع، ثم يبيعها مقابل عدة خرُوباتٍ لا تكفي طعامه ليوم واحد. جلس على المكتب وجلس أمامه (بطرس) فاتحًا سجلًا من البردي، مدوّنٌ به ما تم إنفاقه، وما تم إنتاجه، وما يُنتَظر بيعه. اعتاد (بطرس) أن يفعل ذلك بنظام دقيق، وأن يُطلِع عليه عمه في كل يوم. همّ أن يبدأ بعرض الإيرادات، ولكن (مينا) استوقفه قائلًا:

- اسمع يا (بطرس)، أريدك أن تُرجئ الزواج من (وَمَن) لبعض الوقت!

بُهت (بطرس)، ثم قال بشيء من الخيبة:

- لماذا يا عمّاه؟

تنهد (مينا) ثم قال:

- يبدو أني انشغلت عن (وَمَن) فحادت عما كنتُ أتمناه لها!

فزع (بطرس) وقد ذهب عقله في مظانٍّ شتّى، قال متردّدًا:

- ماذا حدث يا عماه؟

قال (مينا) في حنق:

- الفتاة تنزع إلى البتولية ولا ترغب في الزواج!

امتقع لون بطرس، وقال بصوت مبحوح:

- وهل توافقها في ذلك؟

عبس وجه (مينا)، وكأنه شعر بالإهانة، ثم مال إلى الأمام، وهو يقول:

- بالطبع لا!

ثم فرك وجهه بكفيه وكأنه يُذهب عن جفنيه الفِكر والتعب، ثم قال:

- أرجئ الأمر يا (بطرس)، وسأحاول أن أصلح ما أفسدته بانشغالي عنها.

ثم تابع كي يغير مجرى الحديث:

- قل لي ماذا لديك في السجل!

عرض عليه (بطرس) ما قيده في السجلات بعقل شاردٍ وشعورٍ بالهوان يمتطي أكتافه، فقد كان حبّه لـ (ومن) يجعله يضاعف من جهده، أملًا في أن تراه كبيرًا كأبيها. ولكنه اليوم اكتشف أنها لم تكن تراه على الإطلاق! كيف تلاعبت به أوهام الحب فجعلته يتخيل أنها تشعر بشوقه؟! اللعنة على المُحِب حين يُغضي عينيه على قذى الشوق، فيعيش كفيفًا متخبطًا في أوهامه. انتهى من عرض السجل، وهو لا يزال على شروده. همّ أن يقوم، ولكنه تذكر أمرًا هامًا. أخرج من جيبه صُرّةً من المال وضعها أمام عمه وهو يقول:

- أتى في الصباح تاجرٌ من الإسكندرية، وقال إنه يريد أن يشتري مائة مُدٍّ من العسل الجلاب، نقدني خمسمائة درهم لحجزه، وسيأتي بعد العيد

لاستلامه ودفع الباقي.

قطّب حاجبيه، وهو يشعر بصعوبة تحقيق المطلوب، خاصةً وإنه سينشغل بإعداد طلبات القصر في الأيام القادمة. أحيانًا يأتي الرزق في غير وقته. ولكنه أمسك النقود راضيًا على أية حال، ثم سأله في تعجب:

- ومن هذا التاجر الذي ترك لك المال بغير صكٍّ ولا شاهد؟

قال (بطرس):

- اسمه (يوسف)، (يوسف بن صدقة)!

* * * * *

(٦)

قضى (إبراهيم) اليوم في مخزن حانوته يَعد أنواع الشموع التي لديه، ثم يدوّن العدد في سجل، حتى يعرف هل سيستطيع أن يفي بطلبات القصر في موعدها أم لا. نقر الصداع رأسه، بعد وقت قصير فزاغ بصره ولم يستطع التدوين. قرر أن يستأنف العمل في الصباح، فطوى السجل وغادر المخزن إلى داخل الحانوت. لم يكن الصداع سببه التفكير في طلبات القصر الجديدة، وإنما التفكير في حديث (مينا) عن ابنته، الذي أهاج غبار ذكرياتٍ ركدت في خبيئة نفسه لعقود. شعر بشوق للصلاة حتى يزيل تعبه، فأشعل فتيل شمعة وضعها في صحن الرمال أسفل أيقونة العذراء ورشم الصليب وهو ينظر إلى عيني البتول التي أرخت أهدابها وهي تنظر إلى وليدها في حنان. أهاجت نظرتها دموعه التي انهمرت من مقلتيه مع سيل الذكريات. تذكر زمنًا كان لا يزال فيه صبيًا دون العاشرة، لا يعرف من الدنيا سوى عبث الصبية في الحقول، أو اللهو في مياه الترع في كورة (أبي حنّس)، حيث كانت أخته (وَرْد) التي تكبره بسنوات قليلة، تتردد على الدير كي

تحفظ المزامير وتتعلم الطقوس. كانت (ورد) تمكث بالدير طيلة الصباح، ثم تعود إلى الدار بعد الظهيرة. في هذا العام اكتسح الفرنجة بيت المقدس، وأعلن الوزير (الأفضل بن بدر الجمالي) الجهاد، فتشدد الولاة في جمع المغارم لأجل الحرب، وأصبح لزامًا على كل كَوْرَة أن تجهز فارسًا وحصانًا، وأن تدفع جِزيةً مقدارها دينارين عن كل بالغ، لم يُعفَ منها أحد، حتى الرهبان في قلايتهم! وطاف النخّاسة وعصابات التُرك القبجاق في القرية يشترون من الفقراء أبناءهم، أو يخطفونهم، ثم يقومون ببيعهم في القاهرة والإسكندرية. وفي يوم مشؤوم خرجت (ورد) من كنيسة الدير فلمحتها أعينٌ متلصصة، وطَرِق بابهم بليلٍ. شعر أبوه بالوجل، فأشار إليه وإلى أخته كي يختبئا في خزانة الطعام. دلفا إلى الخزانة، فأطبق عليهما ظلامها، إلا من بصيص نور تسلّل من فرجة بين ضلفتيها. رآهم بعينه من الفرجة أكثرَ قبحًا ورعبًا مما يتخيله صبي في مثل سنه، كان أطولهم يرتدي لثامًا يخفي وجهه، ولكنه لم يُخفِ قبحَ صوته، وهو يقول بلغة غريبة:

- «كوز»!

فهمت أمه أنه يعني الفتاة، فصرخت! ووقف أبوه حائلًا بين الرجل وبين الدخول من الباب، دفعه الرجل في صدره فأسقطه أرضًا ودلف من الباب، ثم أخرج خنجره وهو يقول في صوت هادر بالعربية:

- أين الفتاة؟!

سمع صراخ أمه، وشعر بدموع (وَرد) -التي كانت تحتضنه في الخزانة- تتساقط على رأسه، وبدفء بوله يسري على فخذه. فجأةً انفتحت الخزانة وجذبهما الرجل إلى الخارج، والصراخ يملأ البيت. جرت أمه تحتضن (ورد)، التي تشبثت بحضنها، رفع الرجل خنجره مهددًا، بينما نظر أبوه نحوهما في شفقة العاجز وقد أدرك أن اللحظة الحاسمة آتيةً لا محالة. قام من سقطته،

ثم اعتذر للرجل في رجاءٍ كي لا يؤذيهم، ضمَّ (وَرْد) إلى صدره، ثم قال وهو يمسح وجنتيها:

- أريد منك أن تعديني بشيء يا (وَرْد)!

نظرت إليه بعيونها الباكية، فتابع:

- لا تكفّي عن تلاوة المزامير التي حفظتِها في كل ليلةٍ مهما حدث!

ثم أمسك بصليب يتدلّى من عنقها وقال:

- لو نزعوه من عنقك، فلا تنزعيه من قلبك، هل تفهمين؟

هزت رأسها بالإيجاب، فقال:

- قولي (أحبك يا أبي).

قالت باكيةً:

- أحِبك يا أبي!

فإذا به ينتزعها من حضنه ثم يُسلمها للرجل. صرخت أمه، وانفجرت (وَرْد) في البكاء بينما ابتسم الرجل، الذي أخرج من نطاقه صرةً من النقود، ألقاها إلى أبيه وهو يقول:

- هذا ثمنها!

حمل الرجل (ورد) بيديه وهي تصرخ، ثم استدار خارجًا مشيرًا لرفاقه كي يتبعوه. لم يدرِ حينها لماذا تركوه؟ هل استصغروا سنه؟ أم أنهم كانوا بحاجة إلى الفتيات فقط؟ رأى أباه يمسك بكيس النقود، يتطلع إليه ثم يفرغ ما به من دراهم على الأرض، قبل أن يقف ويهرول خارجًا وهو يصرخ:

- (وَزد)

ولم تمر لحظاتٌ حتى أتاهما صوتُ صرخته المكتومة، وجسده يرتطم بالأرض، وصوته الواهن يقول:

- (وَزد)!... (إبراهيم)!

* * * * *

(٧)

اشتد الزحام حول كنيسة العذراء في قوص بعدما انتهى القداس في ليلة يوم الميلاد، خرج المصلون بعدما فرغ مطران الإبراشية من عِظته لجموع الكنيسة التي وفدت من جراجوس والقفط وسائر نواحي قوص، وهم يهنئون بعضهم البعض قائلين: «هليلويا، هليلويا» أي: «سبّحوا للرب، سبّحوا للرب». حضرت (ومن) القداس، بعد أن استعانت بمكر (جِنّة) التي طلبت من الشيخ (إبراهيم النصراني) أن يحادث (مينا) كي يسمح لها بالحضور. فقال له (إبراهيم):

- لا تفسد فرحة الفتاة بالعيد يا (مينا)، ولا تحرمها وتحرم نفسَك من بَركة التراتيل في القداس.

وافق (مينا)، فعلى الرغم من أنه قد هجر الصلاة في الكنيسة، إلا إنه كان يشعر بالبهجة في أيام الأعياد، حتى ولو لم يشارك في القداس. تركها تذهب مع (جِنّة)، وفي صبيحة اليوم التالي أفطر معها، ثم خرج مع صديقه (إبراهيم) كي يتجوّلا في الطرقات ويتحادثا. استقبلهما بعض الغلمان بحلوى النيدو والزلابية، ورأى بعض الأهالي توزع أقداحًا صغيرةً من النبيذ والعرق، تناول واحدًا منها. فـ (مينا) يحب النبيذ، ولم يمنعه تناول قدحين في الصباح من أن يتناول قدحًا ثالثًا مع قطعةٍ من الحلوى قدّمها له أحد

الشبان. اقتربا من الميدان الذي يقابل الكنيسة، فرأى الأطفال ترتدي ملابس جديدة، ويلتفون حول خُدام الكنيسة الذين كانوا يوزعون الشموع الملونة، والتماثيلَ الصغيرة ليسوع المسيح، ومريم البتول. وعلى الجهة المقابلة من الميدان، وجد مجموعةً من الشباب يلتفون حول شابين يتباريان بالعصيِ في لعبة التحطيب. صراخ الجماهير وحماسهم كان لافتًا، وأثار فضول (مينا) الذي كان يعشق تلك اللعبة في شبابه، حتى إنه كان يشعر بانقباضات في عضلاته كلما شاهد شابين يتباريان فيها. ولولا الخجل لتناول نبُّوت أحدهما وانزلق إلى ساحة المباراة، كي يُرِيَ الجمهورَ مهاراتِه التي يُكبّلها الوقار. ابتلع ما بقي من قدح الخمر، ثم وكز (إبراهيم) في كتفه برفق وقال:

- دعنا نرى خيبةَ شبابِ هذه الأيام في التحطيب!

تذكر انك حملت رواية عهد دميانة حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

ابتسم (إبراهيم) الذي يعلم ولع (مينا) باللعبة، وتبعه إلى الحلقة المزدحمة، شقَّا لنفسيهما طريقًا بين الزحام، ووقفا عند الصفوف الأولى منها، وقد ملأت آذانَهم صرخاتُ الشباب المتحمس. راقب (مينا) اللاعبين باهتمام، وسرعان ما انتقلت إليه عدوى الحماس، أحد اللاعبين كان قبطيًا من (جراجوس)، والآخر كان شابًا عربيًا من (قفط). كان الشاب القبطي خفيفًا كالفهد، لا تصل ضربات غريمه إلى جسده، ويسدد ضرباتٍ خاطفةً لو هوت إحداهن على منافسه لحسم اللعبة لصالحه، ولكن الشاب العربيَ كان قويًا، يتلقى الضربات على نبوته، ثم يسدد لمنافسه ضرباتٍ أقوى، ويساعده في

ذلك ذراعه المفتول. اشتدت وتيرة الحماس وتعالت صيحات المشجعين من الطرفين، وفجأةً سقط نبّوت الشابّ العربيّ على أصابع الشابّ القبطيّ التي تمسك بالعصا، فألقى العصا وهو يصرخ متألمًا، وقد أمسك أصابعه التي تحطمت. في حين تعالت صيحات الشاب العربي ورفقائه فرحًا بالفوز. لم يستطع (مينا) أن يكتم احتجاجه، فقد كانت قواعد اللعبة تُحتم ألا توجّه ضرباتٌ لليد التي تمسك بالعصا، فصرخ محتجًا:

- غشاش!

أمسك (إبراهيم) بساعده، وكأنه ينبهه إلى أن الأمر لعبة لا أكثر ولكن تنبيهه جاء متأخرًا، فقد شجعت صيحةُ (مينا) الشبابَ الغاضب من الخسارة، على الصياح في صوت واحد:

- غشاش! غشاش!

شعر الشاب العربي ورفقاؤه بالإهانة، ومنعتهم قلةُ العددمن الاشتباك بالأيدي، فتشابكوا بالألسنة، وردّوا على الهتاف بالسباب والبصقات. أصابت (مينا) إحدى البصقات، فثار بشدة، وسبّ الشاب الذي بصق عليه، فردّ عليه الشابُّ بحجرٍ كاد أن يصيبه.

فجأةً هجم شباب جراجوس على شباب القفط، وإذا بساحة الميدان تتحول إلى ساحة حربٍ تتبادل فيها اللكمات وضربات العصيّ والحجارة. انسحب (إبراهيم) وهو يَقي رأسه بيده خوفًا من أن يصيبها حجرٌ طائش، بينما مال (مينا) على الشاب القبطي الساقط على الأرض خوفًا من أن تدهسه الأقدام فجأةً علَت صرخةٌ، بعدما شقّ حجرٌ طريقه في الهواء واصطدم برأس الشاب العربي الذي كان يلعب منذ قليل، فإذا به يسقط صريعًا مُضرجًا في دمائه، وقد زلزلت صرخته القلوب.

(٨)

أقبل الظلام قبل أوانه بساعات، وتلبدت غيوم الشر فوق سماء (قوص) التي كانت تحتفل في الصباح بيوم الميلاد، فإذا بالحزن والخوف يُخيمان عليها عند الظهيرة. وصلت أنباء مصرع الشاب إلى أهله في القفط، فتحركت جموعٌ ثائرةٌ من قبيلته نحو المدينة يريدون القصاص لمقتل ولدهم. وأراد صاحب الشرطة أن يئِد الفتنة في مهدها، فأرسل جماعةً من العسكر فقبضوا على (مينا) وبعض الفتية من (جراجوس) وقيدهم إلى شجرةٍ في الميدان، على بعد أذرع قليلة من جثة القتيل. علم (بطرس) بالخبر من الشيخ (إبراهيم) فهرول إلى دار عمه، وأخبر (ومن) بالفاجعة، صرخت (ومن) في فزعٍ وخرجت بلباس البيت! بينما وقفت (حِنّة) أمام الدار مولولة. حين وصلا إلى الميدان كانت نذر الكارثة تحوم حول المكان، وكأنما أفلت الشر من مكمنه، وبسطت مرَدةُ الجحيم أجنحتها فوق الساحة. فقد توافد أهالي القتيل في أفواجٍ بلغت المئات، وقد حملوا الهراوات والعصيّ وتمنطق بعضهم بالخناجر والسيوف. أحاط رجال العسكر بجثة القتيل، والمقبوض عليهم، ومنعوا الأهالي من الاقتراب منهم. فجأةً اشتعل الميدان، وكأنما ألقى أحدهم بالنفط عليه، فقد ظهر العسكر العائدون من (جراجوس) بباقي الفتية المتهمين بالقتل، فانطلق شباب (القفط) نحوهم بخناجرَ هادرة، وقد بدا جليًا أن مارد الغضب لن يهدأ إلا بعد أن يرتوي بالدماء. لم تفلح سنابك الخيل ولا ضربات العصيّ في صد الشبان الغاضبين، وتلاقى الفريقان. فأُثخِنت صدورٌ كانت تمرح في سعادة قبل ساعات، بالجراح. واختلط صراخها مع نفير الأبواق التي كانت تستدعي المدد من رجال الشرطة. ابتلع طوفان البشر (بطرس)، ووجدت (ومن) نفسها وحيدةً تتقاذفها أمواجُ البَشر الغاضبة. فجأةً ارتطمت بجانبها هراوة غليظة، اقتلعتها من مكانها وأطاحت بها أرضًا، شعرت بضلوعها تتحطم

وبروحها تكاد أن تزهق. قامت بصعوبة حتى لا تلقى حتفها تحت وطأة الحوافر الثائرة والأقدام الغافلة. ابتعدت بقدر ما احتملت أنفاسها حتى بلغت حافة الجرف المنحدر على جانب الطريق، شعرت ببصرها يغيم خلف دوائر صفراء متلاحقة وكأنها ألف شمس ساطعة، قبل أن تُظلم كلها فجأةً ويهوي جسدها إلى الجرف السحيق.

*****

(٩)

وقف مستترًا خلف حائط مهدّم فوق سطح بيت قديم يراقب أحداث الميدان. شعر بالقلق حينما اشتد الوغى وتزايدت أعداد العسكر في المكان. خشي أن ينكشف أمر البيت، فحمل قفص حمام البطائق الذي كان يستعد لإطلاق إحداها، وهبط به إلى الصحن. قرر الخروج والابتعاد عن المكان حتى تهدأ الأحداث. فتح الباب فوجدها تسقط على عتبته وكأنما سقطت من السماء. ارتبك وهمّ أن يزيحها جانبًا، ولكنه لمح تلك البقعة من الدماء التي افترشت صدرها فأشفق عليها. سحبها إلى الداخل، ثم أغلق الباب. كشف عن جرح صدرها، فهاله اللحم المتهتك والبقعة الزرقاء التي أحاطت به. أدرك أن وفاة الفتاة حتميةٌ إن تركها وحدها. تلثم بغفارته حتى يُخفي وجهه عنها، ثم فتح صرة القماش، وأخرج رداءً نظيفًا شقه بيده ثم طواه أكثر من مرة مزق جلبابها ثم ضمد صدرها العاري بالرداء، والفتاة تصرخ من الألم وهي ذاهلة جلس وهو يلهث، لا من التعب وإنما من القلق لا يدري ماذا يفعل: أيُلقِي بها إلى الطريق بعد أن يَجنّ الليل؟ أم ينتظر حتى تبرأ قليلًا؟ الخوف كل الخوف لو أفاقت وعلمت بأمره وبأمر مخبئه والخوف الأكبر أن يكون أحدهم قد رآه وهو يسحبها إلى داخل الدار! حسم أمره في أن يضعها في القبو الآمن أسفل الدار؛ فلو صرخت لن يصل صوتها لأحد.

ولو اقتحم أحدهم الباب فلن يراها. المهم ألا ترى وجهه أبدًا، وأن تظل تحت تأثير القنب حتى يفترقا. فتح حقيبة جلدية صغيرة، وأخرج بعضًا من عشبة القنب الجافة، فركها على فخارة تشبه المجمرة، ثم أشعلها. تصاعد الدخان الأزرق فألصق المجمرة بأنفها حتى يصل تأثيرها إلى عقلها مباشرة. حركت رأسها يمينًا ويسارًا بوهنٍ وهي تشعر بالاختناق، ولكنها سرعان ما هدأت حركتها، وراحت في سُبات. أزاح حصيرًا في ركن الحجرة، فكشف عن سرداب يُفضي إلى القبو. حملها وهبط بها إلى القبو، ثم عاد وأغلق السرداب.

***

خرج من الدار متوخيًا الحذر. صعد منحدر الطريق، واقترب من الميدان ساترًا وجهه بغفارته كي يستطلع ما يحدث. كان النواح على القتلى يملأ الأفق، وصيحات القتال لا تزال مستمرةً وكأن شياطين الفتنة لم ترتوِ بعدُ من قرابين الدم التي أهرقت على مذبحها. فجأةً ارتفع صوت الأبواق، وملأ الساحةَ قرعُ طبول معلنةً وصول الوالي. انتبهت حواسه كلها، فقد كانت المرة الأولى التي يرى فيها والي قوص الأمير (شاور بن مجير)، الذي كان يمتطي فرسه إلى جوار ولده (طَيّ). انطلقت جماعة من الفرسان محملةً بالرماح نحو الأهالي المتعاركة، أدرك من قوة بنيانهم وسرعة تحركهم أنهم من صبيان الحُجَر أقوى الفرسان وأشدهم تدريبًا. في لحظاتٍ كانت الحشود مفرّقةً إلى جماعتين حُجز بينهما برماح الفرسان، الذين أظهروا من الغلظة ما أطفأ الغضب في قلوب الأهالي وجعلهم يشعرون بالرهبة. انفرج الميدان على مساحة خالية من الأرض يغلفها الصمت، تقدم نحوها ركب (شاور) وقد تحلّق الفرسان في دائرة حول فرسه، وواجهوا الأهالي بوجوه صارمة، منعت أي شخص من الاقتراب. دنا صاحب الشرطة من فرس

الوالي، ثم قال في أسف:

- اشتبك الفتية في التحطيب، فألقى أحدهم حجرًا فقتل شابًا من القفط، وثارت الفتنة بين الأهالي.

رفع (شاور) ذقنه المدبب نحو السماء، وتنهد كمن ينفث نارًا، ثم قال بصوت عالٍ كضربات الصنوج:

- الفتنة!!

ثم أردف في صوت جهوري زلزل القلوب:

- أنا أبو شجاعٍ شاور بن مجير لا تقع الفتنة في ولايتي!

ثم التفت إلى صاحب الشرطة، وصرخ قائلًا وهو يشير نحو جثة القتيل:

- من قتل هذا؟

أشار صاحب الشرطة نحو رجاله، فأتوا بصبي جراجوس، الذي ارتعدت فرائصه خوفًا، ثم قال:

- قتله هذا الصبي بضربة حجر!

نظر (شاور) نحوه ثم قال في حزم:

- حسنًا، فليُقتص من هذا الصبي ولتقطَع رأسه.

جذب الحراس الصبي الذي وقف مستسلمًا ممتقع اللون وكأنما قتله الخوف، بينما صرخ أهله محتجين، واندفع أبوه نحو الأمير ممسكًا بقدمه راجيًا العفو، غير عابئٍ بضربات الفرسان الموجعة له، وهو يقول:

- ندفع الدِّية يا أمير ندفع الدِّية يا أمير!

فجأةً علا صوت (مينا)، الذي كان يقف خلفهم مكبّل الأيدي قائلًا:

- ألا تملكون رحمةً في قلوبكم! تقتصّون من صبي قتل صبيًا خطأ!

بُهت الجميع، حتى صاحب الشرطة! فالتفت إليه (شاور) وانتبه إلى القيد في يديه، ثم قال في حدة:

- من هذا؟!

قال صاحب الشرطة:

- هذا تاجر قبطي، شهد عليه صبية القفط أنه من أشعل الفتنة، ووجدناه بينهم وهو يشرب الخمر!

عقص (شاور) حاجبيه وقال:

- يشرب الخمر جهارًا في عشرة ذي الحِجة!

قال (مينا) في غير خوف:

- إنما أشرب الخمر في يوم عيدي!

رفع (شاور) ذقنه نحو السماء مرةً أخرى، ثم قال مناديًا على القاضي:

- يا أبا الفضل!

جاء الرجل هرولةً وهو يرفل في ثوبه الطويل، فقال له في صوت حادّ:

- فليُقتصّ من هذا الشاب إلا أن يعفوَ أهل القتيل أو أن يقبلوا بالدية.

ثم نظر نحو (مينا) وقال:

- أما هذا الذي أساء الأدب ولم يراعِ وقاره، فليَلبسْ لِباس الشهرة، وليُطَف به في نواحي قوص مُجرّسًا، ثم يُجلد مائة جلدة في ميدان الجامع، يوم

الجمعة.

ثم ارتفعت سبابته نحو الناس وهو يقول:

- يا أهل قوص! يا أهل الأدب المنقوص! والله ما أحببت أن يكون هذا أول عهدي بكم، ولا أردت أن أسير فيكم سيرةَ (الحجاج بن يوسف) -قبّح الله وجهه- في أهل العراق! ولكن مثلي لا تطِنُّ نَحلةٌ في داره بغير رضاه، فإن كان مِن الولاة قبلي مَن أرخى لكم اللجام، فلأضعنّ عليكم خِطامًا وزمامًا، ولأجعلنّ المربوط منكم عِبرةً للسائب.

* * * * *

(١٠)

أفاقت من إغمائها على ألمٍ يكتم أنفاسها ويكاد يسلمها إلى الموت. همّت أن تجلس، ولكنها شعرت بطقطقات ضلوعها كمخالب سَبعٍ تنهش جانبها فكتمت صراخها. ارتعش جسدها، فتحسسته بأطراف باردة. أدركت أنها تنام على الأرض، ونصفها العلوي عارٍ إلا من قماط يحيط بصدرها في قوة. أجهدت بصرها كي ترى معالم المكان في الضوء الخافت المتسلل من زاوية السقف، فأدركت أنها بحجرة غريبة تبدو كقبو، في آخره سردابٌ ولها سقفٌ مسطحٌ منخفضٌ ملطخٌ بالسخام. طرق سمعَها صوتُ هديل حمام، يتناغى بشجوٍ بالقرب منها، فاستأنست لصوته في هذه اللحظات الموحشة. لا تتذكر كيف دخلت إلى هنا، آخر ما تتذكره أنها قد انسلّت من الميدان زاحفةً، ثم سقطت فاقدةَ الوعي. سمعت صوت أقدامٍ تخطو مقتربةً، ثم فجأةً أزيح غطاءٌ من فوق السرداب، فملأ القبو بالنور. هبط رجل ملثّم إلى السرداب وفي يده مجمرةٌ يتصاعد منها الدخان، ثم وقف إلى جوارها.

تأوّهت وقالت في إعياء:

- أين أنا؟ ومن أنت؟

لم يُجبها. حاولت أن تتحرك، فنهشها ضلعها مرةً أخرى، فصرخت وشعرت بروحها تنساب مع أنفاسها. فقال لها:

- لا تتحركي! قد تحطمت ضلوعك وهناك جرحٌ في جانبك!

تقدم نحوها، ثم جلس إلى جوارها، ثم أدنى المبخرة من أنفها وقال لها:

- استنشقي هذا.

ملأ البخور أنفها وحلقها، وكادت أن تسعل، ولكنها كتمت سعالها حتى لا ينفجر الألم في صدرها مرةً أخرى، قالت بصوت مخنوق:

- ما هذا؟ أشعر أني أموت!

قال في رفق:

- لن تموتي.

ارتخى جسدها وشعرت بالألم يزول رويدًا رويدًا، قالت بكلمات تعثرت أحرفها:

- أ ر يدُ أبـ ي!

ولكنها لم تُكمل عبارتها، فقد تكاثفت السحابة الزرقاء في عقلها، فشعرت معها بطيف من السلام أخلدها إلى النوم. سقط وجهها على الأرض، فعلّق المبخرة على الحائط فوق رأسها، ثم صعد إلى الصحن. أزاح اللثام عن وجهه، وتلقّف أنفاسه. ألقى بنفسه على الأريكة، ثم زفر في قوة وهو يقول:

- ويحك يا (يوسف)! ما الذي أوحلك في تلك الأرض السبخة يا ابن (ورد)؟!

(١١)

كان (بطرس) أشدّ الناس بؤسًا في قوص يسير بجسدٍ مملوءٍ بثقوب تتقطر منها الأحلام. اهتزأ حذاؤه، كما اهتزأت كرامته، وهو يطوف على الأسواق والبيوت، يطرق أبوابها ليسأل عن ابنة عمه التي كانت تقف إلى جواره، ثم اختفت. حتى بيوت الخواطي طرقها فلم يجدها. فزّ عقله من رأسه، وصار كمجذوبٍ يقوده شيطان الحب، وتختلط في عينيه الأوهام بالصدق. صار يرى (وَمن) في كل امرأة سائرة على الطريق، أو مُنحنية بجذعها في الحقل، فكان يدنو منها ولا يفيق إلا على صراخها أو رذاذ بصقتها. وحين ينقضي النهار يعود إلى الشيخ (إبراهيم) فيقول له مذهولاً: كيف اختفت؟ حتى القتلى تفوح من جثثهم رائحة العفن! هل فرّت إلى السماء؟ أعلم أنها بنت السماء، ولكنها كانت تقف بجانبي على الأرض!

لم يجبه (إبراهيم)، ولم يُفصح له عن مخاوفه التي ألحت عليه، بأن يكون بعض رجال القفط قد خطفوها انتقامًا لمقتل ولدهم. قبولهم الدّية لا يعني العفو، والدم لا يمحوه المال، بل الوجع! ولا شيء أكثر وجعًا من أن تُخطف فتاةٌ من أهلها. خشي أن يقول له ذلك فيقوده شيطانه إلى هناك، ويزداد القتلى واحدًا. نصحه بالبحث عنها في الأديرة والكنائس، وذكّره بأن الفتاة كانت تميل إلى البتولية، ولعلها مختبئةٌ الآن في أحد الأديرة. صرفه (إبراهيم) في هذا الاتجاه وسلك هو طريقًا آخر أخبره بعض الناس بأن (طي)، ابن الوالي (شاور بن مجير) يقود جماعةً من العسس، يتلصصون على الناس، ولكنهم يقدمون أيضًا خدمات أخرى مقابل جُعلٍ من المال. ذهب إلى (طي)، وترجاه أن يأمر رجاله بالبحث عن (وَمن). اعترض (طي) في بادئ الأمر فكيف يبحث عن ابنة الرجل الذي يعاقبه أبوه، ولكنه بعد قليل تجاوز عن هذا الاعتراض مقابل مضاعفة الثمن. مرت أربعة أيام،

وكأنها أعوامٌ من الانتظار ولم ترِد أخبار من العسس. اتكأ (إبراهيم) على عصا الصبر الملتهبة في صبيحة الجمعة وذهب إلى (طي)، وسأله:

- هل من أخبار عن الفتاة؟

قال في تأكيد:

- لا أثر لها في القفط بأكملها.

نظر إليه بخيبة أمل وقال:

- إذن أين اختفت؟

قلب (طي) شفته السفلى بغير اهتمام ثم قال:

- قد يلفظ النهر جثمانها خلال أيام.

***

اتكأت على ذراعيها ثم جلست محتملةً آلام ضلوعها المبرحة. عاودها الدوار وشعرت برأسها كقربة ماءٍ تتجشأ فقاقيعَ هوائها بعد أن مالت. أغمضت عينيها وقاومت السقوط أرضًا، صافحت أنفها رائحةُ البخور التي تسللت من المجمرة المعلّقة فوق رأسها، وملأت هواء القبو المكتوم برائحة كريهة تشبه رائحة البول. ورأت مشعلًا في نهاية السرداب تتأرجح ذؤابته، وكأنها بجوار مصدرٍ للهواء. راودها شعورٌ بأن هذا البخور هو السبب في نومها المستمر. كتمت أنفها بطرف ردائها الممزّق، ثم أمسكت بركوة الماء التي بجوارها، وصبّت ماءها فوق حطب المجمرة، ثم عادت إلى رقدتها مجهَدة. مرّ وقت ليس بقصير قبل أن تهدأ أنفاسها ويصفو عقلها ويعود إليها الإحساس بالمكان. سمعت هديل حمامٍ مرةً أخرى يأتي من مكان قريب. نظرت إلى جسدها، في ضوء المشعل المنسلّ إلى القبو، فهالتها قذارته،

أدركت أنها هي مصدر الرائحة التي تملأ أنفها. كم من الأيام مرّت عليها وهي على هذا الحال؟ لا تدري. تذكرت ذلك الملثم الذي كان يزورها كطيف بين المنام واليقظة. كيف أتت إلى هنا؟ ولماذا يضعها آسرها في ذلك القبو الموحش؟ ضجّت رأسها بالأسئلة، قبل أن يلتهمها الخوف. تشبثت أصابعها بالجدار وقامت محتملةً الألم مرةً أخرى، سارت بخطوات مترنحة في السرداب. دفعت غطاء الفتحة بيدها، فتسلل النور وامتلأ صدرها بهواء نقيٍ أزاح الهواء الراكد في صدرها لأيام. فجأةً رأته يقفز أمامها ملثمًا! ذعرت وسترت صدرها وكتفها بردائها الممزّق، استندت بيدها إلى الحائط، وقالت خائفةً:

- من أنت؟

- شخصٌ أنقذكِ من الموت!

- أين أنا؟

لم يرُد.

- أريد أبي.

- من أبوكِ؟

- اسمه (مينا)، تاجرُ عسلٍ في قوص.

أغمض عينيه للحظات. وكأنه يأسى عليها، ثم قال:

- لا تخافي، سأعيدكِ إلى بيتك. ولكن ليس الآن!

- لماذا؟

لم يرُد.

- أرجوك لا تؤذني!

- أعدكِ ألّا أوذيك، ولكن بشرط!

- ما هو؟

- تبقين هادئة حتى أعيدك.

- متى؟

- حينما أقرر ذلك.

صمتت، لا لشيء إلا لأنها لا تملك غير الانصياع. قال لها:

- عودي إلى مجلسك وسآتي لكِ بطعام.

- لا أريد طعامًا، أريد أن أغتسل.

- اذهبي، وسأعود إليكِ بعد قليل.

قفز متعلقًا بفتحة السرداب، وخرج منها، ثم نزل برأسه، وهو يقول:

- لا تتحركي! وحذارِ أن تثيري غضبي!

عادت إلى مكانها، وجلست خائفة. الضوء الذي تسلل من فتحة السرداب أتاح لها أن ترى رسوماتٍ قديمةً ملونةً على الجدران والسقف ملطخةً بالسخام. وعليها رُسمت بعض الصلبان باللون الأسود. بعد قليل رأته يدخل بسطلِ ماءٍ ساخن وقطعةٍ من الصابون وورقةِ سدرة. وضع الأشياء التي أحضرها أمامها، ثم خرج مرةً أخرى، وعاد برغيفين من الخبز الشمسي، وقطعة جُبن، وجرة ماء جديدة. اطمأنت أنه لا يريد أذاها، فنظرت نحوه ممتنة. همَّ أن ينصرف، ولكنه تذكر شيئًا فقال:

- إذا نزعتِ القماط، فانزعيه برفق، حتى لا ينكأ الجُرح، ولا تحكّيه بورقة

السدرة فينزف، ثم لفيه مرة أخرى. وإذا أردتِ معاونتي فناديني.

أطرقت خجلًا حين أدركت أنه هو الذي لفّ لها القماط حول صدرها العاري وهي فاقدة الوعي. أومأت برأسها دون أن تنظر نحوه. تركها ودلف إلى السرداب، وقبل أن ينصرف قالت له:

- كيف أناديك؟

- لا تناديني، صفّقي بيديك.

- هل يمكنك أن تترك السقف مفتوحًا؟

- لا يمكن!

- أخاف من هذا المكان المظلم، سيقتلني الخوف.

- لن يطول بقاؤك.

أشارت إلى الصلبان السوداء، وقالت:

- هل عاش هنا آباءٌ من الرهبان؟

هزّ كتفيه وقال:

- ربما!

استدار وقبل أن يصعد توقف مرة أخرى كالمتردد، خلع عن عنقه قلادة من الفضة، يتدلّى منها صليب، ثم عاد إليها، ووضعه في يدها، وقال:

- خذي هذا لعله يؤنس وحشتك.

تناولته بفرحة، ثم تابعته ببصرها ممتنة وهو يخرج من فتحة السرداب، قبل أن يغلقها وراءه.

(١٢)

انتهى الإمام من صلاة الجمعة في المسجد الكبير في قوص، فانتشر الناس في الطرقات، وتوجهوا صوب السوق الذي يتوسط المدينة ويقع على مقربة من ميدان الجامع الكبير، مستأنفين البيع الذي توقف أثناء الصلاة. فجأةً جلجلت أصوات الأجراس عند مدخل الميدان الشرقي، وصحبها قرعُ طبلة المنادي فانتبهت حواس الناس، وهرول الأطفال نحوها مُتمنّين ظهور بعض الحُواة، أو لاعبي خيال الظل الذين ينتشرون في طرقات المدينة في أيام الأعياد. توجهت الأبصار نحو الموكب الذي تحرك ببطء مع رنين الأجراس وقرع الطبول، وصوتُ المنادي يقول:

- يا أهالي قوص، أمر مولانا الأمين (شاور بن مجير)، بالجلد والتشهير لشارب الخمر الحقير (مينا) السكّير

اختار المنادي من الكلمات الركيكة ما يَضبط السجع، ويُطرِب الأُذن ويتفق مع الجُرم الذي ارتُكِب. فللتشهير فنونٌ يُتقنها ويجيدها من كثرة ممارسته للمهنة، أهمها أن يصف المتهم بصفة تلاحقه أينما ذهب، وأن يختزل تهمته في كلمة واحدة يتذكرها الناس بغير تفاصيل؛ فالعامة لا يهتمون بالتفاصيل، هم يوقنون بأن كل من ركب ذلك الحمار يستحق ما وصل إليه، إما لسوء عمله أو لسوء نيته، فالله لا يفضح عباده التائبين، والكل يسير بسَوأتِه، فلا ينكشف منها إلا من هُتِك رداءُ الستر عنه. هو أيضًا قد أَلِف عمله حتى أصبح لا يهتم بالسؤال عن صاحب الجرم، بل يكفيه فقط أن يعرف الذنب ليصيغ عبارته. يأتيه الحارس بأحدهم فيخلع عنه رداءه ويلبسه زيَّ الشهرة: الخرقةَ الملونةَ، والطرطورَ الأحمرَ وقلادةً من الأجراس يضعها حول عنقه. ثم يُجلسه مقيدًا على الحمار ووجهه نحو المؤخرة. قبل أن يرفع عقيرته بالنداء على نقرات الطبلة. (حقير ومسكّير) هكذا اختار أن

يصف الرجل الفدان في ذلك اليوم وهو يطوف به في أسواق المدينة. كلمتان خفيفتان على اللسان، ولكنهما ثقيلتان على أسماع الناس الذين خرجوا لتوهم من صلاة الجمعة، في أوائل شهر ذي الحجة، وقبل أيامٍ من يوم عرفة. تباينت مشاعر النفور من تقطيب الحواجب، وَلْيْ الشفاه، إلى السب واللعن. وطفت صيحات الاستنكار من جماعة من الشبان، انشق عنهم الميدان، فقذفه أحدهم بكتلة من أحشاء الذبائح فلطخت جسده. وصل الموكب إلى منصة الحدود، حيث نُصب عمود خشبي وقف إلى جواره الجلاد. توقف المنادي عن قرع الطبلة، وأنزل الحارسان (مينا) وسارا به نحو المنصة، التي أحاط بها عدد آخر من الحراس. تلفّت (مينا) وهو ينظر بعينٍ ذاهلةٍ إلى الوجوه من حوله. عاش عمره في تلك البلدة، ولم يرَ تلك الوجوه من قبل! أين وجوه القبط التي يألفها؟ أين جيرانه وعماله؟ أين (بطرس) والشيخ (إبراهيم)؟ وأين ابنته (وسن)؟ خارت قواه، لا من الخوف وإنما من الخزي، خزي أن يكون وحيدًا في أرضه تتخطّفه أيادي الغرباء. استسلم ليد الحارس الذي خلع عنه الخرقة التي تستر ظهره، واستقبل عمود الجَلد كمسيحٍ يستقبل الصليب، مسيحٍ بلا رسالة، كل أحلامه في الحياة كانت تنحصر في أن يحيا في دائرته الآمنة. تلا القاضي حُكم الوالي عليه، بعد أن قيد الحارس كِلتا يديه حول العمود. رأى السوط الأسود يتلوى في يد الجلاد كأفعوانٍ قبل أن ينقضّ على ظهره بلسعاتٍ متتالية كضربات البرق، صعقته إحداهن، ربما في المرة السبعين! فانقطع وتينه كمدًا، وسقط صريعًا لا يحرك ساكنًا.

* * * * *

(١٣)

ارتدت ملابسها المتسخة بصعوبة بعد أن تحممت، تمنت لو أتاها بثوب

نظيف بدلًا من ذلك الممزق، الذي لا يستر جسدها. جلست متعبة، يتقطّر الماء من شعرها. استعاد عقلها كلّ ما حدث قبل سقوطها. أصابتها اللوعة على أبيها، وتمنت أن تعرف ما يحدث في قريتها. قامت مرةً أخرى بصعوبة، وسارت في السرداب، بعد أن ألِفت عيناها المكان. سارت نحو المخرج، ثم تشبثت بصعوبة ودفعت الغطاء بيدها، ولكنه لم يتحرك. ودّت لو تنادي أو تصرخ، ولكنها تذكرت تحذيره لها، فعادت مجهدةً، وجلست على الأرض، وهي تضغط على عضدها كي تجبر آلام ضلعها. رأت الطعام، فتذكرت أنها لم تأكل منذ يوم أو أكثر، ولكنها لم تكن لديها رغبة في الأكل. فقط كانت تشعر بالعطش المستمر. أفرغت في جوفها جرعةً أخرى من ماء الركوة. ثم أمسكت بالصليب وبدأت تتمتم بالدعاء. تلت صلاة كيرياليسون كما علمتها الراهبة. تذكرت النبي (يونان) حينما ابتلعه الحوت وظلّ ينادي في الظلمات: (يا رب ارحم). لم تقلها إحدى وأربعين مرةً فحسب، بل قالتها مئات المرات حتى تنجو من الظلام كما نجا النبي (يونان) من جوف الحوت. مرت ساعات، والصمت المطبق -إلا من هديل الحمام الخافت- يُسلمها إلى الهدوء، فنامت. لا تدري هل طالت غفوتها أم لا، ولكنها انتبهت لصوت حفيف في السرداب. أرهفت سمعها، فلم تجد شيئًا. سمعت رفرفة الحمام بأعلى وكأنه قد استيقظ. استأنفت الدعاء، وأغمضت عينيها لتنام، ولكن فجأةً امتدت يدٌ قويةٌ إلى فمها وأنفها، تكتمهما بخرقةٍ مبللة. صرخت، ولكن صرختها كانت مكتومةً لم تتجاوز حلقها. تمنت أن تكون في حلم، ولكن آلام صدرها كانت حقيقيةً. فجأةً شعرت برأسها يدور، وكأنه حجر رحى يدور به ثورٌ هائج، وشعرت بالخدر يسري كأفواج النمل في جسدها، قبل أن تسقط فاقدةً الوعي.

***

لم تشعر بجسدها المغطى برداءٍ وهو يتأرجح فوق عربة يجرُّها جوادٌ،

تسير بين حقول القصب. استيقظت لتجد نفسها ملقاةً على الأرض بجوار جدار، يحيط بها الظلام والصمت من كل جانب، إلا من أصوات جنادب الليل التي كانت تنادي على بعضها البعض. أجهدت بصرها في سنا القمر الأحدب الذي أكلت أطرافه الغيوم، فلم تدرِ أين هي. كانت تصرخ لولا أن مسّت يدها جدارًا شعرت نحوه بالألفة. استندت إلى الجدار وقامت من رقدتها رغم آلام صدرها، ودارت حوله حتى وصلت إلى باب، فأدركت أنها أمام بيتها. تعلّقت بمطرقة الباب، ودفعتها بما تبقّى لديها من قوة. بعد قليل فُتِح الباب، فسقطتْ في حِضن (جِنّة) التي صرخت:

- (وَمن)! لقد عادت، (وَمن)!

نظرتْ حولها فوجدت قاعة الدار تمتلئ بوجوه أناس بائسة. كانوا ينظرون نحوها بتعجب، وأعينهم تتساءل أين كانت، ولماذا عادت بتلك الحالة الرثّة؟

بينما كانت هي تتساءل عمّا أتى بهم إلى دارهم في تلك الساعة من الليل! ظنت أنها تتوهم بفعل الخدر الذي كان لا يزال يسري في جسدها. فجأةً رأت (بطرس) ومعه الشيخ (إبراهيم) يهبطان على الدرج من الطابق العلوي، ومعهما كاهن من الكنيسة، والحزن يكسو وجهيهما. هتف (بطرس) في لهفة حين رآها:

- (وَمن)!

بينما بكى (إبراهيم النصراني)، وهو يقول في حسرة:

- المجد لك يا قدوس. ليتكِ عدتِ من قبلُ يا (ومن)!

لم تفهم ما يحدث، إلى أن قال (بطرس) في نحيب:

- مات عمي (مينا).

لم تقوَ على الصراخ أو النحيب، تشبثت بذراع (جَنة)، وصعدت الدرج بعقلٍ خاوٍ، وصعد وراءهما (بطرس) و(إبراهيم). رأته يرقد على فراشه، مهيبًا كما هو، يرتدي زيًا أبيضَ ناصعَ اللون، مخيطًا على صدره صليبٌ بارزٌ ويتوسطه زنّار وعلى رأسه قلنسوةٌ بيضاءُ مثلثةٌ، وفوق رأسه أيقونةُ للملاك ميخائيل. انعكس نور الشمعتين، اللتين أضيئتا على جانبي الفِراش، على وجهه فبدا مشرقًا. دنت منه وتطلعت إلى عينيه الساكنتين في سلام. رأت ندبةَ جرح عند عنقه، دنت منها تُقبلها، فلامست أنفها رائحة عطن سمعت أن الشهداء تفوح من جروحهم رائحة العطن نظرت نحو الشيخ (إبراهيم)، فأومأ برأسه ليؤكد لها أن ما تشممته حقيقي. ثم قال في خشوع:

- قال كلمةَ الحق، وأبَى إلا أن يموت ميتة القديسين!

انسابت على وجنتيها الدموع في صمت، أمسكت يده التي صفعتْها من قبل، فقبلتها ومسحت بها دموع خدها، ثم قالت في رجاء:

- أريد أن أبقى هنا حتى الصباح.

لم يلتفت (بطرس) إلى طلبها ولا دموعها، بل قال لها وهو ينظر إلى ثوبها الممزّق مفجوعًا:

- أين كنتِ يا (وَطن)؟!

قال الشيخ (إبراهيم) معاتبًا:

- ليس الآن يا (بطرس)!

ثم أردف:

- لا بأس يا بنيتي. ابقي إلى جواره، فروحه الطاهرة تأنس بك الآن.

سحبتها (حنة) من يدها وقالت:

- ينبغي أن تتطهري وتبدلي ثيابك أولاً. تعالَي يا بنيتي.

استسلمت لها، وتبعتها إلى حجرتها. بينما تبعها (بطرس) ببصره وقلبه يتحرق بنار الريبة.

* * * * *

(١٤)

في صباح اليوم التالي، وُضع جسد (مينا) في صندوق أبيض، ثم حُمل على أكتاف المشيعين، وساروا به نحو مقابر القبط فوق جبل (الخرانقة)، وقد سار خلفه عشرات المشيعين من القبط من (جراجوس) و(الخرانقة) و(المقارين) يودعونه بالزهور والدعوات. لم يكن (مينا) يسعى إلى الزعامة أو الشهرة في حياته، ولكن شاءت الأقدار أن ينالها في يوم مماته. عجيبٌ أمر الدنيا، حينما تأخذ، وحينما تمنح بغير ترتيب ولا تدبير. ارتدى (مينا) زيّ الشهرة في صبيحة آخر أيامه، ثم أمسى مُشيَّعًا كالقديسين. قول الحق يُحرر الإنسان، ويُحرر خيالَ الناس أيضًا، فيصنعون الأمجاد لمن ينطق به حين تخرس الألسنة، ولكنهم يصنعونها عادةً بعد أن يصمت إلى الأبد! سار الناس خلف الجثمان يتبادلون الحديث عن العطر الذي فاح من جروحه، وعن النور الذي صعد من داره بعد وفاته. منحوه لقب الشهيد (مينا)، ولولا أن الكل يعرف بأنه كان منقطعًا عن الاعتراف والتناول، لمنحوه لقب القديس.

انقضت مراسم الدفن، وعادت (وَضَن) إلى البيت مبعثرة النفس، منهكة القوى. تركت النساء اللاتي ملأن الدار للتعازي مع (حِنّة)، ودخلت إلى

حجرتها، تخزها آلام صدرها في كل بقعة من جسدها. بكت في نحيب لأول مرة منذ عادت. شعرت بالوحشة لأبيها الذي رحل بغير وداع. كيف جرؤ الموت أن يحني هامته، وأن يأخذه منها على حين غِرّة، وقد ظنّته راسخًا لا يموت! لو كان ما تعيشه الآن حلمًا، لكان أبغض الأحلام وأكثرها جنونًا. مست يدها قلادة الصليب المتدلية من عنقها، فشعرت بها كوخزةٍ تُذكرها بأن حلمها البائس، هو واقعٌ أشد بؤسًا. «اللعنة عليك أيها الملثم، ليتك أعدتني إليه قبل أن يموت، أو تركتني أنا حتى أموت!» لو كانت تتمنى شيئًا في تلك اللحظة، لكان أن تملأ أنفها وصدرها بعبق بخوره المذهل، الذي كانت تتشممه في القبو، حتى تغيب عن ذلك العالم. العجيب أنها شعرت برائحة بخور حولها، وكأنما استدعتها أنفها، فانزلق عقلها في غفوة، أراحت جسدها وقلبها.

أيقظتها (حِنّة) قبل الغروب، نزلت إلى صحن الدار فوجدت رائحة البخور لا تزال موجودةً، ووجدت طست ماءٍ في منتصف الحجرة. قالت لها (حِنّة) إن (بطرس) قد جاء بعد العصر بكاهن وعريف من الدين وقاموا برش الدار بالماء المقدس وتبخيرها بالبخور لصرف روح الميت عنها. تعجبت لهذا الكلام الذي كانت تسمعه لأول مرة، وتعجبت أكثر من استعجالهم في صرف روح أبيها التي ودّت لو بقيت لتؤنسها. صبت لها (حنة) الماء المقدس من الطست، لتغسل وجهها بناءً على وصية الكاهن، ثم أراقت ما تبقى منه على عتبة الدار.

فجأةً سمعت طرقًا عاليًا على الباب، لفّت (ومن) رأسها بطرحة سوداء، بينما فتحت (حنة) الباب، فوجدت (بطرس) وأمّه. احتضنتها أم (بطرس) حين دخلت، وبكت في حزن حقيقي، ثم جلست إلى جوارها. بينما جلس (بطرس) قبالتها، يفرك باطن قدمه اليمنى بظاهر نعله الأيسر وقد أمسك

في يده مسجلًا من البردي. قال في صوت مرتعش:

- الرب يعزيكِ يا (وَمْن).

قالت في وهن:

- ويعزيك أنت أيضًا يا (بطرس).

أخرج من جيبه صرةً كبيرةً من المال وضعها أمامها على المنضدة، وقال:

- هذا مالٌ تركه لي عمي (مينا) للإنفاق على عمال المعصرة، قبل أن يرحل. ثم أردف:

- وهذا مسجِلٌ به كل أموالكِ: ما جمعناه من التجار وما تبقى لديهم. صدقيني، لن يضيع درهم من حقكِ ما دمتُ أنا معك.

تعجبت أن يكون قد جاء لأجل الحديث معها في أمر المال، فهذا آخِر ما كان يشغل بالَها في ذلك الحين. قالت صادقة:

- أعلم أنه لن يضيع حقي وأنت معي يا (بطرس). دعِ الأموال معك، واستمِرّ في العمل كما كنت تفعل مع أبي.

ارتعش صوته، وهو يقول:

- أين كنتِ يا (وَمْن)؟

تنهّدت ثم قالت:

- لا أدري!

ابتلع ريقه وتصبب جبينه عرقًا وهو يقول في شيء من الحدة:

- كيف لا تدرين يا ابنة عمي! ومن الذي مزّق ثيابك؟

قالت في أسى وهي تتذكر أحداث اليوم الحزين:

- سقطت مغشيًا عليَّ في وسط الجلبة، بعد أن تحطم ضلعي، واستيقظتُ لأجدني في قبوٍ مع رجل ملثم، ضمّد جراحي وداواني، ثم حملني إلى هنا وألقاني أمام الدار.

اتسعت عيناه وقال:

- من هذا الرجل؟

- لا أعلم.

قال وقد تعرق جبينه متذكرًا صدرها العاري:

- هل مسّك بسوء؟

قالت صادقةً:

- كلا، كان ودودًا، ولكنه كان مريبًا.

قال مستفهمًا:

- هل كان عربيًا؟

- لم أرَ وجهه، ولكن بدا لي قبطيًا.

- كيف عرفتِ؟

- تحدث إليّ، وأعطاني هذا! وأرته قلادة الصليب حول جِيدها.

شعر بصدره يفور، قال:

- وأين هذا القبو؟

- لا أعرف. دخلته فاقدة الوعي، وخرجت منه فاقدة الوعي.

نفذ صبره، فقال في شيء من الغضب:

- مكثتِ أربعَ ليالٍ في مكان لا تعرفينه، مع رجل ملثم لا تعرفينه، مزّق ثيابك، ثم أهداكِ صليبًا، وأعادكِ إلى داركِ! أفلا أحسنتِ الكذبَ يا (وَمْن)؟

وضعت أمه يدها على فِيها، وكأن لسانها هو الذي نطقَ بكلامه! بينما نظرت (وَمْن) نحوه ذاهلةً، وقالت:

- هذا ما حدث يا (بطرس).

قام وهو ينتفض قائلًا:

- أيّ عارٍ ألحقتِهِ بنا يا ابنة عمي؟

صرخت أمه قائلةً:

- كُفَّ عن هذا يا (بطرس)!

بينما ضمتها (جِنّة) إلى صدرها وهي تقول:

- العار ما تقول يا (بطرس)!

احتقن وجهه غضبًا، وخرج رذاذه مع كلماته وهو يقول:

- ليتكِ صمتِّ ولم تنطقي! لكان الصمتُ خيرًا لكلينا.

ثم أردف في قهرٍ وحنق:

- حسنًا يا (وَمْن)، لا تحدثي أحدًا بهذا، حتى أجد ذلك الملثم.

قالت في تعجب:

- ولماذا تبحث عنه؟

قال في مرارة وهو ينصرف:

- كي أعلم إذا كانت ابنة عمي لا تزال تنزع إلى البتولية أم أنها فقدتها إلى الأبد!

* * * * *

(١٥)

جلس (بطرس) على منضدة بالمعصرة، ساندًا رأسه بكفيه كي تكف نبضات قلبه عن الطرق بداخلها، وأمامه الشيخ (إبراهيم النصراني) يبدو عليه الوجوم. كان (بطرس) قد حكى لتوه ما قالته (ومن) للشيخ (إبراهيم)، صمت (إبراهيم) طويلًا بعدما سمع الحكاية، ثم قال:

- لا نريد لتلك الحكاية أن تشيع بين الناس يا (بطرس).

ثم أردف:

- وبالمناسبة، قابلت كبير البصاصين، وسألني عن (ومن)، فأخبرته بعودتها بعد إصابتها في العراك .

تنهد (بطرس) وقال:

- لا يهمني أمر كبير البصاصين يا شيخ (إبراهيم)، بل يهمني أمر ذلك الرجل الذي باتت عنده ابنة عمي أربعَ ليالٍ.

لم يشعر (إبراهيم) بالراحة من كلام (بطرس)، فقال مهدئًا:

- لا تسئ الظن يا (بطرس).

- حكايتها لا تحتمل حسن الظن يا عماه! أما ترى همس العمال في

المعصرة، حينما رأوها عائدةً ممزّقةَ الثياب.

ثم أردف في قهر:

- يُشيعون أن ابنة (مينا) اغتصبها رجالٌ من القفط انتقامًا لولدهم.

ارتج على (إبراهيم)، فقال في لوم كبير:

- مهلًا يا (بطرس)! هذا قول عظيم! لعلها صادقة، وأراد الرجل أن ينقذها.

نظر إليه في حدة، وقال:

- لو أراد بها خيرًا لأعادها في أول يوم.

ثم أردف في غضب:

-لماذا لم تصرخ؟ لماذا لم ترضَ بالموت بدلًا من أن تعود بعارها؟

ثم أردف وقد اختنق صوته بالدموع:

- ذبحتني بسكينٍ مُثلم، وهي تكشف جيدها وتقول: (أظنه قبطيًا، فقد أعطاني صليبًا)!

أدرك (إبراهيم) أن جنون الشك سيصرعه، فقال:

- اهدأ يا (بطرس)، فغدًا تتكشف الأمور.

قطع كلامهما دخولُ عامل من المعصرة، وهو يقول لبطرس:

- التاجر السكندري (يوسف)، قد أتى كي يتسلم العسل.

مسح (بطرس) وجهه وضرب المكتب بكفه، وكأنه قد تذكر أنه قد تأخر في إعداد طلب الرجل، فقال للعامل:

- دعه يدخل.

قال العامل محذرًا:

- حسنًا، ولكنه غاضب.

همَّ الشيخ (إبراهيم) أن ينصرف، ولكن العامل عاد مسرعًا ومعه (يوسف). قال (يوسف) في حدةٍ دون أن يُلقي التحية:

- ما علمتُ أن تجار قوص يُخلفون موعدهم!

قال (بطرس) معتذرًا:

- معذرةً يا شيخ التجار ما تأخرنا كسلًا ولا سوء أدب، وإنما مات صاحب المعصرة.

اختلج وجه (يوسف) للمفاجأة. شعر بالحزن على (مينا) الذي لم يرَه من قبل، ورغم ذلك تقاطعت دروبهما. عجيبٌ أمر الأقدار حينما تشبك مصائر الناس وتغزلها على نَوْلِ الحياة! قال في شفقة:

- الرب يُعزيكم.

ثم أردف برفق:

- رُدَّ عليَّ أموالي، وسأشتريها من تاجر آخَر.

جاءه صوت (إبراهيم) حانيًا، وهو يقول:

- التمس لهم العذر يا بني، فالمصاب كبير.

التفت إلى صاحب الصوت الحاني الذي لم ينتبه لوجوده من قبل، فالتقت الأعين على ألفة لم يدرِ ما سببها. ابتلع ريقه، وقد انتابه شعورٌ بالاضطراب، في غير موعده ولا مكانه. فقال وهو يحاول أن يجذب بصره بعيدًا عن

الرجل:

- متى يمكنني أن أحصل على العسل؟

قال (بطرس) في تأكيد:

- يومان على أكثر تقدير

هز رأسه موافقًا وكاد أن ينصرف، ولكن جذبه صوت الشيخ (إبراهيم) مرةً أخرى وقيده في مكانه، وهو يقول:

- اسمي (إبراهيم النصراني)، ولو يسمح شيخ التجار أن يقبل دعوتي على البوظة في حانوتي بسوق الشماعين، اعتذارًا له عن ذلك التأخير.

تمنى أن يصمت الرجل! فكلامه يثير اضطرابه أكثر ويشعره بتلك الخفقة التي يهوي فيها القلب إلى أعماقٍ في صدره لم يسبر أغوارها من قبل. ومع ذلك قال له:

- تسعدني دعوتك أيها السيد الكريم.

***

كان النهار يوشك أن ينقضي، حينما انتهى العمال من تحميل جرار العسل الجلاب فوق العربة التي أحضرها (يوسف). تراصت الجرار في أقفاص لها حاشيةٌ من القش، ثم وُضعت على سطح العربة. نقد (يوسف) باقي المال إلى (بطرس) الذي اعتذر له ثانيةً على التأخير ثم ركب العربة وابتعد بها عن المكان.

ما إن اقتربت العربة من ميدان الكنيسة حتى انحرفت عن الطريق، وهبطت إلى طريق ضيق منحدِر يصل إلى منزل مهجور يقع على جانب الطريق. توقفت العربة مستترةً برداء الليل الذي انسدل على القرية، أمام

باب البيت. أصدر (يوسف) صفيرًا خافتًا، فخرج إليه أربعة رجال من بين الأحراش تبدو وجوههم كقطع الليل المظلم. هبط (يوسف) في سرعة واتجه نحو الباب، وتبعه ثلاثةٌ منهم بينما وقف الرابع فوق العربة يرقب الطريق. فتح (يوسف) الباب ثم دلف إلى الداخل. أضاء سراجًا في صحن الدار ثم توجه نحو السرداب. أزاح غطاءه، ثم نادى على الرجال قائلًا:

- هيا أسرعوا، يجب أن ننتهي من ذلك قبل أن تشرق الشمس.

* * * * *

(١٦)

في الصباح دخل (بطرس) عريش مكتبه واجمًا. جلس إلى المكتب، وفتح السجل، ثم دوّن فيه ما جمعه من مال في اليوم السابق، بالطريقة نفسها التي ابتكرها قديمًا حتى يستطيع عمه المُتنيح (مينا) أن يقرأها بسهولة، لأنه كان لا يقرأ ولا يكتب الحروف والأرقام. فكان يرمز لكل مائة درهم بشَرطة مائلة، وإذا بلغ مقدار المال خمسمائة درهم، رسم له أربعًا مائلاتٍ وواحدةً مستعرضة، وكأنها تمام الخمسمائة. وضع أمام اسم (يوسف) عشرَ شرطاتٍ، وكأن عمه لا يزال حيًا وسيقرأ ما كتبه! ثم أغلق السجل تذكر عمه (مينا)، فشعر بخلجة في صدره الفراغ الذي تركه عمه في حياته، يسمع صداه وكأنه صدى جُبٍّ سحيق، أو بهوٍ شاهق يتردد فيه اسمه دون انقطاع اشتاق أن يرى (وضن) لم يرَها منذ ثار عليها شعر بعد أن هدأت ثورته، أنه تحامل في لومه لها، وأنه باعد بينهما أكثر كان من الممكن أن تكون وفاة عمه فرصةً لأن يتقاربا، ولكن حماقته جعلتها تشعر بالنفور نحوه أكثر خطر له أن يزورها بعد أن ينهي عمله، وأن يزيل من قلبها أي حقد عليه. مر على السوق في نهاية اليوم، فسمع بائعًا يتغنّى:

- يقولُ والناطِفُ في كفِّه

من يشتري الحُلو من الحُلوِ

لم يعرف أن البائع يتغنى بشعر (أبي نواس)، ولكنه يعرف حلوى الناطِف، المصنوعة من اللوز والجوز والفستق، والتي ترِد إلى أسواق قوص من القاهرة. هي حلوى الأغنياء كما يقولون في قوص. اشترى قرطاسًا، ثم عرج إلى بيت عمه. طرق الباب، ففتحت له (جِنّة). دخل إلى الدار، ثم جلس على الأريكة، وسألها:

- أين (وَشَن) يا خالة؟

تعجبت من زيارته، وتعجبت من ندائه لها بكلمة خالة، فهو دائمًا ما يناديها باسم (جِنّة) مجردًا. تركت الباب مفتوحًا، وقالت:

- خرجت إلى الكنيسة، ولم تعد بعد.

وضع القرطاس على المنضدة، ثم قال وقد تغير صوته:

- و كيف تخرج بغير استئذان؟

قالت (جِنّة):

- وماذا في ذلك؟

- ألم يمنعها عمي (مينا) من الخروج؟

لم تكن تعلم أن (مينا) قد أخبره بالأمر فقالت تدافع عنها:

- دع الفتاة في أحزانها يا (بطرس)، يكفيها ما مرّ بها!

شعر بوخز في فروة رأسه، فقال في حدة:

- ما الذي مرّ بها، هل أخبرتك بشيء؟!

نظرت إليه متعجبةً، ثم قالت:

- ماذا حلّ بك يا (بطرس)؟ ألن تكفّ عن سوء الظن؟

انفلت غضبه فقام واقفًا وهو يهدر بصوت عالٍ:

- احتشمي يا امرأة! وإياكِ أن تتحدثي معي بتلك الطريقة.

ارتجت خائفةً؛ ذكّرتها غضبته بغضبة (مينا) حين كان يثور، فارتبكت وقالت في لوم خائف:

- هل هُنا عليك جميعًا يا (بطرس)؟

أنقذها دخول (وَمن)، في اللحظة ذاتها. أغلقت (وَمن) الباب الذي تُرِك مفتوحًا، وقالت مفزوعةً من ارتفاع الصوت:

- ماذا حدث؟

قال (بطرس) غاضبًا:

- أين كنتِ يا ابنة عمي؟

قالت متعجبةً من غضبه:

- في الكنيسة يا (بطرس)؟

قال بالصوت المرتفع ذاته:

- تمكثين في الكنيسة، من الصباح حتى الآن؟

ودّت لو تقول له: (وما شأنك؟)، ولكن غضبه جعلها تقول:

- وما الذي يغضبك في ذلك يا (بطرس)؟

تنفس وحبس الهواء في صدره ليكتم غضبه، ثم زفر وهو يقول:

- اسمعي يا (ومن)، قد خطبتك من أبيك، ووافق على زواجنا، ولولا أن أدركه الموت لكان العقد واقفا.

زفرت هي الأخرى وقالت:

- أعلم يا (بطرس)، وقد أخبرته أني لا أرغب في الزواج.

اختلج وجهه، وتصبب عرقًا، وهو يقول:

- ولكني أرغب في الزواج بك يا (وَمن)، ولن يمنع أقاويلَ الناس عن غيابك إلا زواجي بك.

لم تحتمل لمزه، فقالت:

- كفاك وهقا يا (بطرس)، لن أتزوج بك ولا بغيرك.

قال مصدومًا:

- لماذا؟

أشاحت بوجهها:

- هذا شأني.

قال وكأنه يبكي:

- تريدين أن تحيي في البتولية! تريدين أن يُصلوا عليك صلاة الأموات ثم تنقطعين عن العالم، حتى عن هؤلاء الذين يحبونك، ويغفرون لك زلّاتِك وآثامَك.

هزت رأسها، وقالت غير مصدقة:

- أيّ آثام يا (بطرس)! لقد جُننت!

رفع حاجبيه، وحدّق فيها مصدومًا:

- جُننت! جننت لأني أحبك؟

- بل جننت لأنك تصدّق أوهامك!

مسح أنفه التي سال ماؤه، وقال:

- حسنًا يا ابنة عمي، سأتزوجك برضاك أو رغمًا عنك!

ثم أردف مهددًا:

- ويوم تخرجين من هذا الباب سنصلي عليك جميعًا صلاة الميت.

***

خرج بروح مبللة بدموع القهر يتقطر خلفه خيط من الخزي. سار على غير هدى في الطرقات، حتى وجد نفسه في ميدان الكنيسة، رفع رأسه -التي نكسها طيلة الطريق- أمام برجها العالي الذي جثم بظِلّه الممتد على ظِلّه الضئيل المنحسر وكأنه الفارق بينه وبين (وَمِن). صعد الدرج، ودلف إلى البهو. أرشده أحد الشمامسة إلى حجرة الكاهن، وما إن رأى الكاهن حتى قال له:

- أريد أن أعترف لك أيها الأب.

قال له الكاهن:

- أفلا أتيت بعد رفع بخور العشية؟

نظر إليه مترجيًا، وقال:

- الأمر لا يحتمل التأجيل سيدي الكاهن.

أشفق عليه الكاهن حين رأى عيونه الدامعة، فقام إليه،رغم أنه كان في وقت راحته. وبعد لحظاتٍ جلس (بطرس) بين يدي الكاهن الذي قال له:

- هيا يا بني، تكلم، وتحلّل من خطيئتك.

بكى بعيون صادقة، وتلجلجت الكلمات في صدره أكثر من مرة، ثم قال بشفاه مُكرهة على الكذب:

- عشقتُ خاطئةً يا أبانا!

* * * * *

(١٧)

شعر (يوسف) بالراحة بعد انقضاء مهمته. استيقظ في وقت متأخر من اليوم التالي. خرج إلى السوق وقرر أن يقضي النهار متجولًا في الطرقات، ومتأملًا في وجوه الناس في المدينة. خطر له أن يمرّ على سوق الشماعين وأن يلبي دعوة الشيخ (إبراهيم) لشرب البوظة. فأهالي قوص يشتهرون بهذا المشروب المصنوع من دقيق مخمر وماء محلّى بالعسل. يضعونها في أوانٍ نحاسية، ويطوفون بها في الأسواق، كي تروي ظمأ العطشان في الصيف، وتعطي الدفء في برد الشتاء. والحقيقة أنه لم يراوده ذلك الخاطر شوقًا إلى البوظة، وإنما رغبةً في رؤية الرجل الذي علقت كلماته القليلة في نفسه، وأفسحت لها مكانًا في عقله المنشغل، رغم قصر اللقاء بينهما. سار في السوق، يبحث بعينيه عن حانوت الشيخ. وجده يجلس على دكة أمام الحانوت، يفتح سجلًا ويقرأ فيه باهتمام، وكأنه لا يتوقع أن يأتيه زبائن

لطلب الشموع بعدما انتهى موسم الأعياد. وقف أمامه مبتسمًا، وقال:

- أنت مدينٌ لي بقدح من البوظة يا شيخ (إبراهيم).

أغلق (إبراهيم) السجل ثم وضعه على طاولة أمامه، وقال هاشًا وهو يُفسح له مكانًا للجلوس على الدكة:

- مرحبًا يا سيد التجار، ظننتك لا تزال غاضبًا منا ولا تريد أن تأتي.

قال (يوسف) وهو يجلس:

- ما كان لي أن أغضب، فالمصاب كان كبيرًا، كما قلتَ ياشيخ (إبراهيم).

نادى (إبراهيم) على صبي يطوف بين الحوانيت ويعلّق على صدره إبريقًا نحاسيًا به البوظة، فصبّ لهما قدحين، وضعهما أمامهما على الطاولة، ثم وقف غير بعيد يترقب أن ينتهيا منهما.

قال (إبراهيم) متأثرًا:

- لو عرفت (مينا)، لأدركت كم كان فقده موجعًا.

قال (يوسف) بفضول:

- صفه لي، كيف كان؟

قال وكأنه ينعي روح صديقه:

- كان رجلًا يعتقد ما يقول، ويقول ما يعتقد، فكأنما ملك زمام أمره.

أبهرته كلمات الشيخ (إبراهيم)، فأعادها ببطء، ثم أردف حالمًا:

- يا الله! قد يفنى عمر المرء ولا يدرك شطرًا واحدًا من هذه العبارة.

قال (إبراهيم):

- صدقت يا بني، ولهذا ما تشاحنا في شيء قط، حتى وإن اختلفنا في كل شيء.

ثم أردف:

- عفوًا لو كنت أناديك بكلمة (بني)، فأنا لم أتزوج، ولو فعلت وأنجبت، لكان ولدي في مثل عمرك الآن.

قال (يوسف) ممتنًا:

- هو فضلٌ وكرمٌ منك يا شيخ (إبراهيم)، وصدقني، أنا أشعر نحوك بمحبة الولد لأبيه.

ثم نظر إلى السجل الذي كان يقرأ فيه (إبراهيم)، وقال:

- ماذا تقرأ؟

ثم مد بصره وقرأ بصوتٍ عالٍ:

- مخطوطة تاريخ البطاركة، «خطها البائس الخاطئ الغارق في بحار آثامه، النادم الفني بخطايا أيامه، (ساويرس بن المقفع) أسقف الأشمونين».

ثم هز رأسه، وقال:

- مخطوطة جميلة.

سأله (إبراهيم):

- هل قرأتها؟

قال (يوسف):

- نعم قرأت بعضها، ولكني تعجبت من شيء واحد، لماذا كتبها الأسقف (ماويرس) باللغة العربية ولم يكتبها بلسان القبط؟

قال (إبراهيم):

- كتب في مقدمة مخطوطته، أن قلم العرب كان هو السائد في أهل زمانه، وأن قلم القبط كان قد انعدم حينها.

رشف (يوسف) من قدح البوظة رشفةً، ثم قال:

- أليس عجيبًا أن تُبدل أمةٌ لسانها ثم تكتب تاريخها بقلمٍ غير قلمها؟

- هذا حال الدنيا يا بني، تركنا لغةَ البرابي والمعابد، وكتبنا بأحرف الإغريق والقبط، ثم تركنا أحرف الإغريق والقبط وكتبنا بأحرف العرب.

ثم أردف في هدوء:

- يتبدل اللسان ويبقى الإنسان هو الإنسان، منتميًا إلى خالقه وأبيه الذي في السماء.

ردد (يوسف) عبارته قائلًا:

- منتميًا إلى خالقه!

قال (إبراهيم):

- نعم، فما صلاتنا، ولا دعاؤنا، ولا شموعنا التي نضيئها في كل صلاة إلا لنقول له: نحن منك وإليك.

رشف رشفةً أخرى وقد استهواه الحديث، تذكر كتابًا -كان يقرأ فيه قبل أن يأتي إلى قوص- تأثر به كثيرًا، وتعجب من أن يكون إيمان (إبراهيم) قريبًا مما يؤمن به. قال:

- وكأننا نولد، ونبقى في انتظار الموت!

- نعم هو كذلك، أتعلم لماذا نُعمّد في الماء المقدس؟حتى نبدو كأننا متنا، ثم قمنا من جديد، قمنا على الفطرة الخالصة.

مكث (يوسف) طويلًا وكأنما يستجمع شتات أفكاره، ثم رفع رأسه وقال:

- أسعدني كلامك يا شيخ (إبراهيم).

ثم شرب آخر رشفة من القدح، ووقف قائلًا:

- أشكرك على البوظة.

صافحه (إبراهيم) في حنان، ثم قال:

- أتمنى أن نلتقي المرة القادمة في بيتي على الطعام.

- يسعدني ذلك.

وقبل أن ينصرف، إذا بـ (وشن) تهرول نحوهما، وهي تقول مفزوعةً:

- أدركني يا شيخ (إبراهيم)، فقد جُنّ جنون (بطرس).

* * * * *

(١٨)

خرج (بطرس) من الكنيسة، وقد حقق ما كان يصبو إليه. حذره الكاهن في البداية من أن ينحرف عن اعترافه بالخطيئة، بذكر خطايا الآخرين. ولكنه سرعان ما أنصت إليه باهتمام حينما علم أن الفتاة التي يتحدث عنها (بطرس) تتردد على الكنيسة، وتشارك في خدمة الكنيسة مع النساء، وترغب في البتولية. ربما شعر (بطرس) بالذنب قليلًا وهو يثير شكوك

الكاهن حول بتولية ابنة عمه، ولكن المهم أنه نجح في ذلك.

عبرَ الميدان المواجه للكنيسة، فذكّره الميدان باليوم المشهود، تتابعت المشاهد أمام عينيه حيةً نابضة؛ زحام الناس، صراخ الأهالي، وصهيل الخيل، ثم لحظة فراقه عن (وشن) وسط طوفان البشر الهائج. رفع بصره إلى السماء لائمًا، فلماذا يحصد البلايا ويُبتلى بالنفوس، وهو لم يزرع إثمًا من البداية، ولم يجذب السماء بالشرور؟ رأى حمامةً تطوح بجناحيها في الهواء مضطربةً وكأنها تبحث لها عن مهبط. تابعها ببصره حتى حطت فوق برج الكنيسة، فأثار ظهورها رهبته. يمتلئ خياله منذ الطفولة بحكايات عن ملائكة تأتي في صور الحمائم، ثم تتبدل هيئتها وتحمل معها الخير أو العقاب، وخشي أن يكون ظهورها رسالةً عقاب له من السماء. ولكن الحمامة لم تلبث أن غادرت البرج وطارت لمسافة قريبة ثم حطت فوق سطح بيت صغير من الطوب اللبن بالقرب من الميدان، يقبع منفردًا في مهلٍ أسفل منحدر الطريق، وقد تآكلت حوائطه، وأحاط به الردم من كل جانب. سار نحو البيت وكأنه يراه لأول مرة. دار حوله دورةً كاملة، فتأكد أنه مهجور، حتى بابه القديم، قد وُضعت أمامه خشبةً مائلةً بالعرض، وكأن صاحبه قد أوصده، ولن يعود ما أثار عجبه حقًا هو أن الحمام يحط من أجل وليف، أو من أجل طعام، فما الذي يجعل تلك الحمامة تحط على بيتٍ مهجور؟

ترك المكان وصعد إلى الطريق، قابله قيم من الكنيسة، عائدًا في الطريق راكبًا على حماره، وقد وضع خُرجًا به شونة من البصل بين فخذيه.
استوقفه وسأله:

- لمن هذا البيت؟

قال:

- كان ينزل فيه عائلةً من أعراب «البجا» ليبيعوا الإبل كل عام. ولكنهم

انقطعوا منذ أعوام بعدما انتقل سوق الإبل إلى (عيذاب)، فأصبح البيت مهجورًا.

هزّ رأسه متفهمًا، ثم شكره وانصرف. وصل إلى المعصرة، فوجد العمال يغسلون الأواني والمعاصر بعدما أوشك يوم العمل على الانتهاء. دخل المكتب فوجد الشيخ (إبراهيم) جالسًا، منتفخ الوجه وقد بدا أنه قد انتظره طويلًا. قال له (إبراهيم) معاتبًا، دون أن ينتظر جلوسه:

- ما الذي فعلته يا (بطرس)؟

قال بغير اكتراث:

- هي ابنة عمي يا شيخ (إبراهيم)، وسأصلح ما اعوجّ من أمرها.

- تتزوجها كرهًا؟

- قد خطبتها من أبيها قبل أن يموت!

- ترك الأمر لها، ولم يُجبرها!

قال غاضبًا:

- ما كان باختيارها من قبل، لم يعد كذلك الآن، بعد كل ما قيل عنها.

ردّ على غضبه بغضب قائلًا:

- احفظ لسانك يا (بطرس)! ولا تطعن به شرف عمك وابنة عمك.

قال مدافعًا:

- وهل لو سكتُّ أنا، سيصمت الناس؟!

ثم أردف:

- اسمع يا شيخ (إبراهيم)، سأرسل غدًا إلى خالها (بشارة) في قرية الشيخ عبادة، وسأخطبها منه، حتى لا يقول قائلٌ إني قد أخذتها بغير إذن أهلها.

صمت (إبراهيم) قليلًا، ثم قال في نبرة أهدأ:

- بل اسمع أنت يا (بطرس)، قد عدتُ لتوي من بيت (ومن)، والفتاة ستدخل الدير شئتَ أم أبيت، وقد أخبرتني أن أقول لك إنها ستترك لك أموالها، تتصرف فيها كيف تشاء، ولتختر لنفسك زوجًا غيرها. فما رأيك؟

نظر إليه نظرةً طويلةً، ثم قال:

- سل الكاهن إن كان سيسمح لفتاةٍ كذبت عليه في اعترافها، وأخفت عنه حقيقة عذريتها، بالالتحاق بالدير أم لا؟

امتعض (إبراهيم) من كلامه، ثم قام آسفًا وهو يقول:

- أسفي عليك يا (مينا)! ليتك حيٌ لترى من استأمنته على أموالك وابنتك!

ثم تركه، وانصرف.

بعد أيام، جاء (بشارة) خالُ (ومن)، من قرية الشيخ عبادة، منفعلًا بعد أن أرسل إليه (بطرس) من يخبره بأن أمرًا جللًا قد وقع لابنة أخته. دخل الرجل إلى المعصرة محملًا بغبار الطريق، سأل عن (بطرس) فأرشدوه إلى العريش. صافحه (بطرس) بحرارة، ثم أجلسه، هو يقول:

- حمدًا للرب على السلامة.

جلس (بشارة) ثم قال ملهوفًا:

- خيرًا يا (بطرس)، هل (ومن) بخير؟

قال (بطرس):

- الأمور ليست على ما يرام يا عماه.

ثم قال وهو ينكّس عينه:

- الناس في قوص يلمزون ابنة أختك في شرفها.

انتفض الرجل وثار قلقًا، ثم قال:

- ماذا تقول يا (بطرس)؟!

أجلسه (بطرس) وهو يُهدئ من روعه. ثم حكى له ما وقع لـ (ومن). وجم الرجل وشعر بالأسف على ابنة أخته التي انقطعت الصلة بينه وبينها منذ سنين طويلة، بسبب (مينا) الذي كان يُبغضه، لأنه بدّل دينه ودخل في دين الإسلام. يتذكر آخر مرة رأى فيها أخته قبل موتها، وكانت (ومن) حينها لا تزال في السادسة من عمرها. أخبرته أخته حينها بأن (مينا) لا يريد لابنته أن تعرف أن لها خالًا باع نفسه للعرب المسلمين. حينها قال لها:

- أمثال زوجك يرون أن كل ما في الحياة بيعٌ وشراء.

تذكر انك حملت رواية عهد دميانة حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

وبعد أن رحل شمالًا وسكن في قرية الشيخ عبادة انقطعت الصلة بينهما تمامًا، وإن لم يكفّ عن تقصي أخبارها من وقت لآخر كلما نزل إلى قوص. حين جاءته رسالة (بطرس) بشأن (ومن)، ترك شؤونه وأسرع إلى قوص، فلا زالت محبة ابنة أخته في قلبه كما هي، حتى بعد مرور كل هذه

قال (بطرس):

- أعلم ما كان بينك وبين عمي (مينا)، وقد دعوتك -فقط- حتى لا يقول أحدهم إني تزوجتها بغير إذن خالها.

قال (بشارة) في اقتضاب:

- كلا! ما دمت وليّها فسأحضر زفافها. أخبر (ومن بقدومي، أريد أن ألقاها.

ثم أردف:

- وسأصوم ثلاثة أيام كفارة، فقد كنت أقسمت ألا أدخل دار (مينا) مرة أخرى.

* * * * *

(١٩)

كان (يوسف) يجلس مع الشيخ (إبراهيم) على مائدة الطعام في بيته، بعد أن لبى دعوته إلى الغداء. صنع الشيخ (إبراهيم) طبقًا من (البيسار) الأخضر المصنوع من الفول المهروس والمطهي بالسمن والبصل، ومعه طبق من العصيدة، وأرغفة الخبز الشمسي.

قال (إبراهيم) مبتسمًا:

- وددت لو أطبخ لك سمكًا، ولكني أعلم أن أهل الإسكندرية لا تعجبهم أسماك النهر.

ضحك وقال:

- تعجبني البيسار والعصيدة أكثر من السمك يا شيخ (إبراهيم).

سأله (يوسف) عن ابنة صديقه، التي هرول من أجلها في آخر لقاء، فقال

في أسف:

- مسكينة! تتوالى عليها المصائب؛ رحل أبوها، ويقهرهاابن عمها لأجل الزواج بها، والأسوأ أنه يُسيء إلى شرفها.

وضع (يوسف) لقمة الخبز من يده، وقال في حزن:

- ولماذا يفعل هذا وهو ابن عمها؟

- النقص يا (يوسف). يرى الناقص اكتماله في قهر من عطف عليه.

ثم أردف:

- وللأسف، ساعده في ذلك ما فعله أبناء الشرّ بالفتاة.

ابتلع ريقه وقال:

- ماذا فعلوا بها؟

- اختطفوها، يوم الفتنة، واعتدوا عليها.

قال في غير وعي:

- كلا!

نظر إليه (إبراهيم) متعجبًا، فقال وقد استعاد زمام أمره:

- أقصد: لا يمكن أن يصل الشر بالناس إلى هذا القدر.

قال (إبراهيم) مؤكدًا كلامه:

- الفتاة تؤكد أن من اختطفها قد أنقذها وأعادها، ولكنها لا تعرف من فعل ذلك ولا أين احتجزها.

شعر بحرارة في جسده فتعرقت جبهته وإبطاه. لم يستطع أن يكمل

الطعام، وكل لقمة يبتلعها تعقبها غصةٌ في حلقه. حسم أمره بعد قليل، وقال:

- اسمع يا شيخ (إبراهيم)، أريد أن أخبرك شيئًا.

- قل يا (يوسف).

- ولكن تقسم لي أولًا أن تحفظه سرًا، ولا تخبر به أحدًا.

- كلمتي قسمٌ يا بني، ومع ذلك أقسم لك بالعذراء البتول ألا أخبر أحدًا.

- أنا من أنقذ الفتاة من الموت، وأعادها إلى الدار بعد أن برِؤَت.

- أنت؟!

- نعم أنا! وأقسم أن الفتاة لا تزال بشرفها ولم يمسسها سوء.

- ولماذا لم تُخبرنا بذلك؟

- أعفِني من الإجابة.

- وأين خبأتها كل هذا الوقت، حتى عجز العسس عن الوصول إليها؟

- أرجوك يا شيخ (إبراهيم)، لا تلح عليّ في الأسئلة. فما أخبرتك إلا بعد أن رأيت الفتاة يُفترى عليها كذبًا.

طال الصمت بينهما، ثم قال (إبراهيم):

- اسمع يا بني، سيظل الأمر سرًا بيني وبينك، ولكن هل تريد أن تُصلح ما حدث؟

قال في حماس:

- نعم، قل لي كيف؟

- تخطب الفتاة.

قال مذهولًا:

- أخطبها؟ ألم يخطبها ابن عمها؟

- نعم، خطبها قهرًا، ولكن الأمر بيد الفتاة، ولها أن تختار من تريده.

قال غير مصدق:

- لا أستطيع الزواج، أتيت إلى قوص لسبب، وسأرحل عما قريب.

- الفتاة أيضًا لا تريد الزواج، اخطبها وارحل بها.

- أرحل بها؟!

- نعم. خذها إلى دير لا يصل إليه (بطرس).

- أي دير؟

قال وقد لمعت عيناه، وكأنه يُعيد أمنيةً وأدتها الأيام:

- دير أبي حنّس!

شعر بالقلق، وتوجس من صدام في غير وقته، فقال:

- حياتي بها من المصاعب ما لا يحتمل الرحيل بفتاة يطاردها ابن عمها.

- اسمع يا (يوسف)، لقد أرسلك الرب لتنقذ تلك الفتاة مرةً، فلا تتردد في أن تنقذها مرةً أخرى.

- وهل سترحل الفتاة هكذا بغير وليمة عرس، ولا قداس، ولا صلاة إكليل؟

- نقول لخالها إن الوليمة يُرجئها الحداد على أبيها! وصلاة الإكليل ستقام

في كنيستك. صدقني لن تخسر شيئًا، ولكن الفتاة ستكسب الكثير.

عادا إلى الصمت، حاول (يوسف) أن يلقي بسهمه الأخيرلعله يوهن من عزم الرجل، فقال:

- ومن أدراني أن الفتاة ستوافق؟

قال له في ثقة:

- دع ذلك الأمر لي.

*****

(٢٠)

ما إن رأى (بشارة) ابنةَ أخته (ومن) أمام الباب، ترتدي زيّ الحداد الأسود، حتى احتضنها باكيًا. تذكرته (جِنّة)، وبكت أيضًا حين رأته، وقد ذكرتها ملامح وجهه بملامح أخته. أصر (بطرس) على الدخول، رغم أن الدعوة لم تشمله. خشي أن تستميل الفتاة خالَها إلى جانبها فتتعقد الأمور. وتأكد لديه أنه كان محقًّا حينما شاهد حرارة اللقاء بين الرجل و(ومن)، التي كانت تحادثه بود كبير، غير ملتفتة إلى تاريخ الرجل مع أبيها. همّ أن يقول لها إنه قد حادث خالها في أمر الخطبة، ولكن طَرق الباب بطَرق قوي. فتحت (جِنّة) الباب، فإذا بالشيخ (إبراهيم النصراني) ومعه (يوسف)، وخلفهما صبيّ يحمل قفصًا من الرمان. وضع الصبي القفص ثم انصرف، بينما أدخلتهما (جنة) إلى مضيفة الدار، وذهبت لتخبر خال (ومن)، و(بطرس) بمقدمهما. بعد قليل كان الرجال يجلسون في المضيفة. مرت لحظات التعارف الأولى، بين (بشارة) والضيفين، وعينا (بطرس) لا تثبتان في مكانهما، يُنقل بصره بين (إبراهيم) الذي كان يتحدث في ثقة، و(يوسف) الذي يجلس صامتًا. وعقله يكاد يُجن لمعرفة ما جمعهما في تلك الساعة

في دار (ومن). فجأةً ثبت بصره على (إبراهيم) واتسعت حدقتا عينيه حينما قال:

- قد جئنا لنخطب (ومن) منك يا سيد (بشارة).

كرر (بطرس) كلامه مذهولاً:

- جئت لتخطب (ومن)؟!

قال (إبراهيم):

- نعم يا (بطرس)!

قال (بطرس) في حدة:

- ومن ذلك الخاطب يا شيخ (إبراهيم)؟

صمت (إبراهيم) لحظات، ثم نظر نحو (يوسف) وقال:

- التاجر (يوسف)، يا (بطرس).

فغر (بطرس) فاه وتيبس وجهه للحظات، قبل أن يفور الدم فيه مرةً أخرى، ويقول في غضب هادر:

- وأين رآها حتى يخطبها؟ إنما هو مكر دبرته أنت أيهاالشيخ اللئيم حتى تؤخر زواجها مني.

قال الشيخ (إبراهيم) في غضب كبير:

- مهلاً أيها الفتى والزم مقامك! وحين يتحدث الرجال فلتنصت أنت.

احتقن وجه (بطرس)، وكاد أن يرده، ولكن (بشارة) تدخل قائلاً حتى يُهدئ من ثورة الحديث:

- عفوًا يا شيخ (إبراهيم)، يبدو أن لك مكانةً عند آل البيت أجهلها، ولكن قل لي من هذا السيد الكريم، وأين رأى الفتاة حتى يخطبها؟

ضغط (إبراهيم) على حروفه، وهو يقول:

- رآها في حانوتي، حين جاءت تستنجد بي من ابن عمها، الذي طعن في شرفها أمام الناس، ثم اتهمها بالخطيئة أمام الكاهن!

امتقع وجه (بطرس)، حين تجمعت النظرات على وجهه، وقال مدافعًا:

- كذب، لم أفعل!

ثم أردف مستعطفًا خالها:

- كيف أفعل ذلك ثم أطلب خطبتها لنفسي؟ اسمع يا خال!لقد خطبتها من أبيها ووافق، ثم خطبتها منك ووافقت، فلا تنصت إلى ذلك الواشي.

لملم (إبراهيم) عباءته في حجره، وكأنما قد أعدّ العدة لهذا الكلام، وقال:

- حسنًا، يخطب الفتاة الاثنان، والثلاثة، والأمر في النهاية متروكٌ لصاحبة الشأن.

قال (بطرس) غاضبًا:

- ألم أقل إنه مكرٌ مكرتموه؟

ثم نظر إلى خال (ومن) قائلًا:

- صدقني يا عماه، إنما هي حيلةٌ من ذلك الرجل الذي ظننته يومًا والدي، وما أتى اليومَ إلا ليمنع زواجها مني.

رفع (إبراهيم) حاجبيه متحديًا، ثم قال:

- حسنًا، فلتسأل الفتاةَ عن رأيها.

بُهت لون (بطرس)، وتعلقت عيناه بخال (ومن) الذي أحس بأن هناك أمرًا يدور ولا يفهمه، ولكنه تأكد في قرارة نفسه -على أية حال- بأن انطباعه الأول عن (بطرس) لم يكن صادقًا. صمت قليلًا ثم قال:

- لو أذِن الرجال سوف أستشير الفتاة، ونسألها رأيها.

ثم نادى على (حِنة) قائلًا:

- يا (حنة)، أحضري ابنتنا (ومن).

بعد قليل أتت (ومن)، وقفت على مقربة من المجلس، وهي تُطرق ببصرها نحو الأرض. شعر (يوسف) بالاضطراب، فأطرق ببصره هو الآخر ولم يشأ أن ينظر إليها، بينما قرع صدر (بطرس) بدقٍّ كالطبول، وخرجت أنفاسه بزفير كالنفير. قال خالُها:

- اسمعي يا (ومن)، قد خطبك (بطرس) مني أول أمس، وأتى السيد (يوسف) لخطبتك اليوم، فما قولكِ؟

تذكر انك حملت رواية عهد دميانة حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

رفعت بصرها نحو الجالسين، عبرت (بطرس) بعينيها سريعًا، ثم ألقت ببصرها نحو (يوسف) الذي وافق أن يساعدها، وكأنها تمنحه نظرة شكر ثم قالت في هدوء:

- وأنا قبِلتُ خطبة السيد (يوسف)!

صرخ (بطرس) قائلًا:

- لن أسمح بذلك!

قال خالها غاضبًا ومحذرًا:

- اهدأ يا (بطرس)! فالفتاة اختارت من تريد.

- سبقته في الخطبة.

- ليس بالسبق، ولكن بالرضا.

قال (بطرس) في جنون:

- أنا أولَى الناس بها، أنا ابن عمها، سأشكو للوالي، وسأقاضيكم عند القاضي.

اضطرب (يوسف)، وشعر أن (بطرس) قد أمسك بكرة النار وقرر أن يلقي بها على الجميع، بينما قال (إبراهيم) مذهولًا:

- نُقاضينا عند قاضي المسلمين!

قال في تحدٍّ:

- نعم، فلا يجوز له أن يخطب على خطبة أخيه.

ففغر (إبراهيم) فاه، بينما وقف (بشارة) ثائرًا، وقال في تحدٍّ أكبر:

- اللعنة على شيطانك أيها المجنون! قد تأكد لديّ أنك لستَ أمينًا عليها. اخرج من بيتها، فلا مكان لك بيننا. وسأشكوك أنا عند قاضي المسلمين، فأنا وليُّها، ولن أزوجها لكَ ما حييت.

قال (بطرس) مكسورًا وهو ينظر نحو (ومن)، وكأنه يناجيها:

- أخرج أنا، ويدخل الغريب؟

أدارت بصرها بعيدًا، فقال (بشارة):

- تحدث إليَّ أنا، يا من لم تصُن عهد القرابة!

نظر (بطرس) نحو (وَمن) مرةً أخرى، ثم قال في انكسار:

- لم أصُن القرابة! وهل أفعل ما أفعل إلا لأنال القرب؟

لم يرُد أحد، فأردف في وعيد:

- حسنًا يا عماه، سأخرج، ولكن تذكروا أنكم من أدخلتم الغريب بيننا. أما أنتِ يا (ومن)، فلتعلمي أن الرب قد جمعني بكِ منذ كنا أطفالًا، ولن يفرّقنا إنسان، حتى وإن كان رجلًا اخترتِه نكايةً فيّ.

ثم خرج وصفق الباب خلفه، بينما هرولت (ومن) إلى حجرتها.

جلس الرجال مرةً أخرى، فقال (بشارة):

- معذرةً يا سيد (يوسف)، لقد فقد الرجل عقله.

غمغم (يوسف) وقال لأول مرة:

- لا بأس!

بينما تنهد (إبراهيم) في راحة، ثم قال:

- بارك الرب فيك يا سيد (بشارة).

ثم نادى قائلًا:

- أسمعينا زغردةً يا (حنة).

فانطلقت زغردة حنة، تملأ القلوب بالفرح لانكشاف الغمة.

* * * * *

(٢١)

لماذا نلعن الشيطان؟ الشيطان يستمع إلينا حينما تصم السماء آذانها! يرفق بنا ويدموعنا أثناء الانكسار ويقدم لنا الحلول بلطف لا يملكه البشر. منحه الشيطان حلًا لمشكلته؛ (يوسف) رجل غريب، والغريب جبان. يكفي أن يشعر بأن حياته مهددةٌ بالخطر وسيخلع رداءَ الشفقة الذي ارتداه من أجل (ومن)، أو ثوب الحياء الذي ارتداه من أجل (إبراهيم النصراني).

تربص قريبًا من دار عمه (مينا). انتظر حتى خرج (إبراهيم) و(يوسف) من الدار، ثم تتبعهما خفيةً وهما يتنقلان من دار (ومن) إلى حانوت (إبراهيم)، ثم إلى دار (إبراهيم). تعجب من تلك الصداقة التي نشأت بينهما في وقت وجيز وجعلتهما يسيران في الطرقات كأب يسير إلى جوار ابنه. قاوم الملل، في انتظار خروج (يوسف) من دار (إبراهيم النصراني)، وراوده شك بأن يكون (يوسف) قد خرج على حين غفلة منه، خاصةً وأن الليل قد أوشك على الهبوط. فجأةً تجدد لديه الأمل، حينما فُتِح الباب، وخرج منه (يوسف). بالغ في الاستتار واضعًا وشاحًا على وجهه ومتخفيًا وراء جدار يقابل دار (إبراهيم). قرر أن يتعقب (يوسف) إلى بيته، وشكر الظروف التي منحته سترًا إضافيًا من الليل. تنقل جسده بخفة من جدار إلى جدار ومن جذع شجرة إلى أخرى، وعيناه لا تغادران غريمه الذي يسير في الظلام. فجأةً وجد نفسه بالقرب من ميدان الكنيسة. اختبأ خلف آخر جدران الميدان، وانتظر حتى يرى أين سيذهب (يوسف). اندهش حينما رآه يهبط الطريق المنحدر متجهًا نحو الأحراش. غاب عن نظره أسفل المنحدر فسار في بطء نحو الجرف، ثم نام على بطنه، ونظر متلصصًا. رآه

يدنو من البيت المهجور ثم يرفع عارضة الخشب من أمام الباب، ثم يتلفت حوله يمنةً ويسرةً، قبل أن يفتح المزلاج ويدلف إلى داخله في سرعة، مغلقًا الباب وراءه أزاحت الفرحة التي شعر بها كلّ أحزان اليوم وانفعاله، وهنأ نفسه على صبرها، ثم انقلب على ظهره، ونظر إلى السماء، وقد خُيل إليه أن القمر يبتسم إليه من بين الغمام.

في الصباح كان يجلس إلى (طي بن شاور) قائد العسس. أخبره أن الفتاة التي كان يبحث عنها، ولم يجدها، هي ابنة عمه، وأنها كانت مخطوفةً في منزلٍ مهجورٍ قُرب الكنيسة، ثم حكى له عن شكوكه حول التاجر (يوسف).

استمع إليه (طي) باهتمام، ثم نادى على قائد الحرس، وأمره بأن يرافقه مع ثُلة من الفرسان إلى ميدان الكنيسة. وصلوا إلى المنزل، فأحاط به الحراس بينما ترجل (طي) عن جواده واتجه نحو الباب، وخلفه (بطرس). نظر (طي) بعين غير مصدقة إلى عارضة الخشب والمنزل المتهدم، وسأله:

- هل أنت متأكد أيها الرجل مما تقول؟

أومأ برأسه، وقال:

- رأيته بعيني يدخل إلى هنا.

أشار (طي) إلى اثنين من الفرسان، ضربا الباب بقدميهما فانفتح. دلفوا إلى الداخل، وقد ازدادت شكوكهم. رائحة الحياة التي تفوح بالداخل، تتناقض مع الشكل الخارجي للمنزل المهجور. أزاح (طي) بقدمه نعلًا مقلوبًا من فوق الأرض، وتطلّع إلى الفِراش الذي ينبعث منه الدفء. فنزع سيفه من غمده، وأشار بيده إلى الحراس، كي يبحثوا عن الرجل فوق السطح. سار ببطءٍ نحو منضدة في ركن المنزل، ملطخة بروث حمام، وعليها قنينةٌ من الزجاج تمتلئ بسائل أسود. أمسك (طي) بالقنينة ثم أدناها من أنفه،

وتشممها، فأدرك أنها قنينة نفط. وضع القنينة، ثم أمسك لفافةً من البردي، إلى جوارها، فتحها ثم قرأها بعين مضطربة، قبل أن تتسع حدقتاه وهو يقرأ اسم (نور الدين محمود) بين الكلمات. قرأ اسم المُرسِل بصوتٍ عالٍ:

- (يوسف بن صدقة).

ثم طوى اللفافة بيده، وقال في ظفر:

- يبدو أن لدينا صيدًا ثمينًا يا رجال!

أشار إلى الحراس الذين عادوا من السطح بعد أن فشلوا في العثور على أحد، وقال:

- فليبقَ حارسٌ هنا، ولينتشر العسس في الميناء والأسواق، أريد القبض على هذا الغريب حيًا.

ثم أشار إلى (بطرس) وقال:

- أما أنت، فلترافقني إلى بيت ابنة عمك، فهناك الكثير الذي أود أن أعرفه منها.

***

ارتجفت (وسن) وهي تقف أمام الأمير (طي بن شاور). اقتحمتها نظرات الأمير حتى شعرت أنها تقف أمامه عاريةً، وهو يسألها عن كل شيء. أعادت على مسامعه ما حكته منذ عادت، سألها مباشرةً إن كان التاجر (يوسف) هو من اختطفها، فنفت بشدة، تعجب من ثقتها، فسألها:

- أراكِ تؤكدين رغم أنكِ لم تريْ وجهه الملثم؟

- سمعتُ صوته، ورأيتُ هيئته، وشتان بين الاثنين.

باغتها قائلًا:

- هل إذا رأيتِ المنزل تعرفينه؟

ارتجفت قائلةً:

- ربما!

بعد قليل، كانت تقف معهم داخل المنزل، أغمضت عينيها، وهي تشعر مع كل نفَس أنها قد استنشقت هواء ذلك البيت من قبل. حاولت أن تسيطر على انفعالها وهي تطوف ببصرها في أركان القاعة. لمحت حصيرًا يغطي ركن الحجرة، وتستقر فوقه منضدة. انتابها شعور أن يكون مدخل السرداب تحت ذلك الحصير. فعبرت الركن ببصرها سريعًا، خشية أن يفطن أحدهم إلى خلجات وجهها. فمن يدري لعل (يوسف) يكون مختبئًا الآن في ذلك السرداب. سألها (طي) وهو يقطع تفكيرها:

- هل هذا هو المنزل؟

قالت في تأكيد:

- كلا، ليس هو!

لم يحوّل بصره عنها، ثم قال في هدوء:

- هل وقع هذا الرجل عليك؟

فزعت لسؤاله، بينما ابتلع (بطرس) ريقه، وهو يستنشق شبقًا يفوح من كلمات (طي). قالت في نفور:

- كلا بالطبع!

قال ساخرًا، وبصره يمسحها من رأسها لقدميها:

- ومن أدراكِ أنه لم يفعل وأنتِ غائبةٌ عن الوعي؟!

نظرت إليه في حسمٍ وقالت:

- قد أنهيتُ شهادتي يا قائد العسس. فهل ترغب في شيء آخر؟

أثاره حسمها أكثر فقال وهو يرفع حاجبه:

- كلا يا ...!

ثم أردف:

- ما اسمكِ؟

قالت في ضجر:

- ومن!

عقد حاجبيه، ثم قال:

- (ومن) .. اسم جميل، (ومن بنت مينا). (مينا) السكّير! أليس كذلك؟ حسنًا يا (ومن)، اذهبي الآن، ولكن إذا رأيتِ هذا التاجر فلتبادري بالحديث إلينا. ولا تنسَي أننا لا نحب من يثيرون الفتنة، أو من يعينون عليها!

نظرت إليه في بغض رغم خوفها، ثم انصرفت، وتبعها (بطرس)، ولكن صوت (طي) جاءه من خلفه قائلًا:

- انتظر يا تاجر العسل!

التفت إليه (بطرس)، وهو يزدرد لعابه الجاف، فقال:

- دعها تذهب وحدها، وتعالَ إلى هنا. أريد أن أعرف كل شيء عنك وعن هذه الفتاة، والأهم: أريد أن أعرف من هو (يوسف بن صدقة).

(٢٢)

مرّ اليومان التاليان وقلبها يتمزق على (يوسف). تتخيل أنه محبوس داخل السرداب بغير زاد ولا ماء، والحراس يحيطون به من كل جانب، فتبكي وتتمنى لو تتسلل ليلًا إلى البيت، فتعينه على الخروج وتنقذه كما أنقذها. بكت بكاءً مريرًا، وشعورٌ بالذنب يتغمدها لأن شابًا يناله كل هذا الأذى بسببها.

اختفى (بطرس) خلال هذين اليومين، ولم يظهر حولها بعدما سقط في براثن (طي)، اعتصره قائد العسس بأسئلة لا تنتهي، كأفعوان يلتهم فريسته ببطء. رغم يقين (بطرس) بأن (طي) لا يهتم لأمره، وإنما لأمر (ومن)! لم تنقطع أسئلة الأمير الشاب عن الفتاة؛ حياتها، ثروتها، كيف عرفت التاجر (يوسف)، ولماذا كانت ترغب في البتولية، ثم بدلت رأيها؟ وهل يعتقد حقًّا أن ابنة عمه قد وقعت في الخطيئة مع هذا الشاب، كما أخبر كاهن الكنيسة أم لا؟ أسئلةٌ يتقطر جبينه خزيًا وهو يُجيب عنها، وكأنه يُعرّي ابنة عمه أمام رجل غريب! ولكنه اكتشف أنه جبان، جبان لدرجة جعلته يتحرّى الصدق، في كل كلمة ينطق بها أمام (طي)!

كان يجلس أمام (طي) حينما دخل أحد الحراس فجأةً، حاملًا رسالةً صغيرةً تبدو كالبطاقة، وهو يقول:

- حطّ ذكرُ حمام على البيت، ووجدنا به هذه الرسالة.

فتح (طي) الرسالة وقرأها:

- «وصلت قوارير النفط إلى دمياط». (موهوب).

وضع (طي) الرسالة، وقال في حماس:

- الآن عرفنا أين وصل النفط الطيار.

ثم قال للرجل:

- أرسل إلى والي الإسكندرية (طرخان)، وأخبره أن هناك رجلًا من الخونة في دمياط يتصل بـ (نور الدين محمود) سرًا.

ثم قال لـ (بطرس):

- أما ابنة عمك، فستكون في ضيافتي بالمحبس، حتى يظهر ذلك الجاسوس.

امتقع لون (بطرس)، وقال:

- وما ذنب (وَمن) في ذلك؟!

قال في وعيد:

- يكفيها ذنبًا أن قبلت الزواج من جاسوس لـ (نور الدين محمود)، اقتحم ولاية أبي (شاور بن مجير السعدي).

ثم أردف ساخرًا:

- كما أنني أشاركك الظن في أنها قد وقعت في الخطيئة مع ذلك الشاب.

***

ملأ صراخ (حنة) الدار حينما اقتحم حارسان البيت واصطحبوا معهما (ومن) بملابس نومها. تجمع الناس حول البيت، وهم يرون ابنة (مينا)، الذي مات مشهرًا منذ أسابيع قليلة، توشك أن تنال مصيرًا يشبه مصير أبيها. تجمدت العيون على أصابع الحارسين الغليظة التي انغرست تحت إبطيها وحول صدرها، وهما يسحبانها خارج الدار بينما الفتاة تصرخ

وتتشبث قدماها بالأرض، لعلها تؤخر مصيرها المحتوم للحظات. وجوه الناس الغاضبة وعيونهم المحتقنة، لم تمنع خوفهم من القيام بأي محاولة للدفاع عن الفتاة، واكتفوا بالغضب المكتوم. وقف (بطرس) على مقربة من الدار يبكي، وهو يرى (ومن) تُسحب من داخلها كشاة تُساق إلى ذبحها، لم تحتمل نفسه رؤيتها على هذا الحال فهرول نحوها يريد أن يُعينها، فتلقى ضربةً في صدره بقدم الحارس، ثم شعر بنصل سيف حادٍّ يشق لحم كتفه، فسقط على وجهه أرضًا، يختلط التراب بدموعه ودمائه. دفن وجهه باكيا وهو يتمنى الموت، بينما صوت صراخ (ومن) يبتعد عنه. فجأةً انشقت الأرض عن رجل ملثم يمتطي عربةً يجرها جواد، أثار ظهوره اضطراب الحارسين. انطلق حجرٌ أصاب رأس أحدهما، فسقط صارخًا. وقبل أن يتأهب الثاني بسيفه، انطلقت قذيفةُ نفط نحوه، أشعلت حريقًا في ملابسه وجعلته يهرول صارخًا. لم تستوعب (ومن) ما حدث، ولكنها شعرت بيد قائد العربة تنزعها من مكانها، وتضعها فوق العربة قبل أن يقدح طريقه عدوًا بعيدًا عن المكان. أغمضت عينيها وهي تتشبث بذراعيها بجانبي العربة، كي لا يسقط جسدها الذي كان يتأرجح بقوة. لم تدرِ كم من الوقت مرّ ولا قدر المسافة التي ابتعدتها، ولكنها فتحت عينيها حينما توقف الفرس عن العدو. تلفتت حولها فوجدت نفسها في مكان في الصحراء بعيد عن القرية. شعرت بالوجل حين رأت شخصين يقفان على جانب الطريق، وإلى جوارهما ناقة مناخة تحمل هودجًا. تعجبت حين نزل الرجل الملثم، واتجه نحوهما. فجأةً تيقنت من ملامح الرجلين، كان أحدهما خالها (بشارة) والآخر الشيخ (إبراهيم النصراني). صرخت في فرح:

- خالي (بشارة) والشيخ (إبراهيم)!

أنزلها الملثم من فوق العربة، فقالت قبل أن يخلع لثامه:

- وأنت (يوسف).

خلع لثامه، ووقف مبتسمًا وهو يلهث، فقال (إبراهيم):

- نعم يا (وشن). هذا (يوسف) قد أنقذكِ مرةً أخرى.

نظرت إليه متعجبةً، وقالت:

- هل عرفت؟

أومأ برأسه وقال:

- نعم، أخبرني بكل شيء.

قال خالها:

- وأنا أيضًا عرفت بكل شيء من الشيخ (إبراهيم).

نظرت إلى خالها ممتنةً، ثم قالت:

- ألا يضايقك أن أنذرَ نفسي للبتولية؟

- كلا يا بنيتي، قد اختار القدر لكِ طريقك.

ثم أردف في جدية:

- ولكني سأسترد أموالك من (بطرس).

قالت صادقةً:

- كلا، دعها له، ولكن بشرط أن يترك الدار للخالة (جِنة)، ويجعل لها من المال ما يكفيها بقية حياتها!

شعر الشيخ (إبراهيم)، بأن الوقت يمرُّ في سرعة، فقال:

- لا تشغلي بالكِ بأمر (حِنَة)، فإني بحاجة لخدمتها.

ثم أردف:

- هيا انطلقا حتى لا يُدرككُما الليل. وحين تصلان إلى أبي حنس اسألا عن رجل اسمه (بشندي)، وقولا له إنكما أتيتما من عند (إبراهيم النصراني) تاجر الشموع في قوص.

ثم أخرج مفتاحًا من جيبه أعطاه لـ (يوسف)، وقال:

- وهذا مفتاح داري، امكثا فيها حتى يتهيأ الأمر لـ (ومن) وتلتحق بالدير.

تناول (يوسف) المفتاح وقال:

- لماذا لا ترافقنا إلى هناك يا شيخ (إبراهيم)؟

قال (إبراهيم) في شجن:

- ليتني أستطيع يا بني، كل ما أرجوه أن تتذكرا أهل هذه الدار بالرحمة، من تنيّح منهم، ومن فرقتهم الحياة في دروبها.

أومأ (يوسف) برأسه، ثم قال:

- أعدك يا شيخ (إبراهيم).

ثم قال:

- هيا يا (ومن) قبل أن يجدنا الفرمان.

احتضنت (ومن) خالها (بشارة)، بينما احتضن (يوسف) الشيخَ (إبراهيم)، ثم أركب (ومن) الهودج، بينما ركب هو العربة. وبينما كانت الناقة تشق طريقها مبتعدةً في الصحراء، رنَت (ومن) ببصرها نحو الأفق، ثم رشمت الصليب، وهي تدعو الرب أن يعينها في هجرتها التي هاجرتها

إليه، بغير أهل ولا زوج ولا مال.

*****

الإسكندرية

(١١٤٦ - ١١٥٢ميلاديًا)

(٢٣)

نخر كحلوف فرغ لتوه من أنثاه، ثم سقط على جانبه منهك القوى، سحب الغطاء ليستر عجيزته، ثم انقلب على وجهه مستسلمًا لنداءات النوم من بين سحابات النشوة. لم تمضِ لحظات حتى ارتفع صوت شخيره مؤذنًا لها بالانسحاب. تسللت وهي ترتدي غلالتها التي نُزِعت عنها قبل قليل، ثم خرجت من الحجرة، وهبطت الدرج إلى القبو. وصلت إلى المغطس الذي يتصل بنبع ماء صافٍ، فألقت غلالتها وهبطت إليه عاريةً، غير عابئة ببرودة المياه. اختفت رأسها تحت الماء، وامتلأت أذناها بوقع طنينٍ منحها قدرًا من السكون كانت بحاجة إليه. ظلت تحت الماء بقدر ما سمح لها هواء صدرها، ثم أخرجت رأسها وهي تلقف أنفاسها. ملأ الماء حلقها فسعلت، وأباح السعال لدموعها الدافئة أن تنهمر كررت الأمر عدة مرات، نفضت فيهن شعرها الطويل بتشنج، وكأنما تلقي عن روحها الدنس الذي لطخها طيلة شهر مضى، ثم جثت على ركبتيها في الماء وهي تجهش في نحيب.

استرجعت ما فعله بها (نصر بن عباس الصنهاجي) طيلة ذلك الشهر. تذكرت المرة الأولى التي اقتحم فيها مخدعها، وهو يترنح بفعل كؤوس الخمر التي شربها، قائلًا في بغض لم تفهم له سببًا:

- أنتِ (يوستينا)!

أومأت برأسها خائفة، فقال وهو يخلع جلبابه.

- قَدَري أن أحتملك شهرًا كاملًا.

ثم انقض عليها بجسده الأبيض المهول الذي يترهل بعشرات الثنايا وكأنما صُنع من عجين مُرنِّب، وبأنفاسه الكريهة المتلاحقة التي سرعان ما انقطعت، بمجرد أن انسحقت كرامتها تحته.

لم يخبرها النخاس الذي اشتراها من عائلتها في (طرسوس) شيئًا عن (نصر). أخبرها فقط بأنها ستكون جاريةً في قصر أحد الأمراء بالإسكندرية. لا تنكر أنها قد شعرت بالسعادة حينما علمت أن سيدها المرتقب أمير. فالفتيات في (طرسوس) يتم إعدادهن منذ الصغر ليكنّ جوارٍ في قصور الأمراء في بغداد أو دمشق أو مصر. يتعلمن العربية، ويحفظن الأشعار ويُجدن الغناء والعزف، ويبقى فرق الجمال بينهن هو المُحدِّد للسعر أو أن تصبح إحداهن محظيةً لأمير من الأمراء. حين وصلت المركب التي تقلها من طرسوس إلى الإسكندرية ودّعت رفيقاتها في الرحلة، وحملها النخاس وحدها على عربة كانت في انتظارهما نحو حي الإمارة في تل الرمل المطل على شاطئ الإسكندرية. في الطريق أخبرها النخاس بتفاصيل أكثر. قال لها إن الأمير الذي اشتراها اسمه (عباس الصنهاجي) وهو قائد جيش والي الإسكندرية (علي بن السلار). كررت الاسمين وراءه حتى تتأكد من نطقهما الصحيح قائلةً:

- (عباس الصنهاجي)، و(علي بن السلار)!

أومأ برأسه مستحسنًا صنيعها، فالخطأ في نطق أسماءالأمراء يعطي انطباعًا سيئًا عن الجارية، كما أن اللحن في نطق اللغة العربية يُعرضها للسخرية من أقرانها. شجعه ما لمحه من ذكائها على أن يعطيها معلومات

أكثر فقال:

- لمصر أربع ولايات: الفسطاط، والإسكندرية، وقوص والغربية. و(علي بن السلار) هو والي الإسكندرية، وهو أكبر الولاة سنًا وأكثرهم نفوذًا.

أنصتت وكأنها تحفظ المعلومات التي يقولها، ثم قالت في اهتمام أكبر:

- وماذا عن (عباس الصنهاجي)؟

- (عباس الصنهاجي) هو ابن زوجة (علي بن السلار) وربيبه. تزوج (علي) من أمه وهو لا يزال طفلًا رضيعًا، ثم رباه حتى صار قائدًا لجيشه.

قالت وقد لمعت عيناها:

- هل هو شاب؟

قال وهو ينظر إليها بمكر:

- جاوز الأربعين بقليل، ولكنه قوي كالثور.

رأى في عينيها بعض الخذلان، فأردف وهو يبتسم:

- على أية حال، الأمير (عباس) لم يشترِك لنفسه، وإنما لولده (نصر)!

فرجت شفتيها وقد شعرت بسعادة غامرة، ثم قالت:

- حقًا؟

ابتسم وقال:

- نعم، وهو لا يزال شابًا دون العشرين.

دق قلبها فرحًا، كم كانت تتمنى أن يكون أميرها شابًا. سمعت حكايات عن فتيات انتهى بهن المطاف في مخادع كهول لا يُسمع فيها سوى تأوهات

المرض. لماذا لم يخبرها ذلك النخاس اللعين بتلك الأخبار الرائعة طيلة الأيام الماضية؟ وكأنما تعمد أن يزيد حماستها في اللحظات الأخيرة!

وصلت إلى حي الإمارة في تل الرمل، توقفت العربة أمام أسوار الحي العالية، ملأت صدرها بعبق البحر وتطلعت إلى الفنار العتيق، المنتصب في شموخ فوق صخرة عالية، مواجهًا أسوار الحي، بينما كان النخاس يتحدث إلى حراس البوابة. بعد قليل كانت العربة تعبر البوابة، وتسير في شوارع الحي المبلّطة بالحجر. نظرت منبهرةً نحو قصر الإمارة الذي تتجاوز أعمدته المائة عمود، تمتد بينها إيوانات معقودة، كموجات البحر المتتابعة. أشار النخاس إلى القصر وقال:

- هذا هو قصر الوالي، وديوانه.

ثم أشار إلى قصرٍ أصغرَ ولكنه أجمل، تحيط به حديقة مبهجة، ويفصل بينه وبين قصر الوالي طريق محفوف بزنابق السوسن الزرقاء:

- أما هذا القصر فهو دار الحريم.

قالت منبهرةً:

- هل سأعيش هنا؟

أومأ برأسه وقال:

- نعم، يعيش الوالي مع (عباس الصنهاجي) وأهل بيته في قصر واحد.

توقفت العربة، فهبطت منها وقد غطت رأسها ووجها بيشمق أظهر فتنة عينيها ومطوة أهدابها. تحدث حارس القصر إلى النخاس للحظات ثم أخذهما إلى الداخل. دلفا وراءه إلى درقاعة واسعة لاستقبال الضيوف، تتوسطها نافورة مرمرية، وتنبسط في أركانها آرائك موشّدة بطنافس

مخملية، وشراشف موشحة بالقصب. كان الأمير (عباس) يجلس متربعًا على الأريكة يتحدث إلى خادم من خدم القصر. انحنى النخاس عند دخوله، فأحنت رأسها هي الأخرى، وهي ترنو بلحظها نحوه. توقف الأمير عن الحديث، ثم التفت إلى النخاس وقال:

- أرني الجارية التي أحضرتها.

أشار إليها النخاس كي ترفع اليشمق عن وجهها، ولكنها بطريقة متعمّدة، رفعت اليشمق وأزاحت معه الخمار فانسدل شعرها كموجات من الذهب غطّت كتفيها وظهرها. هز (عباس) رأسه استحسانًا، وضمّ شفتيه، وهو يقول للنخاس:

- أحسنت الاختيار يا رجل!

أشار إليها كي تضع الخمار واليشمق، ثم قذف بكيس كبير من المال إلى النخاس، ونادى قائلًا:

- يا مجبوب!

دخل رجل حليق الذقن طويل الشعر يرتدي جلبابًامفتوح الصدر ويلتف حول وسطه زنار.

قال له (عباس):

- خذها إلى دار الحريم، وقل للسيدة (ورد) كبيرة الخدم، أن تُعدها لولدي الأمير (نصر).

* * * * *

في دار الحريم، استقبلتها السيدة (ورد) كبيرة الخدم بعطف كبير. طافت معها على حجرات القصر وقدمتها للجواري، وتحدثت معها عن قواعد القصر ونظامه. سألتها (يومستينا) بعد أن تعجبت من تبجيل الجميع لها:

- كم من الوقت مضى وأنت جاريةٌ في هذا القصر؟

ابتسمت السيدة (ورد) وقالت:

- عمرٌ طويلٌ يا (يومستينا)، ولكني لستُ جاريةً، أنا حرّة!

اندهشت (يومستينا)، وقالت:

- تخدمين في قصر الوالي وأنت حرّة!

قالت(ورد) وهي تبتسم:

- تلك قصة طويلة، أحكيها لك لاحقًا.

لمحت (يومستينا) صليبًا يتدلّى من عنقها، ويظهر طرفه تحت الخمار الذي يغطي عنقها. سألتها مذهولةً:

- هل أنت مسيحية؟!

أومأت برأسها قائلةً:

- نعم!

قالت (يومستينا):

- أنا أيضًا مسيحية.

ثم أردفت في خفوت:

- ولكني لا أعلم إلى أين سينتهي بي المطاف.

تنهدت (ورد)، ثم قالت:

- ينتهي بنا المطاف إلى حيث نريد.

نظرت إليها ممتنة، ثم قالت:

- أشعر بالاطمئنان لوجودك.

ربتت (ورد) على كتفها، وقالت:

- وأنا أشعر بالسعادة لوجودك يا بنيتي.

بقدر سعادة (يومتينا) بلقاء (ورد)، كان شعورها بالضيق من باقي الجواري. ضايقها ذلك الحديث الهامس الذي كان يدور بينهن وهنّ يتطلعن إليها، والذي يعقبه صمتٌ مطبقٌ إذا حانت منها التفاتةٌ نحوهن. ظنت أن بواعث الحقد والغيرة قد بدأت تثور في صدورهن، لاسيما بعد أن علمت أنهن جميعًا جوارٍ لـ (عباس الصنهاجي)، بينما كانت هي الجارية الوحيدة لولده (نصر). ولكنها في اليوم التالي أصابها الفزع، بعدما تكشف لها ما كان يدور على ألسنتهن من همس. كانت تجلس في حجرتها بعد أن تحممت، وقد أسلمت شعرها للماشطة كي تزينها استعدادًا لدخول الأمير عليها في المساء، فبدت جدائل شعرها كذيل مهرة طويل، يغطي ظهرها الأبيض الناصع. قالت الماشطة وهي تشد جديلتين سويًا وتغزلهما في ضفيرة:

- ما أبدعكِ يا فتاة!

ثم مصمصت شفتيها، وقالت:

- ليتكِ جاريةٌ لسيدي (عباس الصنهاجي)، بدلًا من ولده(نصر)!

سألتها في فزع:

- ما قصدك؟

ارتدت وجلة، وقالت:

- لا شيء، ولكن الكل يعلم أن سيدي (نصر) يعاف الإماء.

أذهلتها الصدمة، صرخت غضبا أو حسرة:

- كيف تجزئين؟

ارتجفت الماشطة وذهبت أنفاسها، ولم ينقذها إلا دخول إحدى الجواري عليها. قالت (يومتينا) وهي لا تزال مصدومة:

- تستحقين أن يُقطعَ لسانك جزاءً لك على هذه الكلمة.

فهمت الجارية المحنكة فحوى الحوار فأشارت إلى الماشطة كي تنصرف ثم أغلقت الباب، وجلست أمام (يومتينا) قائلة لها في رفق:

- اسمعي يا (يومتينا)، كلنا هنا قد امتطينا جواد الأحلام من قبلك، قبل أن نكتشف أنه جواد خاسر.

خفق قلبها، وقالت:

- ماذا تقصدين؟

تنهدت، ثم قالت:

- أقصد أنك عاجلًا أو آجلًا ستنضمين إلى جواري الأمير (عباس الصنهاجي).

ثم شرعت الفتاة تحكي لها ما قوّض أحلامها. حكت لها عن الشاب الهنين،

الذي شاعت بين الجواري أخبارُ لياليه المشبعة بالعجز والمعارك الخاسرة أمامهن، قبل أن يفتضح أمره ويعلم الجميع ميله إلى الغلمان. أخبرتها عن الفضيحة التي دوت في الإسكندرية بعد أن تناقل الناس أخبار فحش (نصر) مع خادم أسود اسمه (كوثر)، حتى لمزه الصبية في الطريق وهو يسير في موكب الوالي قائلين: إنا أعطيناك الكوثر! وحين وصلت الأنباء إلى الوالي (علي بن السلار)، أرسل من قطع عنق الخادم (كوثر)، وحبس (نصر) في حجرة بدار الحريم، وأقام عليها حارسين!

تركتها الجارية دامية القلب، في الليلة التي سيدخل عليها أمير البؤس. طوحت بمرآتها باكيةً، وهي تلعن نفسها وأمها، والنخاس الذي اشتراها ليذبح جمالها تحت أقدام شاب عِنين يميل إلى الغلمان! وتساءلت لماذا اشتراها (عباس) لولده ما دام يعلم بعجزه؟ ما لم يعلمه أحد أن الأمير (عباس الصنهاجي)، بعد أن انتشرت فضيحة ولده مع الخادم (كوثر)، ذهب إلى زوج أمه (علي بن السلار)، وتشفع لولده، وأقسم له بأن يمحو كل أثر للفضيحة. ثم خرج من عنده وذهب إلى دار الحريم. صعد إلى حجرة (نصر)، فصرف الحارسين الواقفين أمام بابها، ثم ضرب الباب بقدمه. وجده يجلس على الأرض مرتديًا ثوبًا قصيرًا وقد فرج بين ساقيه وأمسك في يده قدحًا من الخمر. أطاح (عباس) بكأس الخمر بقدمه، ثم جذبه من شعره الذي عقصه خلف رأسه، وأوقفه أمامه. وضع نصل خنجره على عنق الفتى وهو يقول له بصوت حادٍّ اخترق أذنه:

- والله لوددتُ أن أقطع عنقك بيدي، ولكني أخشى أن يقول الناس: قتل ابن الصّنهاجي ولده.

تأوه الفتى ألمًا، ولكن (عباس) لم يأبه له، وغرس النصل في جلده أكثر وهو يقول:

- اسمع يا بَوْل الخِصيان، يا أقذر من بَعْرة! قد أرسلتُ في طلب جارية لك، لو رآها بغلٌ لاشتهاها! فوالله لتقعنّ عليها كل ليلة حتى تحبل، وإلا جززتُ عنقك بيدي!

ثم قطع عقيصة شعره بخنجره، وألقاها على وجهه وانصرف.

* * * * *

(٢٥)

ملأ صراخ (يومستينا) جنبات دار الحريم، وهي تضع مولودها الذي استمرت ولادته ليلةً وضحاها. ارتعشت يدا القابلة وهي تتلقف أكتاف المولود، وعاونته في شقِّ طريقه إلى الدنيا، بعدما أوشك أن يفتق عِجان أمِّه المسكينة. تنفست (ورد) الصعداء بعدما خرج الطفل باكيًا، واحتضنت أمَّه التي كادت أن تفقد وعيها، بينما رددت القابلة زغردةً خلاعةً مزجت بين الفرحة والتعب.

طارت البشرى إلى قصر الإمارة، ثم عادت محملةً باسم المولود الذي اختار له الوالي (علي بن السلار) اسمَ (الحُسين)! قيل إنه نام في تلك الظهيرة فرأى في غفوته جمعًا غفيرًا من الناس يسير من الإسكندرية إلى القاهرة، فلما سأل عن السبب، قيل له قد جاء الحسين! فاستيقظ مستبشرًا على خبر ميلاد الطفل وقرر أن يسميه (الحسين). أمر طواشيه بأن يقام سِماطٌ للفقراء عند مسجد العطارين وآخر عند المدرسة الحافظية طيلة الشهر، وأوصاه قائلًا:

- لا أريد فقيرًا ولا طالب علم في الإسكندرية إلا وقد أكل من عقيقة (الحسين بن نصر بن عباس الصنهاجي).

لم تستطع (ورد) أن تغادر (يومستينا) في تلك الليلة، شعرت أن الفتاة

المسكينة قد أنهكها المخاض، وفقدت الكثير من دمائها. أسلمت الطفلَ إلى إحدى الجواري، وقررت المبيت إلى جوارها. أسقتها رشفات من الحُلبة والعسل بصعوبة، ثم دلكت كفها البارد، وهي تتطلع إلى عينيها التي كانت تغفو غفوات متقطعةً يتخللها أنين وألم. استيقظت في جوف الليل، على رعدة الفتاة وجبينها المتعرق، وهي تهذي بحديث خافت. لم تدرِ ماذا تفعل، ففزعت إلى الصلاة. جثت على ركبتيها في ركن الحجرة وضمّت الصليب إلى صدرها وتمتمت بكلماتٍ كانت دائمًا رفيقتها في أوقات الحاجة، قالت: «يا ربّ إليك صرخت، فأسرِع إليّ، اصغِ إلى صوتي، فقد بادَ عنّي كل ملجأ، ولكنك أنت مُعتصمي». بكت وهي تصلي من أجل (يوستينا)، ولكنها كانت على ثقة بأن الرب يعلم ويرى ويسمع، وسيكون حاضرًا وقتما يريد كي يبدل الأمور إلى الأفضل. حدث ذلك معها ووجدته في كل مرة طلبت فيها النجاة، كان معها وهي صبيةٌ مخطوفةٌ، تحملها عربةٌ يجرها جوادٌ نُخِست مؤخرته كي يقطع الأرض عدوًا بحمولة جمعت ظُلمًا من أبي حنّس إلى الإسكندرية. وكان معها حين اختارها الأمير الشاب (علي بن السلار) من بين الجواري ليضمها إلى قصره، وكان معها حين جلست في مخدعها ترتجف بعدما أعلمتها كبيرة الخدم بأن الأمير (علي) يريدها في الفراش، لتخرجه من أحزانه بعد وفاة أبيه، فظلّت تدعو الرب: «يا رب إليك أصرخ، يا رب إليك أصرخ»، حتى هدأت ونامت. وحين دخل عليها الأمير وجدها نائمةً في الفِراش ترتدي غلالة النوم، وتحتضن بيديها صليبًا يتدلّى من عنقها، فنظر إليها طويلًا، ثم انصرف. وحين استيقظت في الصباح، دعاها الأمير إلى حجرته، ذهبت إليه خائفةً، ولكنها كانت تشعر أن الرب سيكون إلى جوارها هذه المرة أيضًا. وحين دخلت الحجرة دار بينهما ذلك الحديث الذي لم تنسَه طيلة عمرها:

- تحتضنين الصليب في فراش أميرٍ مسلم؟

- انتزعني رجالُك من قريتي بصليبي.

- اشتريتكِ بمالي!

- اشتريتَ فتاةً خُطفت من ديارها!

- تتحدثين وكأنك امرأةٌ حُرّة!!

- كنت حرةً، قبل أن ينتزعني أحدهم من حضن أبي وأمي!

- ما اسمكِ؟

- ورد.

- أتدرين يا (ورد) ما جزاء الجارية التي تخرج عن طاعة أميرها؟

- تقتلها؟!

- أنا لا أقتل النساء. ولكني قد أعيدكِ إلى نخاسك، وميقتلكِ هو حينها! ماذا تختارين؟

ارتجفت، وقالت:

- لا أريد العودة.

- إذن تريدين البقاء معي؟

- نعم، ولكني لا أريد الفِراش.

- الجارية للفِراش والمتعة!

- لن تجد معي أي متعة!

- ولماذا أُبقيكِ إذن؟

- أخدمك بإخلاص!

- وتعيشين راهبةً في بيت الأمير!

- كنتُ أتمنى أن أعيش راهبةً في بلدتي!

- من أي البلاد أنتِ؟

- من قرية اسمها (أبو حنّس).

- وكيف وصلتِ إلى هنا؟

- اختطفتني عصابةٌ من الترك القبجاق منذ سنوات، وقتلوا أبي، ثم باعوني جارية.

شعر بالألم، وأصابته غصة، كان يظن أن الجارية ستنسيه حزنه على وفاة أبيه، ولكنها أثارت أحزانه أكثر. كيف تحملت تلك الفتاة اليتم والأسر وفقدان الأهل في يوم واحد! بينما ينفطر قلبه هو على أبيه الذي مات في فراشه؟!

صمت قليلًا، ثم نادى على خادمه بصوت عالٍ، ارتجفت مع دخول الخادم الحبشي، وظنت أنها لحظة العقاب، ولكنه قال:

- آتني بالكاتب (صدقة) ومُره بأن يحضر معه قرطاسًا من البردي وقلمًا، وختمًا.

عاد الخادم بعد قليل ومعه الكاتب (صدقة) يحمل تحت إبطه سجلًا فارغًا من أوراق البردي ودواةً وقلمًا. عبرها الكاتب ببصره، ثم وقف بينها وبين (علي بن السلار). قال له (علي):

- اكتب يا (صدقة).

اقترب منه، ثم فتح السجل وغمس القلم في الدواة، وشرع يكتب ما يمليه (علي بن السلار):

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد، فهذا ما أنشأه الكاتب (صدقة القيسراني) كاتب الأمير (علي بن السلار) إلى أمةِ الله القبطية (ورد بنت ...)

نظر إليها ثم سألها:

- ما اسم أبيكِ؟

قالت:

- شنودة.

فتابع:

- إلى أمة الله القبطية (ورد بنت شنودة) بأن يُعتقها، وأن يحفظ حياتها وأن يضمن حريتها، ويتكفل بها ومن في عقِبها، مادام حيًا".

ثم مهرها بخاتم الأمير «علي بن السلار».

أمسك (علي) بالكتاب وقرأه ثم لفّه بيده وأعطاها إياه، قائلًا:

- هذا عهدكِ يا (ورد)، إن شئتِ بقيتِ في قصري وإن شئتِ رحلتِ.

أمسكت الكتاب وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ثم قالت:

- أرحل؟

- نعم، تعودين إلى قريتكِ في أبي حنس، وستظلين في كفالتي.

لم تصدّق ما سمعته، وقالت:

- حقًا!

أراد أن يؤكد لها على صدق كلامه، فقال للكاتب:

- اسمع يا صدقة، اذهب معها إلى قريتها، وابحث عن أهلها، وسلّمهم ألف دينار عوضًا عمّا أصابهم. وقل لهم إن الفتاة في كفالتي ما دمتُ حيًا.

ألقت بنفسها على قدمي الأمير تُقبلها، فرفعها وهو يربت على كتفها، ثم ودعها، بينما فرّت دمعة شجن من عين (صدقة).

ودّعت الإسكندرية، ورحلت مع (صدقة) إلى قرية (أبي حنّس)، تحملها أجنحة الشوق إلى أمها وأخيها، ولكنها حين وصلت إلى الدار التي طالما سكنتها في أحلامها، وجدتها مغلقة. طرقت باب الجيران فوجدت أناسًا لم ترهم من قبل، سألت عن أمها وأخيها، فأجابوها بأنهم لا بد أن يكونوا قد هاجروا؛ فالكل يهاجر بسبب الفقر إلى البهنسا أو قوص. ذهبت مع (صدقة) إلى المكان الوحيد في القرية الذي بدا لها أنه لم يتغير إلى دير أبي حنّس. سألت قيّم الكنيسة عن السيدة (أم إبراهيم)، زوجة المتنيح شنودة، فقال لها:

- تُوفيت منذ عام!

ارتجّ جسدها، فأمسك (صدقة) بكتفيها، ابتلعت ريقها، ثم قالت بصوت متهدج:

- وأين ابنها (إبراهيم)؟

قال صبي يقف إلى جواره:

- رحل (إبراهيم) مع تاجر شموع إلى قوص.

نظرت إلى الصبي، فقال قيم الكنيسة:

- هذا (بشندي) ولدي، كان يقوم مع (إبراهيم) بتزيين الكنيسة بالشموع في الأعياد.

شعرت بروحها تهوي من فوق أجنحة الشوق المتكسرة التي حملتها إلى أبي حنس. نظرت إلى (صدقة) باكيةً وهي لا تدري ماذا تفعل. أمسك (صدقة) بيدها وسار بها نحو الراحلة، ثم أناخ الناقة وقال:

- هيا يا (ورد).

- إلى أين؟

- إلى الإسكندرية، فقد اختار الرب لك أهلًا غير أهلك.

ظلت أشهرًا تخدم في دار (علي بن السلار)، وتقيم في دار الجواري، دون أن تشاركهن عبثهن أو أحاديثهن الماجنة التي تدور جميعها حول الجنس والرجال. تقضي اليوم في القصر وفي المساء ترتل المزامير التي حفظتها منذ كانت طفلةً، ثم تنام وهي تتحسس الورقة التي كتب فيها (علي بن السلار) عهده، وتضعها تحت وسادتها، وكأنها تذكر نفسها كل ليلة قبل أن تغمض عينيها بأنها حرة. وبعد أسابيع، دعاها (علي بن السلار) إلى القصر أخبرها أن هناك رجلًا يريد أن يتزوجها. امتقع لونها، فقال كي يُطمئنها:

- قد وعدتك ألا أكرهك على شيء لا ترغبينه. ولكن الرجل ألحّ عليّ في طلبك.

أثار كلامه فضولها، فقالت:

- من هو؟

أجابها:

- الكاتب (صدقة).

اندهشت، لم تتخيل أن الكاتب الذي يكبر أباها في العمر يرغب في الزواج بها. لطالما شعرت بالاطمئنان ليده وهي تربت على كتفها برفق، ولنظرة عينيه وهي ترمقها بحنان. لو تمنت رجلًا في حياتها بعد أبيها لكان (صدقة)، ولكنها تتمناه أبًا وليس زوجًا. كيف تتزوجه وفارق العمر بينهما يفوق الأربعين عامًا؟! والأهم: كيف تتزوجه وهي قبطية أرثوذكسية، بينما هو مسيحي كاثوليكي؟ فقد كان (صدقة) ابنَ فلاح من (قونية) انضم لجيش الفرنجة، في حملتهم الأولى، وحين وصل إلى قيسارية، نسي حربه المقدسة، وتزوج بامرأة من الشام وأنجب منها (صدقة)، الذي تنقل من مكان لمكان حتى انتهى به المطاف كاتبًا لابن السلار. قطع تفكيرها صوت (علي)، وهو يسألها:

- ما قولك يا ورد؟

صمتت، ثم قالت:

- هو ملكاني، وأنا قبطية.

ابتسم وقال:

- أعلم، ولكني أقول لكِ قولًا سمعته قديمًا: إذا قابلتِ ربكِ فقولي له: ما علمت للمسيح مذهبًا.

صمتت لحظات ثم قالت:

- أفكر.

ولم تمر بضعة أيام حتى تزوجت(ورد) القبطية من الكاتب (صدقة) الملكاني

ولم يمر العام حتى أنجبت منه ولدًا كفلقة القمر أسمه (يوسف)!

*****

(٢٦)

توافد الأمراء على قصر الإمارة في تل الرمل، لأجل طهور (الحسين بن نصر) الذي بلغ الرابعة من عمره. دارت الأيادي في صحاف الطعام، ودارت الألسنة باللمز في سبب دعوة (ابن السلار) لداعي الدعاة الشيعي لحضور طهور حفيده الذي أسماه (الحسين). تهامس الأمراء برغبة (علي بن السلار) في أن يُظهر ولاءه للخليفة الفاطمي. يعلم الجميع أن (عليًا) يطمح في منصب الوزارة الشاغر منذ سنوات، طموحًا يعضده أنه أقوى الولاة وأكبرهم سنًا، ويضعفه أنه سُنيٌ شافعي المذهب. كان (علي) يتطلع إليهم، وهو يكاد يسمع الهمس الدائر بينهم، فمثله لا تخفى عليه الخبايا، بل يراها بوضوح جليّ وكأنما صُنعت أجساد من حوله من بلور أبيض. ومع ذلك لم يهتم ولم يحزن، فهو سُنيٌ وهذه حقيقة، وهو يطمح في الوزارة وهذا حقه. أما ولاؤه للخليفة الفاطمي الشيعي فيشهد عليه تاريخه وما قدّمه للأئمة الفاطميين على مدار خمسين عامًا، منذ بدأ حياته العسكرية صبيًا من صبيان الحُجَر في القاهرة.

تعلم من أبيه قديمًا أن ولاء الجندي يكون للدين والأرض وليس للمذهب. حارب أبوه في الشام في صفوف جيش (سقمان بن أرتق) السُنيّ ضد الفرنجة، فلما ضعف جيش (سقمان)، حارب في صفوف جيش الوزير الفاطمي (الأفضل بن بدر الجمالي). فلما سقط بيت المقدس، هاجر إلى الإسكندرية وخدم تحت إمرة الخلفاء الفاطميين، حتى مات وقلبه معلّقٌ بالمدينة الضائعة. يتذكر يوم أمره أبوه بالزواج من السيدة (بلارة) وهي لتوها ثكلى فقدت زوجها في الحرب ضد الفرنجة، وكان ولدها (عباس) لا

يزال يتعلق بحديها. شعر حينها بالضيق وقال لأبيه:

- وددت لو تزوجتُ بِكرًا.

قال أبوه مستخفًا:

- وهل يبقى من البِكر بعد فضّها إلا طبعها؟

ثم قال له في لوم:

- كفى الثيبَ فضلًا أن قدّمها الله على البِكر فقال: (ثيباتٍ وأبكارًا).

قال مفصحًا عن حرجه الحقيقي:

- ولكنها شيعيةٌ وأنا شافعي!

هنا غضب أبوه وقال مستنكرًا:

- هل كان (محمدٌ) شافعيًا؟!

قال له:

- كلا.

قال له:

- هل كان محمد شيعيًا؟

قال له:

- كلا.

قال له في حسم:

- إذن تزوّجها، وإن قابلتَ ربك فقل له: ما علمتُ لنبيكَ مذهبًا!

فتزوجها ولم يتزوج غيرها، رغم أنها لم تنجب له، ولكنه أدرك أن الحب قد يكون مذهبًا.

رحل الناس، ورُفِع السماط، فدخل إلى قاعة الجلوس، ثم جلس وحده متفكرًا، قطع تفكيره دخول الطواشي وهو يقول:

- حضر (يوسف بن صدقة).

أشار إليه كي يدخله. فـ (يوسف) يحظى بمكانة كبيرة في قلبه. ومنذ مات الكاتب (صدقة)، لم ينقطع (علي) عن رعايته ورعاية أمه (ورد). ألحقه بالمدرسة الحافظية، ليتعلم اللغة العربية، وبعد أن أتقنها قراءةً وكتابةً، ألحقه بالعمل في ديوان البريد. وهي المهنة التي أحبها (يوسف) ووجدها الأنسب إلى طبعه، فقد كان يشعر بالراحة في العزلة، ومنحه ذلك العمل الفرصة كي يقضي ساعات النهار يكتب رسائله، أو في برج الحمام، يناجي الوُرْقَ ويلاعبه. دخل (يوسف) وكان يحمل في يده بطاقةً، أدرك (علي) أنها رسالة جديدة حملها إليه الحمام الزاجل. اعتدل في مجلسه في اهتمام، وقال له:

- هاتِ ما عندك يا (يوسف)!

قال (يوسف) في أسف:

- أصدر الخليفة (الظافر) مرسومًا بتعيين ناظر الدولة (ابن مصال) وزيرًا للدولة، ونعته بالسيد الأجل ليث الدولة!

تألم وجه (علي)، نعم تألم، وانتابه شعور بالوجع، وجعٌ يذكره بأنه مهما علا قدره في بلاط الخليفة الفاطمي سيظل دائمًا سُنيًا، لا يرقى لمنصب الوزير حتى وإن تربى في مصر وتعلم الجندية بين صبيان الحُجَر في القاهرة.

قال متهكمًا:

- ابن مصال!!

قال (يوسف):

- نعم يا سيدي.

تابع (علي) مستنكرًا:

- يولّي الوزارة كاتبًا مغربيًا أتى إلى مصر منذ عامين، وأنا الذي حملت على أكتافي أمر هذه البلاد خمسين عامًا، أحجب عنها؟!

صمت (يوسف) ولم يجد ما يقوله، انتظر حتى أشار إليه (علي) قائلًا:

- اذهب الآن، ولا ترد بشيء على تلك الرسالة.

* * * * *

(٢٧)

خرج (يوسف) من القصر وقد أوشك الظلام أن يحل، قطع الطريق الفاصل بين قصر الوالي ودار الحريم، ثم دلف إلى حديقة الدار. طلب من الخصي الذي يعرفه جيدًا، أن يخبر السيدة (ورد) أنه بانتظارها كي يعودا سويًا إلى دارهما في حي الروم. أجلسه الخصي في درقاعة جانبية للضيوف، ثم نادى على حبشية، كانت تحمل سطل ماءٍ وتتأهب لصعود الدرج، قائلًا:

- أبلغي السيدة (ورد) أن الكاتب (يوسف) بانتظارها في المضيفة.

جلس (يوسف)، وجفناه يرتجفان من وجع الرأس الذي صدعها إلى شطرين. تأتيه نوبات الصداع هذه من آنٍ لآخر ولا يُفلح معها سوى عشبة القنب الهندي التي يفركها أحيانًا على جمرة من الحطب ويتشمم بخورها،

أو يغليها في الماء ثم يشرب منقوعها. تعلم فائدة القنب الهندي من شاب من أصفهان زامله في المدرسة الحافظية بالإسكندرية. وكان يفزع إليها كلما اشتدت عليه نوبات الصداع. والآن تتريص به إحدى تلك النوبات، ويتمنى لو يعود إلى البيت سريعًا كي يستنشق عبيرها الأزرق. جاءت أمه، فأفزعتها صفرةُ وجهه. سألته:

- ما بك يا (يوسف)؟ هل أنت بخير؟

- أنا بخير. ألن تعودي معي إلى الدار؟ لقد حل الظلام.

- كلا، سأبقى هنا حتى الصباح إلى جوار (يوستينا).

لا يدري سرَّ محبتها لتلك الجارية التي صارت أقرب الناس إليها منذ حلت على الإسكندرية. هز رأسه المتخمة بالوجع، ثم قال:

- حسنًا، سأعود إلى الدار.

استوقفته قائلةً:

- هل أكلت؟

قال كاذبًا:

- نعم.

نظرت إلى وجهه الأصفر ثم قالت:

- لا أظن. انتظر.

دخلت إلى الدار وعادت بعد فترة وجيزة بصُرة من القماش بها بعض الفاكهة، وقالت:

- خذ هذا معك، ولا تنم بغير طعام.

أخذ الصرة ثم ودعها وانصرف. غادر أسوار حي الإمارة ثم اتجه غربًا نحو داره التي تقع في حي الروم بالقرب من الميناء القديم، سار على الطريق المعبّد بالحجر، وقد عجّت رأسه بالصخب. عاوده ذلك الشعور المخيف، حين تغادر الأفكار رأسه، وتسير إلى جواره مطمئنةً إلى استسلام عقله المنهك. ناوشته إحداهن فتخيلها جاريةً ترتدي غلالة النوم وتقف مرتكنةً إلى عمود النفط، وتقول له في خلاعة:

- يوسف! أيها المليح! أريد أن أسألك سؤالًا؟

تجاوزها وسار في طريقه وهو يصرف بصره عنها، يعلم تلك البداية التي لا تُحمد عقباها، لتبعته، فشعر بوقع خطواتها خلفه رغم أنها كانت تسير حافية القدمين، قالت له:

- لماذا تفر مني؟

أسرع الخُطا، وهو يحدق في البلاط الحجري، وكأنه يحصيه ببصره، قطعت طريقه فجأةً ووقفت أمامه قائلةً:

- قِف! أعلم أنك تخشاني وتخشى أن أسألك السؤال الذي يؤرقك!

انحرف يمينًا بعيدًا عنها ودخل مسرعًا إلى زقاق ضيق، فلمح واحدةً أخرى تقف على ناصيته، انضمت إلى صاحبتها وسارتا خلفه وهما يُطلقان كلماتهما كسهام ترشق في ظهره:

- أليس هذا هو (يوسف) الكاتب؟

- تقصدين (يوسف) البصّاص!

- على من يتبصص؟

- على قومه.

- مَن هم قومه؟

- لا أعلم.

- أمه قبطية.

- وأبوه ملكاني.

- وسيده سُنيّ.

- وخليفته شيعي.

- ودينه؟

- لا أعلم.

- يوسف أيها الزنديق أفتِنا:

- هل أنت مخلص للرب يسوع؟

- أم تتبع النبي محمد؟

- هل تحب عليًا؟

- أم تحب أبا بكر وعمر؟

- أم أنك تخون كل هؤلاء؟

- أجبنا يا (يوسف) حتى نستريح، من أنت؟!

استدار خلفه وقال صارخًا وهو يلقي عليهما بضُرَّة الفاكهة:

- كفى!

اختفيتا مع صرخته، فانتبه لنفسه، وكأنما أعادت إليه الصرخة وعيه. شعر بالحرج حينما فتح رجلٌ نافذةً تُطل على الزقاق ونظر إليه شذرًا لصراخه المتأخر في الليل. خرج من الزقاق إلى الشارع، فامتلأ صدره بعبق البحر البارد، دعاه البحر للجلوس فلباه. سار حتى وصل إلى حافة الشاطئ، فجلس على صخرة، ثم ضم فخذيه إلى صدره، غير عابئ برذاذ الموج الذي طال نعليه، ولا ببرودة الجو التي اخترقت رئتيه، نظر إلى أنوار شعلة الفنار التي انعكست على صفحة الماء، وتقاطعت معها أشعة القمر الذي اعتلى الأفق مستترًا خلف غلالات السحب، فهامت نفسه للبوح؛ البحر هو حافظ عهده وكاهن اعترافه الذي طالما ألقى إليه بشجونه، فكان ينصت إليه ويمنحه السكينة بغير رسم ولا عظة. حين أنجبته (ورد) لم تُعمّده في كنيسة أرثوذكسية، خشيت أن يغضب ذلك أباه (صدقة) الملكاني المذهب، فتركته بغير تعميد حتى يبلغ ويختار معموديته. وفي يوم من أيام الطفولة كان يسير قرب الفنار، فوجد جماعةً من الأطفال يرتدون ملابس زاهية، ويقفون مع شيخٍ على شاطئ البحر يغمرهم في مياه البحر للحظات ثم يُسلمهم إلى أهليهم، وقف في طابور طويل من الأطفال وأسلم نفسه ليد الشيخ الذي أمال جسده حتى غمر الماء أذنيه ورأسه، ثم قرأ عليه بعض العبارات وتركه. عاد إلى أمه في البيت مبتلًا وحكى لها ما حدث، قالت لأبيه مفزوعةً:

- اذهب لتعرف من الذي قام بتعميد ولدك؟

لكن أباه لم يحرك ساكنًا! العجيب أنه بعد أن كبر ظل يشعر بالانتماء نحو البحر الذي تطهر فيه، وكأنه هو الذي منحه الطهارة وليست كلمات الشيخ الذي لم يعرف هويته قط، حتى إنه قد تساءل يومًا بعد أن ارتدى ثوب

الشك: ماذا لو كان ذلك الشيخ مسلمًا صوفيًا، أو مجوسيًا فارسيًا أو حتى بهلوانًا هنديًا يعبث مع بعض الصبية في الماء!

صرخ بأعلى صوتٍ وهو مطمئنٌ أن صراخه سيبتلعه هدير الأمواج، قائلًا:

- قل لي يا سيدي القابع في الأعماق: من أنا؟

* * * * *

(٢٨)

دقّت ضربات النفير فوق أسوار المدينة مع بزوغ الفجر فوصلت إلى مخدع (يومستينا) التي لم تنم في تلك الليلة. قامت إلى مشرفية حجرتها، وفتحت مشبك كُوتها، ثم تطلعت إلى الجيش الذي تجمع في الميدان الكبير بحي الإمارة، وقد امتزج لغط الفرسان بصهيل الخيل وصرير الأتراس. اكتمل نور الصباح، فهالها شكل الجيش. لم ترَ جيشًا نظاميًا كاملًا من قبل. ربما رأت في حياتها بعض الجنود الفرنجة في حامية بلدتها طرسوس، ولكنها لم ترَ جيشًا نظاميًا كاملًا من قبل. ربما رأت في حياتها بعض الجنود الفرنجة في حامية بلدتها طرسوس، ولكنها لم ترَ هذا العدد الضخم من الجند من قبل. شعرت بالرهبة لمرأى الفرسان الذين انعكست على خوذاتهم أشعة الشمس فبدت كبيضات من الفضة، وقد انسدلت من أسفلها قلنسوات منسوجة من الحديد. كان الفرسان يُكبرون فتزلزل أصواتهم الأرض، وقد حمل بعضهم رماحًا وقسيًا، وحمل آخرون سيوفًا محدبةً وبلطاتٍ عريضةً كالفؤوس، وترفرف بينهم رايةٌ سوداءُ مشقوقةٌ، كعُقابٍ يفرد جناحيه في الهواء ويوشك أن ينقضّ على فريسته.

أثارت حوافر الخيل الرمال، وصنعت سحابةً صفراءَ سرعان ما انقشعت بعدما غاب الجيش عن ناظريها، فتركت مكانها وعادت إلى فراشها باكيةً،

وهي تندب حظها. فها هي الأيام تعاندها من جديد، وتضعها في مرمى عجلات القدر الساحقة بعدما استقام ظهرها. بصق (نصر) نطفته بداخلها ثم هجرها في الفراش، وكأنما أتم رسالته. تحملت بصبر أيام عمرها العجاف، التي تمر بغير حب، على أمل أن يكبر ولدها (الحسين) ويصير أميرًا في يوم من الأيام. فإذا بالحرب تقوم، ويخرج (علي بن السلار) ومعه (عباس) و(نصر) لقتال (ابن مصال) مقامرًا بمصيرهم جميعًا تحت أسوار القاهرة. قضت الأيام التالية وهي تشعر بالقلق يجثم على صدرها. لم يهوّن عليها هذا الشعور سوى خروجها إلى البحر كلّ يوم قبل الغروب. تقف على شاطئه، تملأ رئتيها برائحته وتتذكر أيام طفولتها بطرسوس. لا يزال بحر بلدتها يعلق بذاكرتها. تتذكر منه تلك الأمواج الهادرة، التي كانت تناطح الشاطئ، وتطغى عليه وكأنها تعاركه. أما هنا، في الإسكندرية، فتبدو الأمواج وديعةً هادئةً، يداعب زَبَدها رمال الشاطئ وكأنه يُخاتِلها كي يخطف منها حفناتٍ من الرمال يبتلعها في جوفه ويهرب. في إحدى المرات كانت على الشاطئ، فرأت شابًا يسير منفردًا نحو البحر قبل أن يصل إلى صخرة يغمرها الماء إلى منتصفها، ثم يجلس عليها وهو ينظر نحو الأفق بخشوع. تطلعت إليه وقد غفل عن كل شيء وكأنه يسبح في فضاء الكون وحده. عادت إلى القصر وصعدت إلى حجرتها، وجلست خلف شرفتها تنظر إلى الشاب الجالس هناك. فجأةً لمحته يقوم من مكانه، ويتجه نحو قصر الإمارة، ثم يقف متحدثًا إلى الحراس قبل أن يسير في حديقة القصر. تفكرت فيمن يكون هذا الشاب، الذي يشاركها محبة الاختلاء بالبحر وهل هو من أهل القصر أم لا؟ قطع تفكيرها دخول مربية ولدها (الحسين) وهي تمسك يد الطفل الذي يرفض النوم في فراشه، فاحتضنته وقالت لها:

«دعيه ينام في سريري».

فجرى الطفل ونام في سريرها سعيدًا. قالت للمربية وهي تشير من فتحة

المشرفية:

- من هذا الرجل الذي يطوف على الحرام؟

تطلعت نحوه للحظات، ثم قالت:

- هذا هو (يوسف بن صدقة)، ابن السيدة (ورد) يا سيدتي.

***

أيقظها الحماس مبكرًا. قررت أن تزور السيدة (ورد) في بيتها. لم تزَها سوى مرات قليلة خلال الأسابيع الماضية، بعد أن أصيبت بوعكة أرقدتها بمنزلها. شعرت بالضيق لأنها لم تزرها في البيت من قبل، وشعرت بالخجل أن يكون السبب في حماسها هو رؤية (يوسف) في الليلة السابقة. اغتسلت، ثم ارتدت ثوبًا من الخَزِّ الناعم، ووضعت على رأسها خمارًا من الحرير الأبيض ترصعت حواشيه بحبات اللؤلؤ، وزينت جيدها بياقوتة خضراء تدلّت حتى لامست نهديها، ثم وضعت عطرًا خزاميًا يُثير أريجُه البهجة. أبلغت وصيفتها أنها ستذهب لزيارة السيدة (ورد) في حي الروم القريب من القصر ثم اصطحبت خادمةً حبشيةً تعرف الطريق إلى هناك. سارت الخادمة أمامها تحمل صندوقًا به هدايا من العطور والقماش، حتى وصلتا إلى البيت. طرقت الباب، ففتحت لها (ورد). لم تعرفها في بادئ الأمر أو بالأحرى لم تتوقع أن تكون هي، ولكنها انتبهت لصوتها حين قالت:

- كيف حالك يا خالة (ورد)؟

استقبلتها بذراعين منبسطين، وضمتها إليها بقدر ما احتمل صدرها الواهن، وهي تقول في سعادة:

- كيف حالك أنتِ يا (يومستينا)؟

دلفتا من الباب، ووضعت الخادمة صندوق الهدايا، ثم انصرفت. جذبهما حديثٌ حميم، سألتها فيه عن حالها، فقالت برضا:

- الحمد لله يا (يومستينا)! كان الرب قريبًا بحفظه. أصابني الزحار، حتى كدت أفقد حياتي!

ربتت على يدها وهي تقول:

- لن ينسينا الرب فيك أبدًا يا خالة!

ابتسمت (ورد) وهي تقول لها:

- أراكِ مشرقةً كشمس الصباح.

- لأني قادمةٌ إليكِ.

ثم فتحت الصندوق وقالت:

- انظري ماذا أحضرتُ لكِ؟!

ضحكت (ورد) ضحكةً قصيرةً، وقالت:

- ماذا أحضرتِ يا (يومستينا)؟

أخرجت (يومستينا) ثلاثة ألوان من القماش، وهي تقول:

- أحضرت هذا، وهذا، وهذا أيضًا.

ثم أخرجت زجاجة عطر تفوح منها رائحة الياسمين، مخضت يدها بقطرات منه، ثم أدنتها من أنف (ورد) وهي تقول:

- هذا عطر من الياسمين الفرنجي.

ثم أخرجت قنينةً أخرى، فتحتها ثم تشمّمتها في نشوة قائلةً:

- أما هذا، فعطر خزامى! يسكرني كلما شممته وكأني شربت كأسًا من الخمر المعتّق!

ضحكت (ورد) كثيرًا، وقالت:

- ما كل هذا يا (يوستينا)؟ قد جاوز العمر الزينة والعطور!

ضحكت وقالت:

- سيُعيد إليك هذا الصندوق ما فات من عمرك.

في تلك اللحظة كان (يوسف) يفتح الباب، استقبلته أصوات الضحكات، ورائحة العطر التي فاحت داخل البيت. ابتسم للضيفة التي فوجئ بوجودها.

فقالت (ورد):

- هذه (يوستينا) جارية الأمير (نصر)، وأم ولده يا (يوسف).

رفع حاجبيه دهشةً، أو ارتباكًا، كان يظنها جاريةً بائسةً ألقاها القدر في سبيل (نصر بن عباس)، ولكنه وجدها امرأةً فاتنةً على غير ما تصوّر، امرأةً يتلألأ بريقها وكأنها خُلِقت من تراب الزُّهرة، تحت ضي القمر. فأفاق على ألم. كيف لهذا الجمال أن يطأه (نصر بن عباس) رغم كل ما سمعه عنه؟! مسكينةٌ أنتِ يا (يوستينا)، عشبةٌ أخرى انتزعتها يدٌ آثمة من ديارها، مثل أمه، ثم ألقتها في مياه النهر لملم حروفًا مبعثرةً أفلتت من شفتيه، وقال ما معناه:

- مرحبًا سيدتي.

أرخت أهدابها وهي تقول:

- مرحبًا يا (يوسف). أعرف السيدة (ورد) منذ ثلاثة أعوام، ولكني لم أرك قطّ من قبل!

ضحكت (ورد) وقالت:

- أنا أيضًا أراه بالكاد، يعشق البحر والحمام، ويقضي معهما النهار، ولولا مرضي لما عاد الآن!

قالت (يوستينا) وهي تتطلع إليه، وليس إليها:

- حفظك الرب له ولنا، ندعو لك جميعًا بالشفاء، فلا توجد امرأةٌ في دار الحريم لا تدين بالفضل لك يا سيدة (ورد).

ارتبك من نظراتها، ولكنه استجمع رباطة جأشه وانحنى قليلًا، ثم قال بصوت شعرت برنينه في جوفها:

- سررت بلقائك يا سيدتي!

ثم أولاها ظهره وانصرف.

***

عادت إلى القصر وصوت المؤذن الكفيف يعلو من فوق مئذنة مسجد الوالي القريبة من القصر بقوله: «حيّ على خير العمل»، دلفت إلى الحديقة، وخطت بخِفّة فوق عشبها الرطب، لمحت شجيرات السّوسَن المزهرة على جانبي المدخل، فابتسمت. التقطت زهرةً زرقاء وتشممتها، تعشق أناقة تلك الزهرة بكل ألوانها، ولكن الأزرق هو الأفضل بالنسبة لها. أخبرتها جاريةٌ أن السيدة (أم نصر) زوجة (عباس الصنهاجي)، طلبتها مرتين أثناء غيابها. صعدت الدرج المفضي إلى حجرة استقبال الحريم في الطابق العلوي. وجدتها تجلس متربعةً على أريكة موَسّدة من خشب الصندل، وقد

افترشت عجيزتها ثلثي الأريكة. حين رأتها أول مرة أدركت من أين أتى (نصر) بمؤخرته! وحين عاشرتهما أكثر اكتشفت أنه قد ورث كل شيء، حتى صوته الناعم، منها. حتى أن الوساوس تملكتها بعد أن أنجبت (الحسين)، فكانت تتحسس مؤخرته كل يوم وهو رضيع وهي تدعو الله ألا يثقله بميراث أبيه وجدته. انحنت قليلًا للسيدة الأم، وقالت:

- السلام عليكم يا سيدتي.

جاءتها كلمات السيدة الأم في جمل قصيرة حادة، وهي تقول:

- تتصرفين كجارية، وتزورين خادمةً في بيتها، وتتركين الأمير الصغير للخدم!

لم تفهم الكثير من كلماتها، فالمرأة لا تزال تتحدث بلحن أمازيغي لم يتغير رغم طول بقائها في مصر اعتزازًا بلغة قبيلتها صنهاجة، ولكنها كانت تفهم سبب غضبتها، أطرقت برأسها وقالت معتذرةً كي تنهي النقاش:

- معذرةً يا سيدتي!

تابعت السيدة الأم في الحدة ذاتها:

- لستِ أميرةً، حتى تعتني بولدكِ جاريةٌ مثلكِ! أنت هنا في القصر بسبب (الحسين).

فهمت عبارتها هذه المرة، وشعرت بإهانتها، ولكنها لم تشأ أن تفسد سعادتها بكلمات المرأة البائسة. هزت رأسها، وقالت في أسف محشوٍ بالكيد:

- أعدكِ ألا يتكرر ذلك، وسأعتني به حتى يصير رجلًا يُفتخَر به بين الرجال.

ثم تراجعت بظهرها خطوتين، واستدارت منصرفةً. دخلت إلى حجرتها،

فاستلقت على ظهرها فوق السرير وأرخت جفنيها وهي تتفكر في فتى أسمر واسع العينين، قال لها بصوت رخيم، ذلك الصباح: «سررت بلقائك يا سيدتي».

*****

(٢٩)

في مساء اليوم التالي كانت تنظر من مشرفية حجرتها، تتطلع إلى وهج الأفق الذي خلّفه قرص الشمس، وقد غاص لمنتصفه في البحر، تابعت بعينيها ذبول الشمس وهي تستحيل شفقًا شاحبًا، كعاشق متبول. لو تمنت شيئًا في تلك اللحظة لكان أن تسبح حتى تصل إلى الحد الفاصل بين البحر والأفق، لتجلس بالقرب من ذلك الشفق وتناجيه. حانت منها التفاتة إلى سور القصر فرأته يقف مع أحد الحراس عند باب القصر أرجعت البصر مرة أخرى، وهي لا تصدق. كان يقف وقد خلع عمامته وبدا شعره الأسود الناعم منسدلًا على كتفه. شعرت بحشاها ينقبض، نادت على وصيفتها، وأخبرتها بأن تسرع إلى حارس الباب كي يُخبر الكاتب (يوسف) بأنها تود إرسال كتاب عاجل إلى زوجها في القاهرة. ثم قالت وهي تستعد لتغيير ملابسها:

- دعيه ينتظرني في درقاعة الضيوف.

بعد قليل كان (يوسف) يقف في منتصف الدرقاعة، التي تتوسطها نافورة ماء صغيرة، ويغطي أرضها فسيفساء رخامية، وقد كسا سقفها وحوائطها خشب دمشقيٌ منقوش، وزُينت حوائطها بمسارج من زيت الزيتون. سبقها عطرها فداعب أنفه، قبل أن يتسلل إلى حواسه فيوقظها كلها مرة واحدة. استدار ليراها تقف فوق درجةٍ على مدخل الباب، وقد بدت في بياضها كتمثالٍ بديعٍ لأنثى من آلهة الرومان التي رآها في برابي الإسكندرية. تلألأت

الياقوتة الخضراء نفسها التي كانت تزين جيدها في الصباح بعد أن انعكس عليها نور المسارج. ولكن لمعة عينيها فاقت ضيّ الياقوتة، وهي تقول:

- مرحبًا يا (يوسف)!

أومأ برأسه وقال:

- مرحبًا سيدتي!

قالت وقد انتزعت حاجز التوقير فجأةً:

- دعِ الألقاب لأصحابها يا (يوسف)! أقول لأمك يا خالة، إذن فأنا ابنة خالتك!

أعجبه كلامها، ولكنه آثر أن يُعيد الحاجز كما كان، فقال:

- هذا مرتقًى يعلو قدري يا سيدتي.

ثم أردف:

- أخبرني الحارس بأنكِ ترغبين في إرسال رسالة لسيدي(نصر). أهو أمرٌ عاجلٌ نُرسله على أجنحة الحمام الزاجل الليلة؟ أم أمرٌ غير عاجلٍ نُوفد له رسولًا غدًا إلى القاهرة؟

جلست على أريكة، وأشارت إليه كي يجلس، ثم قالت وهي تتنهد:

- والله لا أدري يا (يوسف)! يحتار المرء أحيانًا فيما يريده، أهو عاجل أم لا؟ فما نراه عاجلًا قد يرجئه غيرنا! وما نرجئه أحيانًا قد يكون سببًا في إنقاذ حياة أحدهم.

جلس، ثم أخرج قرطاسًا وقلمًا وقال وقد قطب حاجبيه:

- أخبريني به يا سيدتي فلعلّي أساعدكِ!

قالت وهي تزفر في تنهيدةٍ حارة:

- ولهذا طلبتك يا (يوسف)، فليس لي أخٌ أستشيره، وقد تتحرج المرأة من أن تُفضي بسرها لامرأة أخرى، وأنت تعلم ما بين النساء من كيدٍ وميلٍ للنميمة.

تحيّر فيما تريد أن تقوله، فأنصت صامتًا، وقد تأهب بالقلم، فتابعت:

- قل لي يا (يوسف)، أيحق للمرأة أن تبوح بشوقها لزوجها، وتشكو له طول الهجر أم أن ذلك مما يَعدُّه الرجال نقصًا في النساء؟!

حطّ القلم من يده، وارتبك وجهه، وقال بصوت متردد:

- أهذا أمرٌ تبغين إرساله لسيدي (نصر) في رسالة؟!

قالت مستفهمةً وقد رفعت حاجبها الأيسر وأناخت الأيمن:

- أيعني سؤالك أنه ليس من حقها أن تفعل ذلك؟

قال وقد طفرت بعض حبات العرق على مفرقه:

- كلا يا سيدتي، ولكنه كلام يُباح به في المخادع وليس في رسائل البردي!

ضحكت ضحكةً ساخرةً، وقامت متجهةً نحو طاولة وُضع عليها إبريق من فضة يمتلئ بعصير الرمان، بجواره أقداح صغيرة، وقالت وهي تصب العصير من الإبريق في أحد الأقداح:

- أنت حتى لم تفهم السؤال أيها الكاتب!

ارتبك ولم يرد، عادت بالقدح ثم جلست بالقرب منه.

لثمت القدح بشفتيها، ورشفت منه ببطء ثم قالت لائمةً:

- أقول لك تشكو له طول الهجر فتقول لي تبوح بشكواها في المخادع؟!

ثم قالت بصوت ناعم خفيض، وهي تنظر إلى عينيه:

- ليتك تعلم يا (يوسف) قسوةَ أن تحتضن المرأة الفراغ في ليلها.

ثم أبعدت ناظريها وكأنها تفرّ من عينيه، وقالت:

- أتعلم يا (يوسف) أن الناس يقولون إن المرأة قد خُلقت من ضلع الرجل؟

هز رأسه وقال:

- نعم سيدتي.

قالت وقد أغمضت عينيها:

- أيكون هذا سببًا في شوقها الدائم إلى حضن تسكن إليه؟

ثم ملأت صدرها بشهيق عميق، ثم قالت:

- ليتني أجد ذلك الحضن، فأترك كل شيء وأتخذه موطنًا!

ثم فتحت عينيها ووضعت الكأس في يده، وقالت في حسرة:

- ولكن يبدو أني سأحيا كضلعٍ مبتور لا يجد له مأوى في صدر أحدهم.

قامت من مجلسها فقام هو أيضًا. كان قد سمع عن فضائح (نصر) من قبل، ولكنه لم يتخيل أن يسمع ذلك الكلام من زوجته، أثاره الحديث، رغم ارتباكه، فتشجع قائلًا:

- تعجبت حين أتى بالولد، رغم ما ردده الناس عنه!

قالت متهكمةً:

- وهل اشتراني أبوه إلا ليثير ذلك العجب؟

ثم أردفت في ندم صادق:

- لو علمتُ ذلك من قبل، لما تركت بلادي وأتيت إلى هنا!

رفع حاجبيه دهشةً، وقال:

- هل جئتِ إلى هنا بملكِك؟

قالت متحسرةً:

- ظننتُ أني سأجد مرفئي وسأحيا في كنف أميرا

قال مستنكرًا:

- تبيعين نفسكِ كجاريةٍ باختياركِ!

قالت ساخرةً:

- جاريةٌ منعمةٌ في قصر أمين خيرٌ من حرةٍ ذليلةٍ بأسر الفقر

قال مذهولًا:

- وأهلك؟

عقدت حاجبيها:

- ما لهم؟

- تغادرين جذوركِ وتعيشين وحيدةً!

- نقول في طرسوس إن فسيل الشجر لا يثمر في ظل أمه.

- وبلادك؟

- لا يعنيني منها إلا بيتٌ أعيش فيه، وحبيبٌ أرافقه.

- عجيبٌ أمر النساء!

- ما العجيب فيه؟

- يتحملن هموم الدنيا، وتحطمهن هموم العشق!

اقتربت منه أكثر من أي لحظة سابقة، ونظرت إلى عينيه ثم قالت:

- لأنك لم تعشق يا (يوسف)!

ثم وضعت يديها على كتفيه وقالت في صوتٍ منكسر ولكنه وجد فيه إغواءَ الدنيا مجتمعًا:

- لو كانت الحياة عادلةً، لكنتَ أنت الأمير وأنا جاريتك.

غمره عبير شعرها، وسقط قلبه بين نهديها، ودّ لو يحيط خصرها بيديه، ولكنهما أبتا. شعر بفورة جسده تثور وتحول بينهما، تراجع أقل من خطوة، فسحبت يديها، ثم قالت وهي تمسح دمعةً سالت على وجنتها:

- يكفي الآن يا (يوسف)، أظن أني لن أرسل بالرسالة اليوم.

* * * * *

(٣٠)

كان يقضي يومه متنقلًا بين برج الحمام، وقصر الوالي، يتلقف كل حمام زاجل يصل إليه برسالة، خاصةً من عند (نور الدين محمود) الذي كان يتابع الوضع من دمشق، فيجمع مختصر الرسائل جميعها في صحيفة بردي

واحدة، ثم يبعث بها مع رسول إلى سيده الذي يحاصر القاهرة بجيشه.

دخل إلى مكتب الإنشاء في قصر الإمارة في نهاية يوم مرهق، ولم يتبقَّ من سنا الغروب، سوى بؤرة صغيرة ملونة، عبرت من النافذة ذات الزجاج الملون على الحائط المقابل له ثم سقطت على حائط مكتبه. أضاء مصباح الزيت ثم أغلق الباب، وجلس على المكتب، فتح صحيفةً من البردي، وغمس الريشة في الدواة، وهمَّ أن يكتب حينما سمعت أذنه صوتَها وهي تقول:

- انتظرتك طويلًا يا (يوسف).

ارتبك، فألقى الريشة. رآها تجلس على أريكة، أسفل النافذة الملونة، وقد جمعت شعرها من كل اتجاه ثم عقدته كالتاج فوق رأسها، فبدى الشعر -وهالة الضوء من حولها- كرأس أميرة بيزنطية، تحيط بها هالة القديسات. قام من جلسته وقال:

- معذرةً سيدتي، ما علمت بوجودك.

أمالت رأسها للخلف فبدا جيدها أملسًا وضّاحًا، كمزهرية من العاج تتلوى في انسياب، وهي تقول:

- وهذا ما يحزنني يا (يوسف)، أنك لا تعلم بوجودي.

ابتلع ريقه، ولم ينطق. تناولت برديةً بجوارها وأمسكت بها وقالت:

- حتى رسالتي غفلت عنها، فكتبتُها بنفسي.

ثم أشارت إليه كي يأخذها دون أن تمد يدها، وكأنها تدعوه للاقتراب. سار نحوها، ومد يده كي يتناولها، فسحبتها، وأفسحت له مكانًا بجوارها، وقالت:

- اجلس يا (يوسف)، أريد أن آنس بقربك.

تردد قليلًا ثم جلس، أعطته الرسالة، وقالت له:

- اقرأها يا (يوسف)، أريد أن آنس بصوتك.

فتح الرسالة وشرع يقرأ شعرًا لم يسمع به من قبل، ولكنه أثار فؤاده وأثار مدامعها حينما قرأه بصوته الرخيم:

يا سيدي اعذُر في الهوى قَلْبي

فما حيلتي بينَ الهجرِ والذنبِ؟

أحلالٌ مَنْ تعافُ النفسُ مَعْشرَه

وحرامٌ مَنْ يُنيرُ بوَصلهِ دَربي

فإن كان هَجْرُ الذنبِ مَكْرُمةً

فكَرَمُكَ حَلُّ الإثمِ عن ذَنْبي

قال مندهشًا:

- أهذا كلامكِ؟

أومأت برأسها، وقالت:

- نعم، شكوت للرب بدلًا من أن أشكو إليك.

- وكيف تكتبين الشعرَ بهذه البلاغة؟

- وهل سُمِّي الشعر شعرًا إلا لأنه فيضٌ من الشعور؟ اللسان يا (يوسف) لا يعجز عن النطق بما يشعر به القلب.

ثم أمسكت بيده ووضعتها على صدرها، وقالت:

- وقلبي لا يشعر إلا بشيءٍ واحد، هو الأنس بقربك يا (يوسف).

طوحت لمسةُ صدرها به عاليًا. تأرجح بصره بين زهور فتنتها والباب الموصد. دعته شفتاها كي يلثمها، وانحنى جيدها كمهرةٍ تدعو راكبها. أحاطت خديه بكفيها فحلّق معها إلى السماء، ثم غمرته بزرقة عينيها فغاص معها في لجّتها، وقالت:

- لا تتركني يا (يوسف) تحت رجُلٍ لا أريده.

- منحتِهِ نفسكِ باختيارك.

- وأمنحكَ نفسي باختياري الآن.

- لستِ حرةً!

قامت وفكّت عقدة شعرها، فانساب شعرها كشلال من ذهب، وقالت:

- أنا حرّة، فهل أنت حرّ؟!

خفق قلبه، وقال مترددًا:

- (يوميتينا)! أنت لا تدرين العاقبة!

أمسكت يديه وأوقفته أمامها وهي تقول:

- أي عاقبة يا (يوسف)، عجبتُ لقلبك يقسو على محب، ويرقّ لظالم!

ثم أدنت وجهها منه وقالت وهي تلفحه بأنفاسها:

- قلتُ لك لو كانت الحياة عادلةً، لكنتُ أنا جاريتك وأنت أميري.

أثارته كلماتها أكثر من ذي قبل، فتابعت وهي تمسح شعره بكفها، وتهبط

بها على جيده:

- ثُر يا (يوسف)! ثُر لأجلي ولأجلك.

أفلتت كلماتها غرائزه المكبّلة لسنوات من قيودها، فاحتضنها، شعر بجسدها اللدن يذوب بين يديه، قبّلته فثارت مشاعره أكثر ضمها حتى تبوأت موضعها بين أضلعه. وبينما كانت روحها تفنى نشوةً، غشيها هدير كهدير الموج في بلدتها (طرموس)، أطفأ نار شوقها، فقرّت عينها ورقدت إلى جواره على أرض المكتب في سلام.

* * * * *

(٣٠)

صار لقاؤهما مبتغاها في كل يوم. تنتظره في شغف، فيقتنصان من اليوم لحظات، يتبادلان فيها الشوق خلسةً بعيدًا عن أعين الحراس. أزهر قلبها العاشق بشقيا الحب، وحلّقت كفراشةٍ في فضائه، لا يعنيها من العالم سوى تلك اللحظات التي تجمعهما سويًا. حتى كان ذلك اليوم الذي اخترق فضاءهما ذكر حمام زاجلٍ يحمل تحت جناحه رسالةً تقول:

- أصدر الخليفة (الظافر) مرسومًا بتعيين (علي بن السلار) وزيرًا للدولة، ومنحه لقب الوزير (العادل ابن السلار).

الأفراح التي كانت تنطلق في شوارع الإسكندرية لم تصل إلى قلبها، المزاهر والقناديل التي سُرّجت بها الدور، وتدلّت من فوق قبة المدرسة الحافظية ومئذنتها، لم تمنع سحابة الخوف من أن تمطر في أرضها الآمنة. فقد أزعجتها حمامة (يوسف) وفرحته بفوز (ابن السلار). خرج من عزلته التي كانت تحبها، أقام الأسمطة وموائد الاحتفالات، بأمر من (علي بن السلار)، وصار معروفًا بين المشايخ والتجار الذين أتوا للتهنئة، ولسانه

اللبق، جعلهم يتساءلون عن هذا القبطي، الذي ينوب عن الوزير (علي بن السلار) في إقامة الاحتفالات. فوجئ بها أمامه في دهليز القصر فارتبك، فتح قاعةً، ثم أغلق بابها في سرعة بعد أن دلفا إليها. جلس معها في ركن منزوٍ حتى لا يراهما أحد من الحراس، فقالت له لائمةً:

- أصبحت لا أراك إلا عابرًا.

حضنها ببصره وقال معتذرًا:

- الاحتفالات لا تنقطع.

نظرت إلى عينيه وقالت:

- قل لي يا (يوسف)، هل ما بيننا خِلسةٌ من النعيم وحُلمًا سينقضي، أم أنه عشقٌ لا يفنى؟

صمت قليلًا ثم قال:

- ماذا تعنين؟

- اقتربت عودة (نصر).

صمت متفكرًا، ولكنها قالت في حسم:

- لا يمكن أن أعود إليه.

قال في انزعاج:

- ماذا تقصدين؟

قالت بصوتٍ منخفض:

- دعنا نهرب يا (يوسف).

- نهرب؟

- نعم، معي من المال ما نذهب به إلى (طرسوس)، أنا وأنت.

- ماذا تقولين؟

- الأمر ليس صعبًا، نصل إليها عن طريق البحر في خمسة أيام.

- الأمر ليس بتلك البساطة يا (يومتينا).

- لن أستطيع الحياة بدونك يا (يوسف).

- وولدكِ؟

- أتصدقني إن قلت لك إنك أغلى عندي من ولدي، الذي هو أغلى ما أملك؟

أدار بصره عنها وقال:

- وأمي؟

كانت تتمنى أن يقول: (وأنتِ أيضًا). ولكنها قالت رغم شعورها بالخيبة:

- تلحق بنا بعد ذلك، المهم أن ندبر أمرنا أولًا.

هز رأسه وقال:

- مستحيل!

- وكأنك لا تحبني بالقدر ذاته؟

- أحبك، ولكن..

- ولكن ماذا؟

- لستُ مثلك، يقينك في الحياة يدهشني، من أين أتيتِ بتلك القوة؟

- منك أنت!

- كيف وأنا أدهش من كلامك؟

- لأنني وجدت غايتي في حبك.

- الحب ليس كل شيء!

اعتصر الألم قلبها، وشعر هو بسوء قوله فقال معتذرًا:

- اعذريني يا (يوستينا)، لن أستطيع أن أرحل. قلبي معلّق بأمي، وبتلك البلد.

شعرت بانقباض في بطنها، تقلص وجهها، ونظرت إلى عينيه طويلًا ثم قامت قائلةً:

- ليتني قابلتك في أرض غير الأرض وزمن غير الزمن يا (يوسف)!

***

عاد (علي بن السلار) و(عباس الصنهاجي) إلى الإسكندرية، بعد أن استتبّ الأمن ليحتفلا وسط أهالي الثغر بالنصر. تزينت الشوارع وخرج الناس إلى الميادين بالآلاف يستقبلونهما استقبال الفاتحين. دقت الدفوف، وارتفعت المزاهر ورفرفت رايات بني العباس السوداء، جنبًا إلى جنب مع رايات آل البيت الخضراء، في تحدٍّ سافرٍ لخليفة القاهرة. سار تلاميذ الشيخ (أبو طاهر السِّلَفي) شيخ المدرسة الحافظية في الشوارع يكبرون، ويرددون الأذان مسقطين (حي على خير العمل) منه عمدًا. وكأنهم يعلنون أن الإسكندرية قد صارت دولةً سُنيةً، داخل الدولة الفاطمية.

لم يشعر (يوسف) بسعادة مثلما شعر في تلك الأيام. شعر بوطأة قدميه على الأرض، ورأى آثار أقدامه على ترابها لأول مرة. خلع حلّة الحذر التي ارتداها طيلة عمره، وسار بين الناس، أكثر إدراكًا لوجوده بينهم. تمنى لو امتطى حمامًا زاجلًا وطاف به في سماء الإسكندرية، بل في سماء مصر كلها، كي يلقي على أرضها برسائل المحبة والسلام الشيء الوحيد الذي كان يضايقه أنه لم يعد يرى سيده كما كان يراه من قبل فلا تكاد تخلو ساعة من النهار من غير زائر أو مهنئ له في مجلسه. مرّ على مجلس سيده، بعد صلاة العصر وهمّ أن يدخل، ولكن الطواشي أخبره بأن (علي بن السلار) يجلس إلى الشيخ (أبي طاهر السِّلَفي). تعجب من ترك الشيخ لعموده في المدرسة الحافظية، ومجيئه إلى القصر لأول مرة منذ أتى إلى الإسكندرية. ولكنه يعلم -على أية حال- الصداقة بين الشيخ و(علي بن السلار). همّ أن ينصرف، ولكن الطواشي قال:

- سيصدر سيدي الوزير مرسومًا باسم والي الإسكندرية الجديد.

ثم غمز بعينه وهو يقول ضاحكًا:

- ولربما اجتمع بـ (أبي طاهر السِّلَفي) كي يستفتيه في جواز ولاية القبطي.

رغم مزحة الرجل الواضحة، انتشت نفس (يوسف) للكلام، ولوهلة شعر بأن الأماني ممكنة. ألم ينوبه (علي بن السلار) في غيابه؟ ألم يستأمنه على بريده وديوان الإنشاء في وقت الحرب؟ لقد تولى القبط منصب الوزارة أكثر من مرة منذ أتى الفاطميون، فليس ببعيد المنال أن يتولى أحدهم منصب ولاية الإسكندرية. مرّ على مكتبه في ديوان الإنشاء، فوجد قصاصة بردي مكتوب عليها: «إن لم تسعنا الأرض، وسعنا الزمان، وإن لم يكن الآن، فسيأتي أوان».

أدرك أنها من (يوستينا)، وتعجب كيف وصلت رسالتها إلى مكتبه. طوى الرسالة ووضعها في جيبه، في ضيق وخوف من أن يكون أحدهم قد رآها. خرج إلى الحديقة، فألقى ببصره نحو دار الحريم، وخُيِّلَ إليه أنه يرى ظلها خلف مشرفية حجرتها، ولكنه صرف بصره بعيدًا حينما لمح حارسًا يقف في الحديقة، ويتطلع إليه. اقترب من حي الروم فوجد جوقةً من النصارى يدقون الصنوج والطبول ويحملون سعف النخيل ويتغنون ببعض الترانيم وهم يلقون بالحمائم في السماء، فانتبه إلى أن غدًا هو أحد الشعانين فاستبشر خيرًا واتجه إلى بيته.

* * * * *

(٣٢)

نام كما لم ينم من قبل، هدهدته الأماني في حِجرها حتى غاب بين طيات الأحلام المخملية الناعمة، واستيقظ وشعورٌ بالخمول لا يفارقه. غسل وجهه من طست الماء، ثم ارتدى جلبابه وعمامته، واستعد للخروج، فوجد أمه تجلس، ويبدو على وجهها القلق، سألها متعجبًا:

- خيرًا يا أمي!

قالت مرتجفةً:

- اختفت (يوستينا) من القصر!

أيقظت عبارتها عقله الذي كان لا يزال تحت تأثير أحلام الأمس، فقال:

- كيف؟

- استيقظوا في الصباح فلم يجدوها، ووجدوا الفِراش خاليًا ولا أثر لها في القصر!

خفق قلبه بشده، فجلس على الأريكة، وقال:

- قد تكون خرجت لبعض شأنها؟

- هذا ما أتمناه.

أحاط وجهه بكفيه وزفر غير مصدق، قائلًا:

- مستحيل، ليس اليوم يا (يومتينا)!

قالت أمه متعجبةً:

- هل تعلم شيئًا يا (يوسف)؟

أجابها في حزن:

- ليتني أعلم يا أمي، ليتني أعلم!

ثم قام من مكانه، وفتح الباب، فسألته وهو يخرج:

- إلى أين يا بني؟

قال وقد انطفأ حبور الصباح في وجهه، وعلاه الهوس:

- سأتحسس من أخبارها يا أمي!

ذهب إلى القصر وسار بالحديقة. وقف بالقرب من دار الحريم، ألقى ببصره نحو حجرتها، وتذكر ظلها الذي كان يرنو إليه في اليوم السابق، لاحظه أحد الحراس فسأله:

- هل ترغب في شيء أيها الكاتب؟

قال:

- كلا.

ثم دلف إلى مكتبه في الديوان، وانهار على كرسيه وقال:

- اللعنة يا (يوستينا)! لماذا اخترتِ أوعر الطرق، وأكثرها حمقًا؟

قد لا يهتم الناس بهروب جارية من قصر أميرها، ولكنها أم ولد، وسيهدر (عباس) دمها لا محالة. تمنى لو يجدها قبل أن ينتشر الخبر حتى لا تثور الأقاويل ويناله نتفًا منها. تذكر أنها اقترحت عليه الهرب عن طريق البحر فخرج من القصر واتجه نحو الميناء. سار بين زحام الناس يتأمل في الوجوه لعله يجدها، ثم عاد بصخب في أذنيه من ضجيج الناس والسفن، أنذره بنوبة من الصداع اللعين الذي يعاوده حين يسحقه القلق. جلس على سور حجري قصير بالقرب من كنيسة القديس مرقص، دقت أجراس الكنيسة، فخطر له أن تكون بالداخل، فاليوم يوم عيد. صعد الدرج، ثم دلف من باب الكنيسة في وجل، وسار في صمت وخفوت، جلس وعينه ترقب بضعة نسوة لم يجد من بينهن (يوستينا). هبط الدرج يائسًا مجهدًا من كثرة السير ثم عاد إلى القصر وأذان الظهر يعلو في السماء. دخل إلى قصر الإمارة، بحذاء متربّ وقدم أرهقها السير. فوجئ بحديقة القصر تزدحم بالأمراء والمشايخ، وهم يتبادلون الحديث والضحكات، وكؤوس الرمان تدور بينهم، سار وكأنه طيف لا يراه أحد، وإذا مست يده كتف أحدهم، نأى بكتفه كي يفسح له الطريق، دون أن يهتم بالنظر إليه، وصل إلى باب القاعة بصعوبة فإذا بالطواشي العجوز يقف عند مدخلها ويقول له:

- إلى أين يا (يوسف)؟

قال له:

- أريد أن أرى سيدي (علي بن السلار)!

قال الطواشي:

- رحل الوزير (علي بن السلار) إلى القاهرة، بعد أن أصدر مرسومًا بتعيين سيدي (عباس الصنهاجي) واليًا على الإسكندرية.

***

حلّ الليل فأسدل سكونه، وخلت الطرقات من المارة، إلا من أناس تأنس إلى بهجة السكون. أما هو فكان يسير برأس تترنح بضجيج اليوم الذي حمل هموم العمر كله دفعةً واحدة. ترك الطريق وسار نحو صخرته الأثيرة على الشاطئ أمام الفنار القديم. بدت أسوار المدينة خلفه وكأنها قد ازدادت علوًا حتى حجبت ضوء القمر وغمزات النجوم. تراءت له أحداث اليوم كومضاتٍ لها دويّ، تخطف الأبصار، وتصم الآذان. ضحكات الأمراء وهم يتبادلون كؤوس الرمان، فرحة (عباس الصنهاجي) بالولاية، وجوه المشايخ التي ملأت الدار وهم ينظرون إليه خلسةً، وأخيرًا: ظِلّ (يوستينا) البائس وهي ترنو إليه من خلف النافذة. بكى صارخًا حتى اهتز لصراخه الموج، ترنح جسده من فوق الصخرة، فسقط على جانبه ككتلةٍ واحدة، جامعًا أطرافه كلها حول صدره، وقد لامس خده الرمال، وسالت دموعه بين حباتها. خُيل إليه أن زبد البحر يومض كحبات الفيروز. فجأةً رأى جسدًا يخرج من بين الزّبد وكأنه يصعد على درج خفي، اقترب الجسد منه فتذكره. لا يزال كما هو، يرتدي الجلباب الأبيض القصير والبنطال المرفوع حتى ركبتيه حتى لا يبتل، رغم أنه يسير في الماء ولا يبدو عليه أثر البلل. قال له بفم ممتلئ بالدموع والرمال:

- تأخرت عليّ كثيرًا يا سيدي.

لم يرد عليه، بل مال نحوه ثم حمله بين ذراعيه، مسندًا رأسه على ساعده، وكأنه طفل رضيع. غمره في الماء فارتجف، من شدة البرودة، كررها ثلاثًا،

حتى شعر بالماء يتقطر من قلبه، وليس من رأسه وجسده. رفعه من الماء بعد الثالثة، ثم عاد به إلى الصخرة، فوضعه فوقها برفق، وانصرف. لم يدر (يوسف) كم من الوقت مرّ حتى وجد نفسه أمام باب منزله مرةً أخرى، يقف أمام أمّه مبتلًا وهي تشهق في ذعر.

* * * * *

(٢٣)

استيقظ على طرقٍ يكاد يخلع الباب، قام وهو يشعر برأسه تصيح ألمًا، وجد عشبة القنب إلى جواره فتعجب، كيف جاءت؟ ومتى أحضرها؟ حاول أن يقوم من رقدته، فمادت به الأرض، فعاد للجلوس مرةً أخرى. نادى على أمه فلم ترد. استند على الحائط بيديه وخرج ليفتح الباب، استقبلته لطمةٌ على وجهه أطاحت به، ويدٌ مفتولةٌ تدير ذراعه خلف ظهره. صرخ ألمًا وهو يشعر بكتفه تنخلع من مكانها. رفع رأسه فوجد ثلاثةً من حراس القصر أمامه، تذكر وجه أحدهم، كان يعامله بلطف من قبل، ولكنه فوجئ به يقول:

- هيا أيها العاهر! فقد آن وقت العقاب.

أمسكه آسره من شعره، ودفعه بركبته في ظهره فسار بغير مقاومة.

وصل إلى قاعة الجلوس، فوجد (عباس الصنهاجي) يجلس على كرسيه، تبدو ساقاه الطويلتان كساقي إله من آلهة الرومان. دفعه آسره أمام قدمي الوالي فسقط ساجدًا. رفع رأسه وتلفت حوله، اتسعت عيناه حين وجد أمه تقف في ركن الحجرة باكيةً. خرج صوت (عباس) قويًا مهولًا وكأنه يأتي من فوق سبع سماوات، وهو يقول:

- شهد عليك أربعة حرّاس بأنك زنيت بجارية في القصر.

ارتجف ولم ينطق، فتابع (عباس) وقد أثاره صمته:

- شهادة أربعة حراس تكفيني لقتلك، ولكني أتيت بك إكرامًا لتلك المرأة حتى لا تظنّ بي الظلم. فأجب، هل أتيت بالفاحشة في القصر أم لا؟

نظر نحو أمه التي كانت تتصدع باكيةً، فانفطر قلبه على بكائها، وهو لا يدري أيقتله حزنها، أم شعوره بالخزي أمامها؟ رفع رأسه نحو السماء لائمًا، يا لَعبث الحياة! كان يتمنى أن تتاح له الفرصة قبل موته كي يلقي خطبة وداعه، فإذا بها خطبة عارٍ من كلمة واحدة: «نعم». قالها بحروف مبعثرة، ولكنها كانت كفيلةً بأن تشقّ صدر أمه، فسقطت متهاوية. بينما قال (عباس) غاضبًا:

- اللعنة عليك! والله ما وددتُ أن أبدأ ولايتي بقتل رجلٍ من رجال القصر ولكن مثلك يستحق أن يكون عبرةً لمن يعتبر.

ثم أشار إلى حراسه، وقال:

- فليصلَب هذا الخائن أمام باب القصر ثلاثة أيام ثم تُضرب عنقه، ولتُقتل الجارية الخاطئة أينما وُجدت.

***

ارتفع جذع النخلة الذي شُدّ إليه جسده نحو السماء. إنسانٌ خاطئ، محمّل بالخزي لا يبحث عن الخلاص لنفسه أو لغيره، يرنو من فوق صليبه إلى أرض كان يتمنى أن يرى أثر أقدامه عليها، فتعلقت أقدامه في الهواء، وتعلوه سماءٌ لا مكان له فيها، بعد أن صار ملعونًا بشهادة الجميع، مسلمين ومسيحيين، سُنة وشيعة، روم وقبط. عاش حياته مرتديًا ثوب الشك،

واليوم يموت ولديه يقينٌ واحد: أن الحياة عبثٌ لا تستحق أن تُعاش، والإنسان في هذه الحياة كخيال الظل، فهل هناك أثرٌ لخيال؟ كل المستيقنين كَذَبَةٌ، واليقين الوحيد في هذه الحياة أنه لا يقين!

ليلة واحدة من الصَّلب تكفي، فلماذا ثلاثة؟ تخفُّ أوجاع الجسد بعد أن يتجاوز الألم الحدَّ، ويهدأ الروع بعد أن يبلغ الخوف منتهاه، وتشرق شمس اليوم التالي على جسد مصلوب ينبض بالدماء، وليس بالحياة. مما لا شك فيه أن طول المدة يؤذي السائرين على الأرض، وليس المعلقين في السماء.

ولكن في حالته كان الأمر مختلفًا، فقد كانت الأيام الثلاثة فرصةً لاستعادة الحياة. ففي اليوم الثالث جاء مرسومٌ من (علي بن السلار) بالعفو عنه، دون أن يعرف ما حدث. فبعد أن نطق (عباس) بالحكم، ذهبت (ورد) إلى بيتها، دلفت إلى حجرتها بسرعة، وتناولت عهد الأمان الذي كتبه لها (علي بن السلار) من تحت وسادتها، ثم رحلت إلى القاهرة. نعم رحلت، وهي المرأة التي لم تغادر الإسكندرية قط منذ دخلتها! لا تدري كيف فعلتها، ولكنها وصلت إلى القاهرة في ليلة وضحاها، بعد أن دفعت للمكاري عشرة أضعاف ما يستحق. ردها الحراس عن الدخول إلى قصر الوزارة بالقاهرة، ولكنها استماتت حتى دخلت. انزعج (علي بن السلار) لرؤيتها، وانزعج أكثر حين وضعت أمامه عهد الأمان الذي كتبه لها وقالت:

- أعود جاريةً تُباع وتشترَى ما تبقى لي من عمر وتعتق (يوسف)!

سألها عمَّا حدث، فأجابته بخزي، ثم بكت طويلًا طالبةً الرحمة. صمت وهو يشعر بالحزن والغضب، حزن على (يوسف) الذي كان بمثابة الولد له، وغضب من خيانته التي لا تغتفر. صمت طويلًا، ثم نادى على قاضي المالكية، رغم أنه شافعي المذهب. ولكنه كان يعلم حكم المالكية فيما يريد. مكث مع القاضي طويلًا، ثم كتب مرسومًا إلى (عباس الصنهاجي) من

عبارة واحدة: «كفى القبطي تعزيرًا أن قمتُ بصلبه، أما الجارية فإن عثرتَ عليها فاجلدها نصف ما على المحصنات من عذاب، ولا تفضحها». ثم نادى على رسوله، وقال:

- أسرع بهذا المرسوم إلى (عباس الصنهاجي) قبل أن ينفذ حكمه.

ثم قال لـ (ورد):

- اسمعي يا (ورد)، ما كان مني من عهد فهو لكِ، أما ولدكِ فقد تبرأتُ منه ولا عهد له عندي بعد اليوم!

***

حين حمله بعض الكَتَبة من زملائه إلى بيته، كان جسده كقطعة لحمٍ جُففت في ملح النطرون، استعدادًا لتحنيطها. أعادوه إلى فراشه بارد الجسد، غائر العينين. غسلت وجهه بالماء وهي تتمتم بالدعاء والشكر أنه لا يزال حيًا، أسقته الماء، ومع كل رشفة تُصلي بدعائها الأثير: «يا ربّ إليك صرخت». مرت ساعات ورأسه على بطنها، تمنحه الرشفات في فمه رويدًا رويدًا وكأنه عاد جنينًا في رحمها. حتى ندت منه حركةٌ كركلة الجنين في بطن أمه، فرقص لها قلبها فرحًا. استمرت في ذلك حتى اطمأنت إلى أن أنفاسه قد صارت دافئةً، فنامت جالسةً، ورأسه في حِجرها. وحين تسلل نور الصبح من النافذة، فتح عينيه فأدرك أنه لا يزال حيًا وأنه ينام في حجرته، بين ذراعي أمه، فبكت عينه الجافة بغير دموع، وهو يشعر بالامتنان لقوةٍ ما أعادته إلى الحياة بعد موت.

في الأيام التالية استعاد بعضًا من عافيته، أصبح قادرًا على السير على ساقيه النحيفتين خطوات قليلة، كدُمية من الخشب تُحركها الخيوط في لعبة خيال الظل. اضطر أن يستند إلى عصًا حتى لا يختل توازنه فيسقط.

خرج من باب الحجرة لأول مرة، فوجد أمه تجمع حاجيات البيت في صناديق. سألها متعجبًا:

- ماذا تفعلين يا أمي؟

فرحت أمه بخروجه من الحجرة، أسندته حتى جلس على أريكة. ثم قالت وهي تكتم حزنها:

- سنرحل يا (يوسف) عن الإسكندرية.

شعر بالألم، ثم قال في حزن:

- ألحقتُ الخزي بي وبك يا أمي.

قالت وهي تربت عليه:

- لا بأس يا بني، الكل خطّاء، ليتك تطلب الغفران.

هزّ رأسه، وكأنه يوافقها، ولكنها لم تعلم إن كان يوافقها على أن الكل خطاء أم على طلب الغفران. سألها:

- إلى أين نرحل؟

- إلى الفسطاط.

- هل أمرك الوزير (علي بن السلار) بذلك؟

لم تخبره أن الوزير (علي بن السلار) قد تبرأ من كفالته،ولم تخبره أيضًا أن (عباس الصنهاجي) قد أمهلها أسبوعًا حتى يرحل ولدها عن الإسكندرية، وإلا أهدر دمه، ولكنها قالت:

- كلا، ولكن أصبح لزامًا علينا أن نغادر حياة القصور.

رغم الألم الذي كانت تتحدث به، لم يشعر بالسوء أنه سيغادر الإسكندرية؛ فليس من السيئ أن يبدأ الإنسان حياةً جديدةً في أرض جديدة، ولا مانع من أن يمزق المرء صفحاتِ العمر المهترئة إذا عجز عن أن يطويها.

بعد يومين كان يقف في حجرته بغير عصا، يضع ملابسه وكتبه في صندوق كبير، ولم ينسَ أن يدسَّ كيسًا من الجلد به أعشاب القنب الجافة بين طيات الملابس. عاونه المكاري في حمل المتاع فوق عربةٍ يجرها حصانان، بينما أجلس أمه في هودج محمول على ناقة. وقبل أن يركب إلى جوار المكاري وضع قفصًا به آخر ما يربطه بالإسكندرية: زوجان من الحمام الزاجل، أطار رفاقهم من برجه.

وبينما كان الركب يغادر أسوار الإسكندرية، ألقى ببصره نحو البحر والفنار فشعر بالوجد لفراقهما، ولكنه مع ذلك كان يغلبه شعور لم يختبره من قبل، شعور اسمه الخلاص.

***

رسالة (يوستينا) الأولى

الوطنُ وثنٌ مُقدّس تُزهَق تحت أقدامه أرواحُ القرابين كي يستجيب، فلا يُجيب. وهمٌ يصنعه كاهنٌ ليبقي سلطانه على رؤوس البسطاء. ليتك يا (يوسف) تعلم أني قد كفرت بكل الأوطان، إلا أنت! ليتك يا (يوسف) تعلم أني قد خُلقت لأجلك، وكي أحيا بين ثنايا أضلعك. قرباني هو روحي التي تفديك، وكاهني هو قلبٌ متيم بهواك. أعلم أن الأوطان جميعها طاردةٌ لمحبيها، يتساوى في ذلك أرضٌ نحيا عليها أو قلبٌ نعيش فيه. سأرحل يا (يوسف) من قلبك، كما رحلتُ من أرضي. ولكني أذرف في رحيلي الثاني دمعًا لم أذرفه في رحيلي الأول. عزائي الوحيد أني أحمل في بطني نطفةً منك، لا يهمني أين سأضعها ولا أين سأعيش معها. كل ما يُهمني أنها منك،

تلك هُويتها التي ستنتمي إليها كما انتميتُ أنا إليك. لم تسعنا الأرض، ولكن سيسعنا الزمان، وإن لم يكن الجوار بيننا ممكنًا الآن، فحتمًا سيأتي أوان. كتبتُها لك يا (يوسف) قبل أن أتخذ قراري بالرحيل. كنت أرنو إليك من النافذة حين رأيت جوقةً من الروم يتغنون بالأناشيد وهم يحملون سعف النخيل. أدركت حينها أن السماء أرسلتهم من أجلي، ارتديتُ زيّ وصيفةٍ ووضعت على رأسي خمارًا واندسست بينهم دون أن أنظر خلفي. لا ترهق نفسك في البحث عني، فأنا الآن على سطح مركب تحملني إلى بلادي، وأكتب إليك تلك الرسالة لا لتقرأها، وإنما لأتذكرها أنا. فمثلي لن يجد سبيلًا للعيش إلا على الذكرى. أستودعك الربّ يا حبيب القلب، وإن سألوك عني يومًا، فلا تُنكرني.

* * * * *

الفُسطاط - القاهرة

(١١٥٣ - ١١٥٥ميلاديًا)

الفسطاط

(٣٤)

- «والخالق هو علة كلّ شيء، وسبب كل وجود، ومبدع المبدعات ومخترع الكائنات ومتقنها ومتممها ومكملها ومنتهى نهاياتها، وهو واحدٌ بالحقيقة من جميع الوجوه، ليس بشخص ولا صورة، بل هُويّةٌ وحدانية، ذو قوة واحدة وأفعال كثيرة. ولكن العلم بذاته العَليّة لا يصل إليها الدليل والبرهان، ويعجز العقل عن معرفتها، ولهذا قال: (ليس كمثله شيء)».

صمت الفتى الذي كان يقرأ بعد أن لاحظ أن (يوسف) لا يكتب. رغم أنه

كان يقرأ في بطء. توقف عن القراءة ثم سأله:

- هل أكمل يا سيدي، أم أعيد القراءة ثانية؟

قال (يوسف) وقد شرد عقله:

- أعد قراءة العبارة الأخيرة يا (يحيى).

أعاد (يحيى) القراءة من قوله: «ولكن العلم بذاته العلية لا يصل إليها الدليل والبرهان، ويعجز العقل عن معرفتها، ولهذا قال: ليس كمثله شيء».

انتهى من العبارة، ولكنه توقف متحيرًا حينما وجد (يوسف) لا يزال شاردًا ولا يكتب. فقال له مترددًا:

- هل أخطأت في شيء يا سيدي؟

قال (يوسف) بعد أن أفاق من شروده:

- كلا يا (يحيى)، ولكن كفانا نسخًا الآن.

طوى (يحيى) السجل الذي كان يقرأ فيه، ثم وضعه على المكتب أمام (يوسف)، وجلس على مقعد أمام باب الحانوت. لأيام مضت، ويوسف لا يستطيع أن يُكمل نَسْخَ صفحة أو صفحتين في اليوم من هذا السجل العجيب في لغته وأسلوبه. تَعقِلُه الكلمات في موضعها، ويجفّ مداد القلم بعد أن يرفَع السنّ عن الورق، وهو شاردٌ بفكره في معانيها، وغارقٌ في مقاصدها، ثم يطلب من فتاه أن يعيد قراءتها مرة أخرى، ليبدأ جولة أخرى من الشرود!

تذكر منذ أسبوع مضى، حين أتى إلى حانوته شابٌ وأعطاه هذا الكتاب المكوّن من عدة رسائل، جُمعت بالخيط في سجل واحد ضخم، كي ينسخها، قرأ عنوان الكتاب فوجده: (رسائل إخوان الصّفا وخِلّان الوفا)، ثم

نظر إلى حجمه الضخم، وقال للشاب:

- يحتاج نَسخه لعام على الأقل.

أخرج الشاب صرةً من المال، وقال:

- هذه مائة درهم، وأعطيك مثلها بعد ستة أشهر؛ على أن تسلمني الكتاب قبل نهاية هذا العام.

حسبها (يوسف) في عقله، يحتاج الأمر إلى وقت أطول، فقال وهو يزم شفتيه:

- حسنًا، سأحاول، ولكني سأستعين حينئذ بوزاق آخر، فلاتبتئس إن وجدت اختلافًا في الخطّ بيني وبينه.

قال الشاب:

- كلا، لا نحب أن تنتشر هذه الرسائل بين النُساخ.

تعجب (يوسف) من طلبه. فحين قلّب صفحات الكتاب وجده كلامًا في الدين والأخلاق، مثل الكثير من الكتب التي ينسخها، فلا شيء يميزها حتى تكون سِريةً. ولكنه احترم رغبة الشاب، وقال وهو يشير إلى (يحيى) الذي كان يقف خارج الحانوت:

- حسنًا، ولكن لدي صبي يقرأ لي ويُملي علي، فهذا أنجز في النسخ.

نظر الشاب نحو (يحيى)، ثم هزّ رأسه، وقال:

- لا بأس.

اليوم، يشعر (يوسف) أن هذا الكتاب يختلف عن السائد من الكتب التي ينسخها. كلماته تهز الوجدان، وتلقي بمئات الحجارة في مياه العقل الراكدة.

وتثير في العقل ألف سؤال وسؤال. أدرك الآن لماذا لا ينتشر هذا الكتاب بين النساخ، ولعل أصحابه عمدوا إلى ذلك حتى لا ينالهم أذى، وربما اختاره الشاب صاحب الكتاب من بين الوراقين حين علم أنه قبطي!

شعر بالإرهاق، ففرك عينيه من التعب، ثم قرر أن يعود إلى بيته في (بركة الحبش). قال لـ (يحيى) وهو يعطيه درهمين في يده:

- هذ أجرك عن الأسبوع الماضي، سأعود إلى البيت.

قال (يحيى):

- وماذا عن عقد البيع الذي ستكتبه بين سلمان الخياط وأخيه زرعة الإسكافي؟

تذكر (يوسف) العقد، ولكنه استهان بالأمر فالبيعة مجرد مخياط ورثه الأخان اليهوديان من أبيهما، ثم اختلفا عليه، فدفع الأول للثاني ثمنه، وقررا أن يكتبا عقدًا حتى لا يتنازعان فيه. فقال لـ (يحيى):

- تستطيع أن تكتبه أنت، وأشهد عليهما اثنين من السوق.

أومأ (يحيى) برأسه في فرح، فقد كان يسعد بتلك المهام التي أصبح (يوسف) يسندها إليه مؤخرًا، والتي تدر عليه بعض المال. كان قبل عامين يعمل خادمًا عند صاحب الحانوت اليهودي، يقوم بأعمال النظافة وترتيب الورق وحمله.

ولما مات صاحب الحانوت، واشتراه (يوسف)، حباه سيده الجديد بالكثير من العطف؛ رفع راتبه، وسمح له بالمبيت في الحانوت، حتى يوفر له أجرة السكن والمكاري. وحين علم أنه قد تلقى بعض التعليم في قريته، وأنه يعرف مبادئ القراءة والكتابة، جعله يملي عليه الكلام أثناء النسخ، وعلمه

الكثير من قواعد النحو والصرف. ومؤخرًا بدأ (يوسف) يوكل إليه كتابة بعض العقود البسيطة، ويترك له أجر ما كتبه كاملًا.

انصرف (يوسف)، فوضع (يحيى) الدرهمين في جيبه ثمأغلق مصراعي الباب، وأدار اللافتة -التي كُتب عليها (خان صدقة) - على وجهها، ثم انصرف.

تذكر انك حملت رواية عهد دميانة حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

* * * * *

(٣٥)

توجه (يوسف) إلى بيته في بساتين بركة الحبش، التي تقع إلى الجنوب من مركز الفسطاط. اختار هذا البيت الصغير الذي دفع فيه أغلب مدخراته كي يُدخل الفرحة على قلب أمه التي اعتادت مسكنى القصور. فقد كان البيت يحيط به سور وحوله حديقة تنتشر بها أشجار النارنج والليمون، وتفترش أرضها شجيرات الريحان والنعناع. ولكن الحقيقة أن فرحة أمه بمجاورة البيت لدير (مار جرجس) كانت أكبر من فرحتها بالحديقة. كانت تمكث أغلب وقتها في الدير إلى جوار الأم (أغابي) راهبة الدير تصلي معها وتتحدث إليها، وتسترجع أمامها ذكريات طفولتها في دير (أبي حنّس). كان القدر رفيقًا بأمه، كما كان رفيقًا به. تعافت نفسه من الكثير من آلامها، ومنحته مهنة النسخ مسكونًا كان بحاجة إليه. فكان يقضي أول النهار في نسخ الكتب ويقضي آخره في برج الحمام الذي أقامه على سطح

البيت. أنسته رفقة الوَرَق والوَزَق أحزان الماضي، ولو كانت (يومتينا) معه، لما افتقد شيئًا من حياته السابقة في الإسكندرية. حتى السياسة لم يكن يفتقدها، فقد كان يستمع إلى أخبار القصر وأخبار (علي بن السلار) مثل عموم الناس، وكأنه لم يكن يومًا في قلب الأحداث. ولكنه كان سعيدًا بذلك؛ فحين يهبط المرء من أروقة القصور إلى صفوف الناس، يرى الصورة كاملةً. وجد متعةً في التجول بين الأسواق، والجلوس على الحانات بين الناس يستمع إليهم دون أن يشاركهم الحديث. وكان من بين تلك الحانات، حانة (سنقر) في حي الحمراء القصوى، التي أصبح يتردد عليها كثيرًا لكثرة روادها من التجار، ولوجود مغنٍّ كان يصدح بالأغاني والألحان الشائعة بين الناس. ولم يكن يعلم أن هذه الحانة ستكون سببًا في عودته إلى السياسة، بل انغماسه فيها حتى أذنيه.

تذكر انك حملت رواية عهد دميانة حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

صعد يومًا إلى الحانة، ثم جلس إلى طبلية تواجه سفح جبل (يشكر). مدد ساقيه، وتطلع إلى مشهد الغروب أمامه من فوق الجبل، الذي يربض على ربوته مسجد ابن طولون بمئذنته الملتوية كقرطاس من البردي، وأسفله مسجد محرس الخصي، الذي يسميه الناس مشهد (زين العابدين). جاءه نادل يطوف بين الطبالي بصحيفة أقداح ملونة من النبيذ والبوظة، وعرق البلح وعصير الرمان، فأشار إلى قدح البوظة، وأخذه من يد النادل وهو يضع ثلاثة خروبات على صحيفة الأقداح. كاد يفرغ من قدح البوظة ويطلب آخر حينما رأى رجلًا يدخل إلى الحانة، ويجلس إلى طبلية على مقربة منه، عليها رجل آخر. تذكر الرجلَ الداخل، والذي يدعى (موهوب)،

فقد زاره في الحانوت قبل أيام ليكتب عقد رهن لبيته. وعلم حينها أنه تاجر من دمياط، ويمتلك مراكب تتنقل بين دمياط والفسطاط وقوص. وكان بحاجة شديدة إلى المال بسبب الكساد الذي حلّ على بلدته، بعد حصار أسطول الفرنجة لدمياط؛ فرهن بيته في الفسطاط وكتب العقد عند (يوسف).

منعه الخجل من أن يقتحم مجلس (موهوب) ليذكره بنفسه، ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسترق السمع إلى حديثه مع الرجل الآخر خاصةً حينما سمع اسم (علي بن السلار) يتردد في الجلسة تحدث الرجل الأول وهو يقول في غضب:

- عشنا عشر سنين بغير وزير ثم جاء (علي بن السلار)، فلم يغير وجوده شيئًا.

قال (موهوب) في أسف:

- صدقت يا (فواز)! عقدنا عليه الكثير من الآمال، ولكن يبدو أنه لا فرق بين وزير سُني ووزير شيعي، فالكل يخضع لهوى الخليفة في النهاية.

قال (فواز):

- المحزن أنهم لا يرون من ثغور مصر سوى الإسكندرية. وكأن دمياط لا تعنيهم.

قال (موهوب) له:

- لن يدافع عن دمياط إلا أهلها.

قال (فواز):

- لو نزل الفرنجة إلى البر لفتكنا بهم، ولكن كيف نقاتلهم وهم يحاصرون

الشاطئ بالمراكب، ويقذفون من يقترب بالنبال والمنجنيق؟

صمت (موهوب) متفكرًا، ثم قال:

- نُلقي عليهم بالنفط الطيار!

سمع (يوسف) عن النفط الطيار من قبل، فهو زجاجات من النفط المشتعلة، توضع على قاذفات كالنبال ثم تلقى على المراكب الخشبية فتشعلها.

قال (فواز):

- ومن أين نحصل عليه؟

قال (موهوب):

- نطلبها من الوزير (علي بن السلار)، ثم أردف في خفوت:

- أعرف حارسًا في دار الوزارة اسمه (حمدان)، نرسل معه برسالة إلى الوزير ونقترح عليه ذلك، هو يمدنا بالنفط، ونحن لدينا المراكب!

قال (فواز) متهكمًا:

- كفَّ عن الأحلام يا (موهوب)! لو أرادوا الدفاع عنها لفعلوا.

ثم أردف في بؤس:

- وحتى ينصلح الحال، سأرحل عن دمياط وأظل في الفسطاط.

شعر (يوسف) بالحزن من ذلك الحوار، هو أيضًا كان يتوقع أن يتحرك (علي بن السلار) في قتال الفرنجة أسرع من ذلك، ولكن يبدو أنه مكبل الأيدي بالأمراء من حوله؛ مكائد الأمراء يدفع ثمنها الشعوب دائمًا.

انتظر حتى افترقا، ثم تبع (موهوبًا) في طريق العودة، وفي منتصف الطريق ناداه. تذكره (موهوب)، فصافحه. همس له (يوسف) قائلًا:

- أثق في (علي بن السلار)! وأظن أن الحصار لن يدوم طويلًا.

انزعج (موهوب) من كلامه، وقال:

- تتلصص علينا؟

قال (يوسف):

- ارتفاع صوتكما لا يحتاج لأذن متلصصة! كما أني أشارككما الهموم نفسها.

- نحن نتحدث بحرية في حانة منقر فأغلب الجلوس سكارى، ينسون ما يسمعون حين يستيقظون.

ثم أردف في جدية:

- ولكن ما الذي يجعلك تثق في (علي بن السلار)!

تردد قليلًا، ثم قال:

- كنتُ أعمل كاتبًا في ديوانه، وأتولى بريده في الإسكندرية.

اندهش (موهوب)، ثم قال:

- كنتَ؟!

- نعم، تركتُ ديوانه بعد أن صار وزيرًا.

- تركته أم تغير خاطره عليك، وطردك من نعيمه!

- لماذا تظن ذلك؟

- قصة كل قبطي يتولى منصبًا في بلاط هؤلاء.

- تتحدث بمرارة وكأنك قبطي!

- كلنا في الأصل أقباط، ولكني أنا قبطي مسلم وأنت قبطي مسيحي!

ثم حكى له، وهما يسيران جنبًا إلى جنب، قصة جده شطا) التي يفتخر بترديدها. فموهوب ينتهي نسبه إلى القبطي (شطا)، ابن حاكم مدينة دمياط الذي انضم إلى جيش (عمرو بن العاص) قديمًا في حربه ضد الرومان، ثم قُتِل ودفن على مدخل قريةٍ بدمياط، سُميت باسمه: (شطا).

قال بعد أن انتهى من قصته:

- لن ينصلح حال هذه الأمة إلا إذا أدرك الولاة والخلفاء أن أهل مصر أولى بجيشها وبالدفاع عنها. قل لي لماذا تقتصر جيوش الخلفاء والولاة على المرتزقة من الترك والجند السودانية، والعربان والمغاربة، الذين ينقلبون عليهم بعد ذلك؟ لماذا لا يتخذ الولاة من القبط جندًا؟ هل كُتب على قبط مصر أن يكونوا فلاحين منذ الميلاد وحتى الممات؟ وكأن اليد التي تحمل الفأس لا تقوى على حمل السلاح!

صمت (يوسف) ولم يجد إجابةً، فتنهد (موهوب) نافثًا حنقه، وقال في رجاء قبل أن ينصرف:

- لو استطعت أن تخاطب (علي بن السلار) في أمر النفط الطيار، تكُن أسديت صنيعًا لأهل دمياط.

قال (يوسف) معتذرًا:

- قد انقطعت صلتي بالقصر، ولكن أتمنى أن تتحسن الأحوال.

(٣٦)

عاد إلى الدار بعد الظهيرة فوجد (ورد) تجلس على الأرض في حديقة المنزل بين شجيرات الريحان والنعناع. تتحسس أوراقه بيدها ثم تشم أصابعها، فيتدفق عبيره إلى أنفها ويذكّرها بعبير النعناع في قريتها (أبي حنس). فحين يتقدم العمر وتضعف الحواس، يبقى الأنف نافذة العقل على الذكريات. جلس على الأرض إلى جوارها، وقال وهو يقبّل يدها:

- كيف حالك يا أمي؟

قالت وهي تهز رأسها:

- بخير يا (يوسف).

ولكنها لم تكن بخير. تبدو وكأنما أصابها الوهن فجأة؛ ففقدت الكثير من وزنها، وغارت عيناها، وضعفت حركتها. لم تذهب إلى الدير طيلة الشهر الماضي. ومنذ أيام زارتها الأم (أغابي) كي تطمئن على أحوالها، ومكثت معها وقتًا طويلًا ثم ودعتها بعد أن تلت معها بعض المزامير. أصبح نشاطها مقصورًا على المكوث بحجرتها، تُسبّح بمسبحتها ذات المائة حبّة، وتُرتّل المزامير التي حفرت لها مكانًا في ذاكرة أسقطت الكثير من الأشياء، أو الجلوس في الحديقة المشمسة. سألته بعد أن جلس إلى جوارها:

- هل أكلت؟

- نعم يا أمي.

قالت وقد بدأت في عدّ حبات مسبحتها:

- أتمنى أن تتزوج يا (يوسف)!

ابتسم وقال:

- لأول مرة تطلبين مني ذلك يا أماه!

- كنت أدعو لك دوماً بصلاح الحال، ولكني الآن أدعو لك بالصلاح والزواج.

- لماذا؟

- لا أريدك أن تعيش فرداً.

قال مبتسماً، وهو يدرك ما ترمي إليه:

- سنظل معاً، وسيطيل الرب في عمرك ما دمت حياً.

قالت:

- ألا تشتاق إلى الأولاد يا (يوسف)؟

تنهد وقال:

- ومن يرغب في أن يأتي بأولاد في هذه الحياة المضطربة، يتعلقون فيها كعوالق نهر بلا جذور!

- الرب سيكفلهم، كما كفلني ورزقني بك!

قبل يدها، ثم استلقى على ظهره ووضع رأسه على حجرها، وقال باسماً:

- لو كنت أضمن أن أتزوج بامرأة مثلك، لما ترددت.

قالت وهي تمسح على شعره:

- هل لا زلت تنتظر (يوستينا)؟

انقشعت سحابة كانت تخفي الشمس وراءها، فسطع نورها على وجهه،

أغمض عينيه، ثم قال حالمًا:

- (يومستينا)! لو رأيتها لتزوجتها.

ثم تنهد آسفًا، وقال:

- ولكنها عشبةُ نهرٍ بلا جذور أيضًا، جرفها التيار بعيدًا بلا رجعة.

***

في المساء جلس في حجرته ليقرأ. أطال فتيل الزيت، كي يزيد من ضوء المصباح في الحجرة، ثم شرع يقرأ في السجل، وبجواره ورقةٌ يستخدمها كهامش يكتب فيها ما يتوقف عنده من عبارات ليحتفظ بها لنفسه. قرأ عدة صفحات ثم أمسك بريشة الأوز البغدادي، ثم شرع يكتب:

«واعلم أن الحق في كل دين موجود وعلى كل لسان جارٍ وأن الشبهة على كل إنسان جالٍ، فاجتهد يا أخي أن تُبين الحق لكل صاحب دين ومذهب مما هو في يده، وتكشف الشبهة التي دخلت عليه، ولا تشغلن نفسك بذكر عيوب مذاهب الناس، ولكن انظر إلى مذهبك، هل به من عيب؟»

لم يدرِ كم من الوقت مَرّ ولم يدرِ هل نام وهو يقرأ أم أنه فرغ من القراءة ثم قام إلى سريره، ولكنه حين استيقظ على صوت الطرق على باب حجرته، وجد المصباح مطفأ، وصوت الخادمة يقول صارخًا:

- أدرك سيدتي (ورد) فإنها تحتضر.

هبّ من نومه وقفز المسافة بين الحجرتين، ثم دخل إلى حجرتها، وجدها ترقد في سريرها تقبض بيدها على مسبحتها، وقد أغمضت عينيها. ينسدل شعرها -الأسود الذي ابيضّ مفرقه- على وسادتها. استفزّ الكلمات كي

تنطق، ولكنها أبت أن تخرج من فيه. احترق جفنه بدمعة تتحجر على مقلتيه وتأبى أن تنزلق. تنهنه عدة مرات حتى استطاع أن يقول: «أمي». أمسك بيدها فشعر ببرودتها، وانفتحت أصابعها لتسقط منها مسبحتها. حركها برفق وهو يناديها مترجيًا:

- أمي!

لم تُجب، فوضع يده على جبهتها الباردة، ومسح شعرها وهو يقول:

- أجيبي يا أمي.

ثم أجهش باكيًا، وهو يقبل يدها، ويقول:

- أجيبي يا أمي.

ثم أجهش باكيًا، وهو يقبل يدها، ويقول:

- لا تتركيني أرجوكِ!

ندت صرخةٌ من الخادمة، فانفجرت الدموع من عينيه كالحمم، وألقَى رأسه في صدرها متشممًا رائحة جسدها، للمرة الأخيرة!

***

جهزتها الأم (أغابي). ثم حُمِل جسدها إلى كنيسة دير (مار جرجس) لإقامة القداس عليه. دخل الدير عبر بابه الخشبي المهول، الذي أهداه العزيز بالله للدير بعدما شبَّ فيه حريقٌ متعمَّد في عهده. لا يزال الباب الحديدي المحترق موجودًا، وكأنما ليشهد على أن نيران الفتنة قد تصهر الحديد أيضًا. أمسك (موهوب) بمرفقه، وهما يعبران الباب. علم (موهوب) من الفتى (يحيى) بما حدث، فأسرع ليقف إلى جواره. اكتشف أنه لا يملك رصيدًا من البشر في هذه الحياة. ولولا (موهوب)، لوقف وحيدًا في قداس

أمه التي عاشت غريبةً، وماتت غريبةً. ولكنها ماتت كما أحبّت، وهي تقرأ مزاميرها، وتسبّح بمسبحتها. بدا أنها قد أوصت الأم (أغابي) بتجهيزها للسماء دون أن تخبره، فقد وضعت الأم (أغابي) المسبحة حول عنقها. ثم خلعت سلسلة الفضة التي كانت تُطوّق عنقها طيلة حياتها، وأعطتها له قائلةً:

- أوصتْ لك بهذه القلادة.

تحسس الصليبَ الصغير الذي يتدلّى منها بأنامله، وكأنه يشعر بملمس جيدها، نظر إلى حروف كلمة (ورد) بالقبطية، الموجودة على ظهره، ثم قبلها ووضعها في جيبه. همّ الكاهن أن يتلو القداس، ولكن حدثت جلبةٌ خارج الباب. انتبهوا، ليجدوا حراسًا من القصر يدلفون من الباب، ثم يصطفون على جانبيه، ليدلف بعدهم الوزير (علي بن السلار)! لم يصدّق أنه يراه بعد كل تلك السنوات، لا يعرف كيف وصله نبأ موت أمه، ولكنه كان سعيدًا أنه جاء ليودعها. رغم كل ما حدث، لا ينسى فضله عليه، وعلى أمه. شدّ (علي بن السلار) على يده، بوجه متجهم، وقال:

- رحمها الله! أوصت الأمّ (أغابي) بأن تخبرني برحيلها إذا وافتها المنية.

ثم وقف أمام الهيكل، وعيناه محتقنةٌ بالدمع. ارتبك الكاهن قليلًا، ولكنه عاد واستأنف القداس وهو يدعو للمرأة الصالحة بالرحمة. وبعد أن فرغ، تقدّم وصافح الوزير (عليّ بن السلار) باحترام. سأله (علي):

- أين سيُدفن (ورد)؟

قال الكاهن:

- في مقابر القبط بالقرافة الكبرى.

هز رأسه، وقال في أسى:

- حسنًا، سأتكفل بمصاريف تجهيزها، ونقلها، ولأحملن على عربتي حتى مثواها.

ثم نظر إلى (يوسف)، وقال:

- رحم الله أباك وأمك يا (يوسف)، ما رأيت منهما إلا كل خير.

ثم قال وهو يودعه:

- بعد أن تفرغ من الحداد، أريد أن أراك في القصر!

هز (يوسف) رأسه، وقال:

- أمرك يا سيدي!

شد على يده مرة أخرى وانصرف، بينما كان (موهوب) ينظر نحوهما في سعادة وهو لا يصدق أن صديقه والوزير (علي بن السلار) يتصافحان.

***

عاد من القرافة أشعث الرأس، أحمر العينين. دخل إلى البيت الخاوي من أنفاسها، فجلس على سريرها، مسح الفِراش بكفه، وكأنه يُضمخها بذرات جسدها الفاني. مست أصابعه شيئًا أسفل الوسادة، فأخرجه، وجده ورقة بردي مطوية، فتحها، فوجدها عهد (ابن السلار) إليها. كانت تضعه تحت رأسها، حتى لا ينازعها عقلها في أنها حُرة. بكى وهو يقول:

- تحررتِ يا أمي إلى الأبد، وما عدتِ بحاجة إلى عهد!

لا يدري كم مكث على سريرها، ولكنه قام قبيل الصبح وقد تسلل نور الفجر من نافذة حجرتها. قام فغسل وجهه ثم جلس على السرير وحده.

تذكر كلامها: «لا أريدك أن تعيش فردًا يا (يوسف)»، يبدو أنها كانت تشعر بدنو الأجل. قرر أن يعود للعمل. العمل هو غمامة العين في ساقية الحياة، لو نُزعت لترنح المرء ساقطًا من دورانها العابث الذي لا ينقطع. فتح السجل فانفتح على الرسالة الخامسة عشرة في حكمة الموت والحياة. تعجّب، هل كان يقرأ تلك الرسالة، بينما كانت أمه ترقد بين الموت والحياة! أم أنها المصادفة؟ قرأ بصوت عالٍ وكأنه يعزي نفسه:

- «واعلم بأن لكل كونٍ نشوءًا وابتداءً، وغايةً وانتهاءً، إليها يُرتقى، ولغايتها يُرتجى. فالنطفةُ كونٌ قد ابتدأ، والولادة غايتها. والولادة كونٌ قد ابتدأ، والموت غايتها، وكما أن الجنين لا ينتفع ببقائه في الرحم بعد اكتماله، فكذلك النفس لا تخلد إلى الكمال إلا بعد أن تفارق الجسد».

* * * * *

القاهرة

(٣٧)

سار (علي بن السلار) في دهليز طويل ينتهي إلى قاعة الذهب، حيث يعقد مجلس الملك بالقصر الشرقي الكبير بالقاهرة، عن يمينه يسير مؤيد الدولة (أسامة بن منقذ) وعن يساره ربيبه (عباس الصنهاجي). كان الدهليز طويلًا مظلمًا تعلوه قباب قائمة، وأعمدة يستتر خلفها حملة السلاح من خواص الخليفة، وعدد من الأساتذة المحنكين الذين يسترون ووجوههم بلثام لا ينكشف إلا للخليفة. شعر (علي بن السلار) بالانقباض من الدهليز الذي لا يستطيع السلار فيه أن يتبين يده، رغم أنهم كانوا في وضح النهار. فقال متهكمًا:

- يقولون إن الخليفة الحاكم بأمر الله قد قتل خادمه الحبشي (عطوف)

في هذا الدهليز. لا أدري كيف رأى وجهه في ذاك الظلام!

قال (أسامة) مدافعًا:

- للبناء حكمةٌ يا (وزير)، حتى ينتقل الداخل على الخليفة من ظلام الدهليز إلى نور حضرة الإمام في قاعة الذهب، فيشعر بالبهاء والراحة.

قال (علي) في غير اكتراث:

- لن أمرّ من هذا الدهليز الموحش مرةً أخرى. ومدخل القاعة من رواقها المكشوف.

عبروا الدهليز إلى قاعة الذهب، حيث يجلس الأمراء والولاة في انتظار ظهور الخليفة (الظافر)، الذي يجلس محتجبًا في مقصورته خلف ستارٍ يقف عليه اثنان من الأساتذة المُحنّكين.

خرج (أمين المجلس) من خلف الستار فأعلن أن الخليفة قد استوى على العرش، فوقف الجميع، ثم رُفع الستار فانكشف عن الخليفة (الظافر) وهو يجلس على سرير من الذهب، يرتدي ثوبًا أبيضَ من الحرير الدّبيقي، وعليه بُردةٌ خضراءُ مؤطّرةٌ بالذهب، وفوق رأسه عمامة بيضاء مرصعةٌ بالياقوت والزمرد، لا يلبسها إلا في مجلس الملك. شابٌ نحيف الجسد، ولكنه فارع الطول، عريض الكتفين، كحيلُ العينين، منمّقُ اللحية والشارب. تقدّم (علي بن السلار) منه حتى لم يتبقَّ بينهما سوى ثلاثة أذرع، ثم رفع يده قائلًا:

- السلام عليك يا أمير المؤمنين.

ثم جلس على الوسادة الشريفة عن يمينه، ثم تقدّم باقي الرجال، فقبلوا عتبة المجلس بين قدمي الخليفة، ثم جلس كلٌ في موضعه. كانت الجلسة عاصفةً؛ قرأ صاحب الدست قرارات (علي بن السلار)، بشأن خفض نفقات

العطايا والهدايا للأمراء في ذكرى عاشوراء، من أجل تجهيز حملة عسكرية إلى عسقلان لدفع الفرنجة عنها، وإرسال سفن حربية من ترسانة المقس إلى دمياط، لإبعاد سفن الفرنجة عن شواطئها.

اعترض الأمراء، وعلا اللغط، وتحدث أحد الولاة وقال:

- جرت العادة أن يصرف الوزير خلعة ذكرى عاشوراء على الأمراء منذ زمن الوزير مأمون البطائحي.

قال (علي):

- أليس العيد عيدَ حزن؟

قال الرجل متعجبًا:

- بلى.

قال (علي):

- ألسنا في حرب؟

قال الرجل:

- بلى.

قال علي:

- فلماذا أصرف خلعةً تُدخل الفرحةَ على قلوب الأمراء في عيد حزن!

ثم قال:

- والله لا أصرف منها إلا سماط طعام للفقراء، أما الباقي فلينذَر للجهاد.

نظر الجميع نحو الإمام الذي عبث بلحيته قليلًا، ثم قال:

- أقرُّ ما ذهب إليه السيد الأجل وزير الدولة. وليقتصد في النفقات إلا على الجهاد.

تبادل الأمراءُ نظرات الغضب، وساد الوجوم إلى أن طلب إسفهسلارُ العسكرِ الإذنَ بالحديث، فأشار إليه الخليفة، فقال:

- معذرةً مولاي الخليفة، ولكن من الخطر أن نبدأ في حملة بريّة وحملة بحرية في الوقت ذاته. فلو انهزمت إحدى الحملتين لكانت ثغرةً ينفذ منها جنود الفرنجة إلى البلاد. والأولى أن نكتفي الآن بحملة عسقلان.

بدا كلامه مقنعًا، فنظر الخليفة إلى (علي بن السلار)، فأومأ برأسه موافقًا، فقال الخليفة:

- أمرنا بتجريد حملةٍ إلى عسقلان لنصرة الحامية والدفاع عنها.

صمت، فأردف (علي) بعده:

- وإني أعلن باسم أمير المؤمنين، أن يقود الحملةَ الأميرُ (أسامة بن منقذ)، والأمير (عباس الصنهاجي).

خرجوا تباعًا من الرِّواق المكشوف، (علي) إلى جوار (عباس) في المقدمة، وخلفهم باقي الناس. همس (علي) في أذن ربيبه (عباس):

- احذر الخيانةَ يا (عباس)!

- أمرك يا سيدي!

- إذا وصلتَ إلى حامية بلبيس، فأرسل إلى (نور الدين محمود) وأخبره بأمر الحملة.

- أمرك يا سيدي!

وعلى بُعد عدة صفوف خلفهما، كان إسفهسلاز العسكر يهمس لـ (أسامة بن منقذ)، قائلًا:

- قد بغى وتكبّر!

- تعلّم أن تنحني للريح حين تشتد!

- الخليفة يؤيده في كل شيء!

- لم ينسَ الخليفةُ أنه قد أخذ الوزارة غصبًا!

- كيف وقد أقرّه في منع العطاء عن الأمراء؟

- لا تتعجّل، سيكون هذا الأمر قاتلَه!

- ومن يقتله؟

- أقرب الناس إليه!

وقبل أن يصلوا إلى نهاية الزّواق، فوجئ الجميع بـ (نصر بن عباس)، يدخل من باب القصر ويسير في الزّواق المكشوف مرتديًا طَرحةً بيضاء وحُلّةً لا تقل بهاءً عن حُلّة الخليفة. وقد بدا وجهه المزجج الحاجبين مشرقًا، وأكثر ملاحةً عن ذي قبل. وقف أمام جدّه (علي بن السلار)، فانحنى وقبّل يده، ثم انصرف وأكمل طريقه نحو القاعة. ونظرات أبيه، و(علي بن السلار) ترمقه باستغراب.

* * * * *

(٣٨)

العاشر من محرم ٥٤٨ هجريًا / ١١٥٣ ميلاديًا:

مالت الشمس إلى غرب الوادي، فألقت بذيول أشعتها على البساتين التي

تمتد من سور القاهرة الغربي حتى ضفاف النهر بينما كان (يوسف) يركب عربته ويقترب من (باب سعادة) الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية من السور. ترك (يحيى) في الحانوت وأخبره أنه سيذهب لمقابلة الوزير (علي بن السلار). استقبلته نسمات النهار المتأخرة، فجففت عرقه. عبر البوابة، وصعد إلى أول شارع القصبة، ففوجئ بزحام كبير وحشد من الناس، يمتد في مسيرة كبيرة من أول ميدان الجامع الأزهر وحتى القصر الشرقي الكبير. عشراتٌ من الناس، يرتدون السواد، ويسيرون حفاةً، وهم يلطمون خدودهم ويشقّون ثيابهم، وخلفهم جماعةٌ من المنشدين، يضربون بالدفّ وينوحون بأشعار الرثاء، فاليوم هو يوم (حزن عاشوراء). نزل عن عربته، وعقلَ الجواد في مربط في أول الشارع، ثم خلع نعليه، وسار حافيًا حتى لا يثير غضب الحشود الباكية. تجاوز ذروة الزحام، ليجد سماطًا كبيرًا أمام القصر يجلس عليه عشرات من الناس يأكلون، ويقف في انتظارهم عشرات آخرون، تتوالى عليهم زُبديات العدس الأصفر والمخلل، والخبز الأسمر المخلوط بالرّئة السوداء؛ حُزنًا على فقيد كربلاء. أدرك أنه أخطأ التقدير، فقد لا يستطيع مقابلة الوزير في هذا اليوم المزدحم. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها مسيرةَ حزن عاشوراء في القاهرة. يبدو الأمر في القاهرة أكثرَ حزنًا وألمًا عنه في الفسطاط أو الإسكندرية. يقتصر الأمر في الفسطاط والإسكندرية على صيام المسلمين لهذا اليوم، وإغلاق الحوانيت حتى العصر وقد يرتدي بعض الشيعة السوادَ في الطرقات، ليس أكثر، ولكنه لم يرَ من قبلُ مواكب المنشدين، والنائحين، ولاطمي الخدود، كما رآها في القاهرة. يعلم أن الحسين هذا هو حفيد النبي محمد، وقد قتله حاكمٌ مسلم قِتلةً بشعة، مع أهل بيته، لأنه ثار عليه. ويعلم أن المسلمين جميعًا يحزنون لمقتله، ولكنه لم يفهم كيف تعقّدت الأمور بعد ذلك، حتى صارت عقيدةً ومذهبًا، يُقدسه كل طرف، وعداءً موروثًا ينتقل من جيل إلى

جيل. عجيبٌ أمر البشر حينما تبتلعهم عثرات الماضي، وكأنها هوةٌ سحيقةٌ ما لها من قرار فيأبون إلا أن يكبلوا أقدامهم فيها، وكأنما لا يرجون منها فِكاكًا. عبر الزحام، وتأكد من خلو الطريق، ثم ارتدى نعليه مرةً أخرى، واتجه إلى ميدان الرحبة. بلغ دار الوزارة فسار نحو بابها. أخبر الحراس أنه يريد مقابلة الوزير (ابن السلار). تركوه وقتًا حتى عاد إليه أحدهم وأخذه إلى الداخل. سار في فناء داخلي مكشوف يُفضي إلى حديقة غنّاء منسقةً بألوان شتى من الزهور ومقسمةً بمسالك من الحجر للسائرين، وتتوسطها فوارةٌ مرمرية، يُرطب رذاذُها وجه الداخل من الفناء. بلغ التخت الصيفي الذي يجلس عليه (ابن السلار) حين يستقبل القريبين منه. تقدم منه وانحنى يقبّل يده. فأشار إليه (علي) كي يجلس على الأريكة المقابلة له.
جلس مطرقًا، فقال له:

- كيف حالك يا (يوسف)؟

- بخير يا سيدي.

- ماذا تعمل الآن؟

- اشتريث حانوتًا في سوق الوراقين، أنسخ فيه الكتب.

- هل يعجبك هذا العمل؟

- نعم يا سيدي، أقرأ في سير الأولين، وتاريخ الأمم.

صمت (علي) قليلًا، ثم قال:

- قل لي يا (يوسف)، ماذا سيقول الناس عني بعد رحيلي؟

فوجئ بالسؤال، فقال:

- أنت كما سميت نفسك يا سيدي، الوزير (العادل)!

ابتسم (علي) رغم الإرهاق البادي على وجهه، وقال:

- كذبت يا (يوسف)! كلنا نروم العدل، ولكننا نخطو إليه على طريقٍ من الظلم، إما أن نظلم أنفسنا، أو نظلم الآخرين.

ثم قال:

- أرأيت النواح في شارع القصبة الآن؟

قال له:

- نعم يا سيدي.

قال (علي):

- لو كان في هذا النواح من معنًى لكان البكاءَ على العدل المُتوهَم، وتذكرةً لرجلٍ خرج يروم العدل وحده فظلمَ نفسَه، ولرجلٍ آخرَ ظن أنه يقيم العدل، فقتله!

ثم أردف وهو يتأوه:

- العدل مُتَوَهَّمٌ، والظلم حتميٌ في هذه الدنيا يا (يوسف)، وكفى المرء عدلًا ألا يتمادى في ظلمه. ولهذا دعوتك.

انتبه (يوسف)، فتابع علي:

- اسمع يا (يوسف)، يعلم الله كم كنتُ أحبك، وقد كنت أنوي أن أجعلك على ديوان الإنشاء في القصر بعد تولي الوزارة، ولكن منعني عن ذلك أمران: الأول فتوى قالها شيخي بأنه لا يجوز إسناد الأمر إلى قبطي، ما دام هناك من المسلمين من يقوم بها. ثم ما قمتَ به أنت من جُرمٍ مع جارية

(نصر). وإني أرى أني قد ظلمتك في الأولى، واقتصصت منك في الثانية. فإن شئت أعدتك إلى الديوان مرة أخرى.

نزلت الكلمات بردًا على قلب (يوسف)، فقال وهو يشعر بالرضا:

- ذلك منتهى الكرم منك يا سيدي. وأقسم أني ما شعرت يومًا بظلم منك، ويكفي ما قدمته لي ولأبي وأمي.

ثم أردف:

- ولكني سعيد بما أقوم به، ولا رغبة لي في العمل بدواوين الدولة.

ابتسم (علي) وقال:

- نضجت يا (يوسف)، وعلمت من الدنيا صدقها وزيفها.

ثم أردف وهو يقوم متألمًا:

- حسنًا، سأقوم الآن فإني متعب، وسأنتظر ما ترويه عني يا (يوسف) في كتبك.

قام (يوسف)، وقال:

- لو أن لي أن أطلب شيئًا منك يا سيدي، فهي رسالة من أهل دمياط يرسلونها إليك!

قطب حاجبيه، وقال:

- ما هي؟

قال (يوسف):

- يدعونك أن تمدهم بالسلاح، والنفط الطيار، حتى يقدروا على طرد

الفرنجة وفك الحصار عن شواطئهم.

قطب حاجبيه، وقال بعد تفكير:

- لا تقلق، بعد أن يعود (عباس) من حملة عسقلان، سنجهّز حملةً لدفع الفرنجة عن دمياط.

قبّل (يوسف) يده، ثم ودعه وانصرف.

عاد إلى الدار في الليل. فاستلقى على ظهره، ثم فتح السجل الذي صار لا يفارقه، وقرأ بعض فقراته وكأنه يرتل وردًا من كتابه المقدس:

«والسياسة هي صلاح الموجودات، وعلى الحاكم أن يتحلى بحسن المناقب والخصال، وخير مناقب الإنسان العقل، وأفضل خصاله العدل، وخَاصّيّة العقل صحةُ التمييز ومعرفةُ الحقائق، والسيرة العادلة وحسن الاختيار».

* * * * *

(٣٩)

الحادي عشر من محرم ٥٤٨ هجريًا / ١١٥٣ ميلاديًا:

انفتح باب السرّ الذي يصل بين القصر الشرقي الكبير ودار الوزارة بالقاهرة، ثم أُغلِق بعدما دلف منه أحد عشر رجلًا متتابعين. عشرة منهم كانوا يرتدون زيّ الحرس، وواحد -فقط- يرتدي جلبابًا ودراعة، يُخفي أسفلها سيفًا يمنيًا، تبلل بالعرق الذي ينضح من بين ثنايا جسده. سار صاحب الجلباب نحو دار الحريم متلفتًا حوله في ريبة، يكاد يتعثر وهو يدير رأسه مع كل خطوة يخطوها نحو زملائه الذين انتشروا في أركان حديقة الدار. رآه حارس يقترب من باب دار الحريم، فسأله:

- من أنت؟

- أنا الأمير (نصر بن عباس).

- هل تريد شيئًا يا سيدي؟

- سأصعد إلى جدتي (بلارة).

- حسنًا، تفضل يا سيدي.

صعد الدرج، حتى بلغ الباب المُفضي إلى حجرات النوم، عبر الباب ثم أغلقه خلفه في حرص. خلع حذاءه حتى لا يُحدث صوتًا وهو يسير في الردهة الخالية. عبر حجرة جدته (بلارة) التي كانت تغط في نومها، ثم كتم أنفاسه التي كادت أن تفضحه وهو يقترب من حجرة جدّه (علي بن السلار). دلف من مدخلها، بقلبٍ مرتجف وعينين تزوغان. تذكّر ما قاله له قائد الحرس الموجود في الحديقة:

«إذا ضربتَ، فاضرب في مقتل؛ الرأسَ أو العنقَ، وإذا طعنتَ، ففي القلب مباشرةً». تطلّع إلى جدّه الذي كان ينام وظهره نحوه. استلّ سيفه ورفعه، وهمّ بأن يهبط به على نحرِه. فجأةً استدار (علي) وهو يقول:

- من أنت؟!

اضطربت يده وتراجع حين رأى عيني جدّه، ولكنه جمع عزمه ثم رفع سيفه لضربه، ولكن (عليًا) دفعه بساقه فجاءت الضربةُ عليها. صرخ (علي) ثائرًا، وهو يقول:

- أتريد أن تقتلني يا كلب؟!

لم يحتمل (نصر) كلّ هذا الاضطراب، فألقى بالسيف وجرى، وصراخ (علي)

يتبعه:

- أدركوا الكلب، أدركوا الخائن!

فوجئ أصحابُه به يخرج مهرولًا من باب دار الحريم. التفوا حوله، وسأله قائدهم:

- هل قتلته؟

قال مرتجفًا:

- جاءت الضربةُ على ساقه.

جزّ القائد على نواجذه، وقال:

- هلكتُ وهلك أبوك، وأهلكتنا معك يا ابن (عباس)!

ثم أزاحه واستلّ سيفه، وتبعه باقي الرجال. صعدوا إلى الدار التي ملأها صراخُ الجواري اللائي كنّ يهرولن من بابها الخلفي. اشتبكوا مع عدد قليل من الحراس فقتلوهم، ثم اتجهوا نحو (علي) النازف على الأرض، أدرك (علي) أنهم من أساتذة القصر المحنكين، أمسك بسيف (نصر) الذي تركه، وقام متحاملًا على ساقٍ واحدة، وقال في جنون:

- خونة!

لم يُمهله قائد الحرس، انقض عليه وطعنه في صدره. شعر بالسيف يخترق عظام صدره ويستقر في القلب مباشرةً. جحظت عيناه وهو لا يصدق، أدار وجهه يمنةً ويسرةً، ثم سقط على وجهه.

كانت زوجته (بلارة) تقف في حجرتها ترتجف فاقدةً النطق، لا من الخوف فحسب، وإنما من يد الحارس الذي كان يقف خلفها، وهو يضع يده على

فمها، ويقول هامسًا:

- لا تنطقي، وأقسم لكِ أن انتقم له ممن قتلوه!

ثم حجب عينيها حتى لا ترى ما يقوم به الأساتذة المحنكون برأس زوجها.

*****

(٤٠)

أشار الخليفة (الظافر) إلى الرجل الذي قدّم له رأس (علي بن السلار) على طبقٍ من الفضة، وقال وهو يشيح بوجهه:

- فلترفع رأسه على رمح أمام القصر حتى الصباح، ثم توضع بعد ذلك في خزانة البنود.

انصرف الرجال وتركوه مع (نصر) الذي يقف مرتعدًا في ركن الحجرة. تأكد (الظافر) من خلو القاعة، فقام من كرسيه، ثم اتجه نحو (نصر)، وضع يده برفق على كتفه، وهو يقول في حنان:

- ما بك يا مهجة القلب؟

لم يستطع (نصر) أن يكتم دموعه، فأجهش في البكاء وألقى بنفسه في أحضان (الظافر)، وهو يقول:

- لا أستطيع أن أنسى صرخته!

احتضنه (الظافر) بقوة ثم مسح على ظهره وهو يهمس في أذنه قائلًا:

- لا تحزن يا حبيب القلب، لا تحزن، استحقّ ما حدث له.

رفع (نصر) رأسه، ثم قال:

- سيثور رجاله.

مسح (الظافر) الدموع عن خديه بيده، وقال:

- لا تخش شيئًا، اذهب الآن واسترح.

ثم قبله في رأسه، وهو يقول:

- مرّت الليلة بسلام، وغدًا نحتفل بتعيين أبيك (عباس) وزيرًا للدولة.

***

في الصباح، استيقظ الناس على رأس الوزير (علي بن السلار) معلقةً على رمح أمام القصر الشرقي، بينما صوت النائحة (خسروان) يملأ الفضاء في الفسطاط، وهي تصيح في هلع:

- قتلوك يا سبع الرجال، قتلوك يا (ابن السلار)!

كان (يوسف) يجلس في دكانه بسوق الورّاقين، حينما شقّ النواح أذنه، لم يتمالك نفسه، فجرى إلى السوق المضطرب بصراخ النائحة، سأل أحد الوراقين:

- من المقتول؟

قال الرجل وهو يهرول:

- قتلوا الوزير (علي بن السلار)!

ارتبكت ساقه وكاد أن يسقط، ولكنه لم يلبث أن ألقى بنفسه وسط طوفان البشر الثائر الذي تجمع في مسيرة حاشدة نحو القاهرة. فرّت الدموع من عينيه، حينما تأكد له الخبر بروايات متواترة، الكل يُجمع على أن رأس

الوزير معلقة على باب القصر وأن حفيده (نصر) هو من قتله. سمع أحدهم يقول: «آه يا شهيد الغدر!» لا يدري ماذا يقصد بكلمة (شهيد)! ربما كان المعنى الأقرب إلى ذهنه أنه مات مِيتة نبيلة، فهل هناك أنبل ممن تغتاله أيدي الجبناء؟ كانت المسيرة قد اقتربت من أسوار القاهرة، حينما وجد (موهوبًا) يخترق الصفوف ويقترب منه. أمسك بيده وهو يقول له:

- الحرب مشتعلة بين خاصكية الخليفة، وتلاميذ (علي بن السلار) في الحواري المتفرعة من شارع القصبة.

ثم قال في أسف:

- يطاردون تلاميذ (علي) في كلّ زقاق، ويقضون عليهم الواحد تلو الآخر.

ثم أردف:

- الدخول إلى هناك جنون، الأفضل أن نعود.

صمت (يوسف) مذهولًا. نعود! نبيح آخر على مذبح العدل، تتخضب الأرض بدمائه، ولا يجد من ينصره. تذكر صورة (علي) في آخر لقاء بينهما وهو يقول عن نواح كربلاء: «لو أن في هذا النواح من معنى، لكان البكاء على العدل المُتوَهَّم». صدقت يا سيدي! فلتبكِ أيتها العيون كربًا وبلاءً على العدل المسفوح، ولتنوحي يا (خسروان) على سبعِ الرجال العادل (ابن السلار)! فجأةً ارتفع صوت نفير من فوق الأسوار وفي ثوانٍ معدودة، كان الرماة، يقفون فوق شرفات السور متأهبين وهم يوجهون السهام نحو الناس. انفتح باب الفتوح، وخرجت منه فرقةٌ من الأساتذة يمتطون خيولًا مُقنّعة، وخلفهم عشراتٌ من فرسان الحُجَر يحملون رؤوس عددٍ من تلاميذ (علي بن السلار).

قال قائد الأساتذة، بصوت جهوري، لم يحجبه اللثام الذي يحيط به

وجهه:

- هذه رؤوس المنافقين الذين ثاروا لقتل الخائن (ابن السلار). من أراد أن تتدلى رأسه من أسوار القاهرة، فليتقدم من هذا الباب.

اشتد الوجع في قلب (يوسف)، كاد أن يصرخ، وتحرك بجسده، ولكن (موهوب) أمسك بيده وأوقفه في موضعه. فجأةً علا صوت النائحة (خسروان) وهي تقول:

- والله ما كان (ابن السلار) خائنًا ولا منافقًا، بل كان شجاعًا كريمًا.

انطلق سهمٌ في الهواء، شقَّ طريقه ثم استقرّ في صدر المرأة، فسقطت صريعةً. اشتد الهرج، وعلا الصراخ، ولكن صوت الأستاذ المحنك أسكت الجميع، وهو يقول:

- وما من نائحة تنوح عليه إلا نالها ما نال الخاسرة (خسروان).

ثم أردف في تهديد:

- هيا انسحبوا وعودوا إلى دياركم.

انسحب الناس متراجعين، وبينما كان (يوسف) يجهش باكيًا، أمسك (موهوب) بكتفه، وقال:

- الليلة سنلتقي في حانة (سنقر).

ثم همس:

- لن يمرّ مقتل (ابن السلار) بغير انتقام.

***

رسالة (يوستينا) الثانية

أفتقدك يا (يوسف)! أفتقدك حدّ الجنون! أنا الآن في طرسوس، أجلس إلى شاطئ البحر أتحدث إليك كما كنت أفعل دومًا، وأكتب إليك رسائلي التي أعلم أنها لن تصل إليك. رائحة البحر تبدو في أنفي اليوم كرائحة الحنوط، وزرقته القاتمة تثير في نفسي الكآبة. لا أدري لماذا أشعر بجسدي كله يتحلل إلى ذرات متنافرة، تنتظر لمسةً من يديك كي تأتلف، أو ضمةً من صدرك كي تعود كيانًا ينبض بالحياة لو تمنيت شيئًا بعد أن أصير إلى عدم، هو أن أصبح نسمةً من هواء تتنفسها أنت وتُبقيها في صدرك إلى الأبد معذرةً يا حبيب العمر لو كانت كلماتي تنضح بالحزن، ولكن يبدو أن قدرة (يوستينا) على الاحتمال قد بدأت تتلاشى. سأخبرك شيئًا سعيدًا: ابنتنا (دميانة) تبدو آيةً في الجمال؛ ورثت عنك عينيك وشفتيك، وورثت مني شعري. أنطق باسمك أمامها عشرات المرات في كل يوم، وأحكي لها كثيرًا عنك وعن مصر رغم أنها لا تفهم شيئًا! أمي تتهمني بالجنون، وتظن أنني أنوي أن أجعل (دميانة) جاريةً في مصر. تقول لي: ما وجدنا خيرًا في قصور مصر! هي محقةٌ، ولكن الأمر أثقل على نفسي مما تظن أمي، فقد وجدت الخير كله في مصر ثم فقدته! وشتان بين من ذاق النعيم ثم فقده، ومن لم يذقه على الإطلاق. أشتاق إليك يا (يوسف)، وأشتاق أيضًا إلى (الحسين). قلبي يمزقني عليه، وأشعر أني سأعيش معذبةً بذنبه، ولكن عزائي أنك تراه بعينك كما أرى أنا ابنتنا (دميانة). قل لي يا (يوسف)، كيف حال خالتي ورد؟ فأنا أراها في المنام كثيرًا! وقل لي يا حبيب العمر هل وجدتَ غايتك؟

* * * * *

القاهرة

(٤١)

سقطت عسقلان في يد الفرنجة. باءت محاولات (عباس الصنهاجي) البائسة بالفشل في استعادتها، وظلّت هيبته في عيون الجنود منتقصةً بانقلابه على زوج أمه، وبابتذال ولده (نصر). الحوار الذي دار بين (عباس) وبين ولده (نصر) كان مؤلمًا وموجعًا للأب، وسجلته آذان البصاصين في القصر. قال (عباس):

- كيف أصبر على ما يقوله الناس عنك، من أن الخليفة يفعل بك ما يفعله بالنساء؟

قال (نصر) متهكمًا:

- منحك الخليفة الوزارة، وأقطعك أرض قليوب، أوليس هذا مهرًا كافيًا؟

نظر إليه (عباس) محتقِرًا، ثم قال:

- وددتُ لو أقتلك بيدي!

قال ساخرًا:

- أحقًا تريد ذلك؟!

ثم أمال عنقه، وقال في تهتك:

- لماذا لا تضع النصل على عنقي، أو تقطع عقيصة شعري كما فعلتَ من قبل؟!

شعر ببغض حقيقي نحو ولده، ولكنه كان يعلم أن ما فعله قديمًا لا سبيل لفعله مرةً أخرى. أصبح (نصر) الآمرَ الناهي في البلاد، لا بمنصب ولا سلاح،

وإنما من مخدعه! تنهد (عباس) ثم قال في ازدراء:

- متى يأتيك الخليفة في الفراش؟

نظر إليه (نصر) غاضبًا، فتابع وكأنما يبصق عليه الكلمات:

- إذا جاءك، فقل له بعد أن يصفو مزاجه، إن (طلائع بن رزّيك) يؤلب أمراء الجيش علينا، فإما أن يعزله أو يسمح لي بقتله.

ثم قال:

- سأخرج إلى حامية بلبيس، وحين أعود، أريد أمرًا حاسمًا منه بشأن (طلائع).

ثم تركه وانصرف.

***

في الليلة الأخيرة من شهر المحرّم، خرج الخليفة (الظافر) من الباب السّري لقصره متنكرًا، للقاء (نصر بن عباس) في داره. فتح باب الدار التي يحمل مفتاحها، ويحفظ أركانها عن ظهر قلب، ثم عبر حديقتها الواسعة التي تتوسطها فوارةٌ تستمد ماءها من بئر يجاورها. لسعته برودة رذاذها، وتعجب من أنها لا تزال تعمل حتى هذا الوقت من المساء. ولكنه تفاءل ومنّى نفسه بليلة تفور بالعشق، كفورة هذا الماء. صعد الدرج المؤدي إلى حجرة (نصر)، وصوت أقدامه يرن صداه في أرجاء البيت الخالي من الإماء والخدم. دلف إلى الحجرة، فوجد (نصر) يجلس على مقعد موشّى وظهره للباب، مرتديًا طرحة بيضاء، يفوح منها أريج العنبر. خلع الخليفةُ عمامته، فكشفت عن قميص قصير موشّى بالقصب، وتنحسر أكمامه عن عضدين ملفوفين رغم نحافته. اقترب من (نصر) وهو يقول في شوق:

- افتقدتك يا مهجة القلب.

ثم مسح على كتفي (نصر)، وهو يزيح الطرحة عن رأسه ببطءٍ متشممًا عبيرها بنشوة، وهو يقول:

- ما أطيب رائحتك، يا حشا الصدر!

فجأة استدار الرجل الجالس، فأفاق (الظافر) من نشوته مفزوعًا، حين لم يجده (نصر)، وقبل أن ينطق، شقَّ خنجرٌ مسمومٌ صدرَه واستقرَّ في قلبه. بينما كان الرجل يقول في قسوة:

- إنها رائحة الموت، يا حشا القلب!

وفي دقائق معدودة، دخل اثنان إلى الحجرة، تعاونا مع القاتل في حمل جثة الخليفة، ثم ألقوا بها في بئر المنزل، ووضعوا عليها حجرًا من الرخام.

***

عاد (عباس الصنهاجي) من بلبيس بعد أن سرى نبأ اختفاء الخليفة. أشار بأصابع الاتهام إلى إخوة الخليفة الذكور. جمعهم وجلس وبجواره ولده (نصر)، ثم سألهم وقد استبدّ به الشك والجنون:

- أين الخليفة (الظافر)؟

قالوا جميعًا:

- لا نعلم.

أشار (عباس) بإصبعه إلى (جبريل) أخي (الظافر) الذي يليه في الترتيب، في تهديدٍ، وقال:

- أعلم أنك تحقد عليه، وترغب في الإمامة من بعده.

رد (جبريل)، الذي كان يكره (عباس) وابنه (نصر)، في قوة:

- كذبتَ أيها اللقيط، يا ربيب (ابن السلار)! بل أقسمنا على طاعته ونُصرته.

ثم أردف:

- بل سلْ أمين القصر أين ذهب الخليفة قبل اختفائه.

قام (عباس) منتفضًا ونادى على أمين القصر وقف الأمين أمامه غير خائف. سأله (عباس):

- أين ذهب الخليفة آخر مرة؟

قال الرجل في وضوح، وهو ينظر إلى (نصر) في ازدراء:

- ذهب إلى دار ولدك (نصر)!

صرخ (عباس):

- كذبتم، أقسم بالله إنكم لكاذبون! وقد اتفقتم جميعًا على ذلك.

ثم نادى على غلمانه الخواص، وقال:

- يا غلمان!

انقض الغلمان على الحجرة، وتأهبوا بالسيوف، فقال وهو يشير إلى إخوة (الظافر):

- اقطعوا رؤوس هؤلاء، فقد قتلوا مولانا الخليفة (الظافر).

***

في القصر الغربي بالقاهرة، كانت (ست القصور) أخت الخليفة (الظافر)

تجلس باكية، وتتساءل غير مصدقة: كيف تداعت حياتها هكذا فجأة؟ أيعقل أن يُقتل أخوها الخليفة، وإخوانها الثلاثة هكذا بين عشية وضحاها؟ كيف جرؤ (عباس) على أن يُطلع ابن أخيها -الذي لم يبلغ السادسة- على جثث أعمامه، ويقول له: هؤلاء من قتلوا أباك؟ وكيف جرؤ على إقامة حفل تنصيب ابن أخيها، خليفة للمسلمين، وجثة أخوها (الظافر) لم يجدوها بعد؟ ارتعدت متشنجة، ولكنها بعد أن هدأت، مسحت دموعها، وأكملت زينتها، وتهيأت لحضور الحفل. فمهما يكن من شيء، يجب أن تكتم أحزانها وتجلس إلى جوار ابن أخيها الصغير الذي لم يبلغ السادسة بعد، في الحفل، فهي وصيته الشرعية، وستؤدي مهمتها التي أوكلت إليها بقوة، مهما كانت الأحزان. جلست في قاعة الذهب، على الوسادة الشريفة، إلى جوار الطفل، الذي كان يرتجف صامتًا منذ رأى جثث أعمامه في الصباح. قبضت على يده، لتشعره بالطمأنينة، بينما كان صاحب الدست يتلو نص تنصيبه، ومنحه لقبه: الخليفة (الفائز). توالى الأمراء يقبلون الأرض بين قدمي الطفل، الذي لم ينطق، ولم ينطق بعدها أبدًا، وكأنما أصابه التلعثم للأبد. كان (عباس) آخر من تقدم للبيعة. فقبّل الأرض بين قدمي (الفائز)، ثم قال بصوته الجهوري:

- متى تظهر على الرعية يا مولاي الخليفة؟

انتفض الطفل من صوته، فقبضت (ست القصور) على يده أكثر وقالت في حسم:

- ليس قبل أن يُعثر على جثة الخليفة (الظافر)، وتقام له جنازة تليق به.

أحنى رأسه بعد أن رأى الإصرار في عينيها، وقال:

- أمرك يا سيدتي.

في المساء كانت تقف أمام المرآة، تقطع ضفائر شعرها وهي تبكي، وضعتها في حقيبة من القماش، ثم وضعت معها رسالة، أغلقتها ثم خرجت، ونادت على حارسها السوداني الضخم (عنبر الريفي) وقالت له:

- خذ هذه الحقيبة، وأعطها للوالي (طلائع بن رزيك) في الصعيد. وحذار أن يطلع أحدٌ على ما فيها.

انحنى في طاعة، ثم دس الحقيبة في جيب صدره وانصرف.

* * * * *

الفسطاط

(٤٢)

واحكوا يا ناس عن ولد

اسمه (علي السلّار)

قتلوه ذئاب البلد

وحفيد خسيس غدّار

قام من عرينه أسد

صالح (رزيك) مغوار

قتل الديابة ووعد

يمحي بيته العار

فغنّوا يا ناس للولد

اللي أخد بالتار

تغنى المطرب المصري بتلك الأبيات المبهجة بلهجة عامية مصرية، وهو يعزف على الربابة، فأثارت كلماته آهات الناس الجالسة في حانة منقن وقد امتلأ وجدانهم بنشوة الكلمات المشبعة بعرق البلح. كلمات بسيطة عفوية، صاغها شاعر لا يعرفه أحد، ثم انتشرت بين الناس وفي الحانات، انتشارَ النار في الهشيم. تساءل (يوسف) الذي كان يجلس في الحانة، كم من العمر سيمضي وسيرة (علي بن السلار) و(ابن رُزّيك) تتردد على ألسنة الناس! عجيب أمر الشعوب حينما تُخلّد حكامها في أسطورة يتداولها الناس بمشاعر فطرية، لا يحكمها عقل ولا تصدر عن منطق. فالحقيقة غير الأسطورة، وقد تظل الحقيقة مطمورةً أحيانًا، لأن من يملكونها لا يملكون القدرة على الإفصاح عنها. وكان هو واحدًا من هؤلاء الذين يملكون حقيقة ما حدث بعد مقتل (علي بن السلار)، وتحديدًا في ليلة قتل الخليفة (الظافر). في تلك الليلة، كان يقف إلى جوار (موهوب) أمام باب دار (نصر بن عباس) وقد أخفى كلٌ منهما وجهه بلثام، يراقبان الطريق وينتظران خروج (حمدان) ورجاله من البيت. فجأةً ظهر (حمدان) والرجال، وهم يهبطون الدرج في سرعة، قال (موهوب) في لهفة حينما رآهم:

- هل تمَّ كل شيء على ما يرام يا (حمدان)؟

- نعم، ترقد جثته في قاع البئر في الحديقة.

- وأين (نصر)؟

- مقيدٌ ومكمَّمٌ في حجرة أخرى.

ثم أشار إليهم، وقال:

- هيا أسرعوا، وتوخوا الحذر قدر المستطاع، فلا تظهروا في الحانة أو

السوق في الأيام القادمة.

همّوا بالتحرك، ولكنهم فوجئوا بطفل يخرج من البيت ويقف أمام الباب وهو يرتعد خوفًا. قال (حمدان) في حنق:

- اللعنة! من هذا؟

انطلق أحد الرجال نحوه فأمسك بالطفل، الذي لم يُبد أي مقاومة سوى البكاء في صمت. هزّ (حمدان) رأسه في غضب، ثم قال:

- ربما رأى كل شيء!

تمعن (يوسف) في وجه الطفل، فخفق قلبه. لا يمكن أن تخطئ العينُ هذا الشبه بينه وبين (يوستينا). استلّ (حمدان) خنجره، ونظر نحو الطفل، فقال (يوسف) في هلع:

- ماذا تفعل؟

قال (حمدان):

- قد رأى ما لا ينبغي رؤيته.

قال (يوسف) مذهولًا:

- هل ستقتل طفلًا؟ من أدراك أنه رأى شيئًا؟

- سيقتلنا بقاؤه حيًا.

- هولا ذنب له.

ثم قال في رجاء:

- اتركه لي، وأعدكم ألا يعلم بوجوده أحد.

ترددوا، نظروا إلى بعضهم طويلًا، ثم قال (موهوب) في تحذير:

- حذار يا (يوسف)! قد يضيع كل شيء بسبب هذا الطفل.

قال (يوسف) في تأكيد:

- لن يحدث شيء. أعدكم بذلك.

اقترب (حمدان) من الطفل المرتعد، انحنى نحوه ثم كتم أنفاسه بخرقة مبلولة حتى سقط فاقد الوعي. ثم قام ونظر إلى (يوسف) قائلًا:

- حسنًا يا (يوسف)! خذه معك، ولكن أتمنى ألا يكون هذا الولد قاتلك في يوم من الأيام.

***

انصرف الشاعر من الحانة، فهدأت الجلبة وعاد الناس إلى سكرتهم. تأمل (يوسف) الوجوه التي غفت مستأنسةً بنسمات الصيف التي تداعب الأجفان، وهدوء الليل في جبل يشكر ثم أخذ يتخيل قصةً وحياةً وراء كل وجه من هذه الوجوه، قصةً تدفع صاحبها إلى الهرب من قيد الواقع إلى تلك اللحظات المخملية التي تخلو من القيود. قد تكون السعادة أن نحيا بغير قيود، ولكنها سعادةٌ لا يدركها إلا السكارى، فحين يستيقظ العقل، يضع ألف قيد وقيد، وكأنما العقل هو القيد الأول في الحياة تأخر الوقت، فقرر أن يغادر الحانة من أجل (الحسين) الذي لا ينام إلا بعد أن يأكلا سويًا.
خلال الأشهر الماضية، كان (الحسين) رفيقه وصديقه ومؤنسه. اطمأن (الحسين) لـ (يوسف) الذي أنقذه من (الرجل البغيض) كما كان يسميه، واطمأن (يوسف) أن الطفل لا يعرف شيئًا عما دار في بيت (نصر) في تلك الليلة. عزله في البيت عدةَ أشهر وحذره من الخروج، حتى لا يناله الأذى، فانصاع الطفل الذي بدا أنه معتادٌ على العزلة. فبعد رحيل أمه عن

الإسكندرية، أخذه أبوه إلى القاهرة، ثم ألقاه في مبيت الخدم ونسيه. كانت خادمته هي نافذته الوحيدة على العالم، لم يعرف شيئًا عن حياة أمه من قبلُ سوى أنها كانت خادمةً في القصر ثم هربت. ولم يعرف شيئًا عن أبيه سوى أنه صاحب البيت الذي يعيش فيه، ولا يراه. ولذا حينما حكى له (يوسف) عن أمه (يوستينا)، استمع إليه بشغف، وشعر بسعادة بالغة حينما وصفها له. أصبح عقله -الفارغ من الذكريات- كرقعة فارغة من البردي يُسطر (يوسف) فيها ما يشاء ويمحو منها ما يشاء ويغفل عمّا يشاء وبقدر ما حكى له عن (يوستينا)، بقدر ما أغفل الحديث عن أبيه (نصر) وجدّه (عباس) تعمّد (يوسف) ألا يذكر له شيئًا عنهما فأي عارٍ سيلحق به لو علم أن أباه انتهى به المطاف في قفص من حديد يُطاف به في شوارع القاهرة، قبل أن يشنقه (طلائع بن رُزّيك) على باب زويلة ويقطعَ رأسه. وأيّ خزيٍ سيلحق به لو علم أن جدّه (عباس) قد لجأ إلى فرنجة عسقلان خوفًا من (طلائع بن رُزّيك) ولكنهم أخذوا ماله وقتلوه، ثم أعادوا رأسه إلى القاهرة.

مرّ العام بسلام، ولم يعد في نفس (يوسف) من القلق على (الحسين) من شيء إلا هاجسًا كان يشغل عقله، وينخس ضميره من حين لآخر وهو: كيف سيربي (الحسين) دينيًا، هل سيربيه على مذهب أبيه الشيعي، أم على مذهب (علي بن السلار) السني؟ أم على دين أمه المسيحي؟ أم يتركه حائرًا كما عاش هو حائرًا؟

***

كان الليل قد أزف، فجلس في حجرته لينسخ الرسالة الأخيرة من الكتاب الذي تجاوزت مدةُ نسخه العام. شغلته الأحداث عن الوفاء بتسليم الكتاب في موعده، فاعتذر لصاحب الكتاب في آخر لقاء بينهما، ووعده بتسليم الجزء الباقي في خلال أيام. فتح الكتاب على خاتمته، ثم أمسك بريشة

الأوز البغدادي، ثم شرع ينسخ ذلك المُقتبس الأخير:

«واعلم أن أصحاب الجدل والمناظرات ومَن يطلب المنافسة في الرياسة، اخترعوا من أنفسهم في الديانات والشرائع أشياءَ كثيرةً لم يأتِ بها الأنبياء عليهم السلام، وما أمروا بها، ولكنهم ابتدعوها وقالوا للعوامّ من الناس: هذه سُنة الرسل عليهم السلام وسيرتهم، وحسّنوا ذلك لأنفسهم حتى ظنوا أن ما قد ابتدعوه حقيقةً، وظنوا بسخافة عقولهم أن الله قد ترك أمر الشريعة وفرائض الديانة ناقصةً حتى يحتاج هؤلاء إلى أن يتمّوه بآرائهم الفاسدة وقياساتهم الكاذبة واجتهادهم الباطل. واعلم أنه لا يُصلح بين أهل الديانات ولا تُزيل من النفوس العداوات والأحقاد إلا المعرفةُ بالله الحق، الذي يجمعهم على كلمة التقوى، ويدعوهم إلى سبيل الخلاص والرشاد».

* * * * *

(٤٣)

مرت أسابيع ولم يظهر (موهوب)، شعر (يوسف) بالقلق، لا سيما وأن باقي الرجال كانوا قد اختفوا أيضًا من حانة سنقر وكأنهم قد اتفقوا على ذلك. استطلع أخبار دمياط من التجار الوافدين على السوق، فعلم أن الوضع كما هو، فسفن الفرنجة تغدو وتروح، تُغير الشغب أحيانًا وتسطو على بعض المراكب أحيانًا أخرى. ولكن لم يقع حدث كبير يُفسر غيابهم المفاجئ. حتى كان ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى الحانوت، فوجد رسالةً تركها أحدهم مع (يحيى) دون أن يذكر اسمه. فتحها وقرأها فوجدها من عبارة واحدة، ومكتوب فيها:

- «أراك في خلوة الشيخ ابن الكيزاني».

عرف فيها خط (موهوب). وضع الرسالة في جيبه، وقال لـ (يحيى):

- انتظر حتى أعود.

كان يعلم أن هناك مكانًا يتجمع فيه رجال من المتصوفة يُسمى بخلوة (ابن الكيزاني) تقع على مشارف جبل المقطم في أرض بنو قرافة، وبجوار قبر الإمام الشافعي. علم ذلك من أفواج الصوفية التي كانت تفِد إلى الفسطاط في شهر ربيع الأول، قاصدةً خلوة الشيخ. كما أن (موهوب) كان يحمل إليها العسل الجلاب الذي يأتي به من قوص في أيام الأعياد والموالد.

خرج من سوق الفسطاط واتجه شمالًا وشرقًا نحو حي بنى قرافة. الحي يمتلئ بمقابر المسلمين التي تجاور قبر الإمام الشافعي أملًا في الصحبة والشفاعة. المنازل المأهولة بالسكان قليلةٌ جدًا، فأغلب بنو قرافة الذين كانوا يسكنون تلك الأرض قد غادروها، واشتروا بيوتًا أخرى من الحجر في الفسطاط والقطائع، واستبدلوا بحياة البداوة حياة الحضر وبقيت الأرض على اسمهم.

وصل إلى مكان الخلوة، التي كان يراها لأول مرة. عرفها من البنود الخضراء التي كانت ترفرف على سطح بيت قديم يُحيط به سور. دلف من الباب، فشعر بسكينة الخلوة، الصحن الواسع المشمس الذي يتوسطه بئر ورواق الأعمدة المسقف بالخشب المحيط به، ورجال الخلوة الذين استلقى بعضهم على ظهره نائمًا حتى الضحى، بينما جلس البعض الآخر يتمتم بالذكر والتسبيح. رأى (موهوب) يقف أمام المبنى الوحيد في الخلوة، الذي يبدو على شكل حجرات، أسرع نحوه وصافحه، ثم سأله في صوت خافت حتى لا يخدش صفاء المكان:

- أين كنت طيلة الأسابيع الماضية؟

قال (موهوب):

- كنت في الإسكندرية!

عقد حاجبيه وسأله في تعجب:

- لماذا؟ هل كل شيء على ما يرام؟

أجاب (موهوب) في خفوت:

- نعم، ولكني كنت في انتظار رسول من (نور الدين محمود).

رفع حاجبيه في دهشة، وقال:

- (نور الدين محمود)؟

حكى له في همس أن (نور الدين محمود) قد أرسل إليهم في دمياط يطلب أن يرسل أحد رجاله لمقابلة الشيخ (ابن الكيزاني). ولأن قادته يعلمون ما بينه وبين الشيخ (ابن الكيزاني) من مودة، عهدوا إليه بنقل ذلك الرسول من الإسكندرية إلى خلوة الشيخ، ثم إعادته سرًا إلى الإسكندرية.

قال (يوسف) متعجبًا:

- وما علاقة الشيخ (ابن الكيزاني) بـ (نور الدين محمود)؟

قال (موهوب) في خفوت:

- الشيخ (ابن الكيزاني) سُني المذهب، ولكنه حبّب المصريين في عشق آل البيت بشعره، وأدبه المتصوّف، وظني أن (نور الدين محمود) يريد أن يدعم مذهبه، حتى يصرف العوامّ من أهل مصر عن اتباع طرق الشيعة في حب آل البيت.

لم يفهم (يوسف) الفرق بين حب آل البيت بطريقة (ابن الكيزاني)، وحبهم بطريقة الشيعة، ولم يهتم كذلك بالسؤال، ولكنه سأل متعجبًا:

- وما الذي سيعود عليكم من ذلك؟

قال (موهوب) مبتسمًا:

- سيمدنا (نور الدين محمود) بالسلاح وبالنفط الطيارمي

ثم قال في سعادة:

- أخيرًا سنمتلك السلاح للدفاع عن أرضنا!

شعر (يوسف) أيضًا بالسعادة. ولكن (موهوب) فاجأه قائلًا:

- اسمع يا (يوسف)، آن الأوان أن تشارك في مقاومة الفرنجة في دمياط.

تعجب (يوسف)، وقال:

- كيف؟

قال (موهوب):

- نريدك أنت أن تتولى البريد بيننا وبين (نور الدين محمود). وسأجعلك تقابل رسوله الآن.

قال مندهشًا:

- أنا؟!

لم تكن دهشته من الطلب فحسب، وإنما من تصاريف الأقدار أيضًا، كم من مرة راسل فيها قصر (نور الدين محمود) في دمشق، وهو في دار الإمارة بالإسكندرية! والآن يطلب منه (موهوب) أن يراسله من أجل أهل دمياط، قال له:

- لماذا اخترتني؟

- لتصيد سفنُ الفرنجة الحمامَ الزاجل قبل وصوله إلى دمياط، ونريد أن نبتعد بمسار البريد عنهم.

ثم أضاف:

- كما أنني أعلم ولعك بالحمام الزاجل، ولن يشك أحد في وزّاق يعيش في الفسطاط.

شعر (يوسف) بالحماسة، وقد استعاد ذكريات الأيام الخوالي، فسأله:

- وأين هذا الرسول؟

قال (موهوب):

- يجلس إلى الشيخ منذ الصباح.

ثم أردف متعجبًا:

- العجيب أنه رغم كونه شابًا لا يتجاوز الثامنة عشرة، إلا أنه يتحدث إلى الشيخ بعمق، ويناقشه في شعره ومذهبه، وكأنما أحاط بفنون الأدب والمذاهب كلها!

سأله (يوسف) بفضول:

- من هذا الشاب؟

قال (موهوب):

- شابٌ من الأكراد، شديد الفطنة والذكاء، اسمه (يوسف)، (يوسف بن نجم الدين أيوب).

* * * * *

تتابعت أسراب الحمام الزاجل بين الفسطاط ودمشق، تحمل رسائل اليوسفين: (يوسف بن صدقة) و(يوسف بن أيوب)، اللذين اتفقا فيها على كل شيء: موعد الوصول، ومكانه، وطريقة النقل أيضًا. اتفقا على أن تصل قافيجع النفط الطيار عن طريق البر فذلك أدعى ألا تقع في يد أسطول الفرنجة الذي يجوب شاطئ مصر الشمالي من الفرَما وحتى دمياط. كما اتفقا أن تسير القافلة عبر طريق عيذاب في أشهر الحج. فالزحام في تلك الأشهر يجعل التخفي بين القوافل أمرًا يسيرًا.

دَبَ الحماس في (يوسف)، الذي كان يقضي الصباح الباكر في برج الحمام الصغير الذي أقامه في حديقة منزله، يتفقد الرسائل التي تصل إليه من الشام، أو من دمياط، ويرد عليها. ثم يخرج إلى حانوته، كي يمارس عمله في النسخ والقراءة. العجيب أن (الحسين) قد تولّد لديه شغفٌ مماثل، وأصبح يرافقه كظله في كل شيء يفعله. وحينما تساءل الناس عن هذا الطفل الذي ظهر معه فجأةً، أجابهم بأنه طفلٌ يتيمٌ يكفله. فتعجبوا من أن يكون (يوسف) قبطيًا ويكفُل طفلًا اسمه (الحسين)، فأزال الحرجَ بأن عهد إلى أحد المشايخ في المسجد العتيق بتحفيظ الطفل القرآن، وتعليمه فروض الدين. ويومًا بعد يوم زال الحرج، وانتفى الغرض، وأطلق الناس على الطفل اليتيم: (الحسين ابن يوسف بن صدقة). وكأنما جمع الطفل في اسمه أضدادًا تتباعد بينها وبين بعضها، بُعد المجرات والنجوم.

***

حدد له (يوسف بن أيوب) الأسبوع الأول من شهر شوال كي يرسل قافلة النفط الطيار. أخبره أن رجالًا من البِجا سوف ينقلون القافلة من عيذاب إلى قوص. اختيار قبائل (البِجا) كان موفقًا، فأغلب هذه القبائل من

المسيحيين، الذين يجوبون الصحراء الشرقية بقوافلهم، يعرفون مسالكها ودروبها، ويظهرون في أسواق قوص وعيذاب، فلا يختلطون بالناس، ولا يتحدثون للغرباء، ربما لصعوبة لغتهم. علم من (موهوب) باقي الخطة، فزجلجات النفط الطيار سوف تُخبأ بين جرار العسل الجلاب، ثم تنتقل من قوص إلى دمياط بالمراكب. ولكنه فوجئ بموهوب يطلب منه الذهاب إلى قوص بدلًا منه لاستلام النفط، فقال له متعجبًا:

- أنا يا (موهوب)؟

- هذا أنسب الحلول يا (يوسف)، فأنت غريب عن قوص، ولا يعرفك أحد، ولن يثير بقاؤك هناك العجب. أما أنا فيعرفني التجار والبحارة، ورجال الحِسبة والبصاصون، وسيرصدون كل خطوة أقوم بها.

- أنا لم أسافر إلى قوص من قبل، ولا أعرف شيئًا عن تجارة العسل.

قال (موهوب):

- لا تخش شيئًا، سأرسلك إلى تاجر عسل قبطي أعرفه جيدًا، اسمه (مينا)، ستشتري منه العسل، وتضع الجرار في منزل مهجور لرجال البجا، حتى يصل إليك الرفاق لنقلها عن طريق النهر إلى دمياط.

صمت (يوسف) متفكرًا، ثم قال:

- وكم سيستغرق ذلك الأمر من وقت؟

قال (موهوب):

- شهر.

قال (يوسف) مشدوهًا:

- شهرا وماذا عن (الحسين)؟!

انتبه (موهوب) إلى الطفل الذي لم يضفه في حساباته وهو يضع خطته. فصمت قليلًا متفكرًا، ثم قال:

- اتركه في خلوة الشيخ (ابن الكيزاني).

قال (يوسف):

- ماذا؟

قال (موهوب) في حماس:

- صدقني، سيسعد الطفل بهدوء الخلوة، وبصحبة الشيخ، وسيتكفل الأخوة برعايته حتى تعود!

صمت (يوسف) متفكرًا، ثم قال:

- دعني أتحدث إليه أولًا.

قال (موهوب) معاتبًا:

- لا تعلّق أمرًا كهذا على موافقة طفل يا (يوسف)!

قال (يوسف):

- عاهدت نفسي أن أرعاه ما دمت حيًا!

نظر إليه (موهوب) متعجبًا، وقال:

- ما سرّ تعلقك بهذا الطفل منذ رأيته؟

قال (يوسف) وهو يشرد ببصره:

- حين أراه أتذكر قلبًا أحبّني وخذلته.

قال (موهوب):

- من؟

تنهّد، ثم قال:

- أمه! (يومستينا) جارية (نصر بن عباس).

اندهش (موهوب) ثم قال:

- عشقتَ جاريةَ (نصر)؟!

- نعم، وهذا الولد هو (الحسين بن نصر).

فغرَ (موهوب) فاه، وقال:

- ويحك يا (يوسف)! أخذتَ ولدَ (نصر)!

- بل ولد (يومستينا).

- وأين هي الآن؟ هل قتلها؟

قال في وجد:

- كلا ولكنها هربت ولم تعد.

نظر إليه (موهوب) متعجبًا، ثم قال:

- ظننتك تزهد في النساء، ولكني اكتشفت أنك عاشقٌ متيّمٌ في هواك!

تنهد ثم قال شاردًا:

- أتدري يا (موهوب)! إن القلب يألف كلّ فقدٍ، إلا فقدان من أحبنا

فخذلناه!

ربت على كتفه، وقال:

- لا تبتئس، فمن يدري! لعلّ الله يجمع بينكما.

* * *

أعدّ العربة ووضع عليها متاعه. أخذ معه قفصًا به أزواجٌ من حمامه الزاجل، ولم ينسَ أن يأخذ أوراقًا من البردي، وريشته ومحبرته، وبعضًا من عشبة القنّب الهندي؛ تحسبًا لأي طارئ. ودّع (الحسين) وهو يوصيه بأن يكون مطيعًا في غيابه. ثم أعطاه ذكرًا من الحمام الزاجل، حبسَ أنثاه معه في قفصه، وقال له:

- قد علّمتك إرسال البطاقة بالحمام ليومٍ كهذا. إذا وقع أمرٌ جللٌ، أرسل لي بطاقةً تحت جناح هذا الذّكر وسيصل إليّ أينما كنتُ!

هز (الحسين) رأسه وهو يمسك دموعه، فقال له (يوسف):

- أنت لست خائفًا؟ أليس كذلك؟

هزّ (الحسين) رأسه، وقال:

- بلى، ولكني لا أريد أن أفارقك.

احتضنه في قوة، وهو يقول:

- حسنًا، ما دامت هذه الدموع دموعَ شوقٍ فأطلقها، فأنا أيضًا مشتاق إليك يا بني.

ثم قبّله، وانصرف.

رسالة (يوستينا) الثالثة

أكتب إليك يا (يوسف) الآن من فوق جبل طرسوس، وأنا أشعر بالخوف! هربت من قريتنا مع أمي و(دميانة) وبعض الجيران، بعد أن بسط الموت رداءه على سماء القرية. أتتذكرُ يومَ أخبرتُك أني أشعر أن رائحة البحر تبدو كرائحة الحنوط؟ أدركتُ الآن أني لم أكن واهمةً، فيبدو أن للموت رائحةً تسبقه قبل أن يحطّ رحاله في قرية من القرى! أتى الطاعون إلى قريتنا، فانتقل من دارٍ إلى دار، وملأ سماءها بالنواح والصراخ، فهربنا مع بعض الجيران إلى الجبل وتركنا دورنا على الساحل، ظنًّا منا أن الموت لا يصعد إلى الجبال!

أتعلم يا (يوسف) أني قد تمنيتُ الموت يومَ غادرتُ أرض مصر؟ كنت أتمنى أن تتحرر روحي من ذلك الجسد الذي يأسرها، كي أطوف في فضاء فسيح لا يحده زمان ولا مكان، ولا يحول فيه بيننا حائل. كم تخيلتُ روحي، بعد أن تتحرر، طيفًا يزورك في منامك وقتما يشاء، أو خيالًا يرافقك في اليقظة، ويداعب قلبك بالذكريات. ولكني الآن أخشى الموت! أخشى أن يختطف (دميانة) ويتركني، وأخشى أن يختطفني ويتركها، الموت قبيحٌ حينما يتعلق الأمر بمن نحب. منذ أسبوع قضمت الفأرةُ أصبع امرأة كفيفة تسكن إلى جوارنا، واليومَ يُشيّعها أولادها بالبكاء والعويل. بكيتُ على المرأة التي كنتُ أحبها، ولكني ازددت رعبًا. أشعر بالفزع مع كل خشخشةٍ تحفّ إلى جواري في جوف الليل، فأظل متيقظةً حتى الصباح. أنظر إلى نفسي وإلى أمي وإلى (دميانة)، وأتساءل من التالي؟ أشعر بالخوف يا (يوسف)! وأشتاق إلى ضمةٍ من صدرك. سأظل متيقظةً حتى الصباح، أكتب اسمك وأردده، فهذا كفيلٌ بأن يُشعرني بالاطمئنان. قل لي يا (يوسف)، هل سيأتي يومٌ نجتمع فيه أنا وأنت و(دميانة)؟

قرية (أبو حِنّس)

(١١٥٥ ميلاديًا)

(٤٥)

طيلة الطريق إلى (أبي حنّس) وهي تشعر بأنها تخلع أردية الذكريات، وتُسقطها تحت خِفاف الناقة التي تُقلها من (قوص) إلى (أبي حنّس). شعرت حين وصلت إلى القرية بأنها قد تجردت من كل شيء يربطها بحياتها الماضية؛ الأهل، والبيت، ورفقة الدين والمال الذي لم يتبقَّ منه سوى القليل، ورفيق للرحلة عمّا قليل سيرحل هو الآخر ويتركها. أما هو فكان يشعر بالقلق على (الحسين) الذي تركه وحده طيلة تلك الفترة، ويشعر بالقلق على مراكب النفط الطيار التي رحلت إلى دمياط، ولا يدري هل وصلت أم لا.

وصلا إلى دير (أبي حنّس) قرب العصر عقلَ (يوسف)الجوادَ وأناخ الناقة. فنزلت (وسن) وسارت وراءه. اتجها نحو الكنيسة، فرأيا رجلًا أصلع يجلس على باب الدير أمامه كومةٌ من الحطب المشتعل عليها قِدر يغلي، وتفوح منه رائحة النعناع. سأله (يوسف) عن قيّم الكنيسة (بشندي) فقال:

- أنا هو.

أخبره أنه قد جاء إليه بتوصيةٍ من (إبراهيم بن شنودة)، تاجر الشموع في قوص. صمت الرجل وأضاق عينيه، فبدتا كثقبين في وجهه الأملس الخالي من الشعر والحاجبين، ثم قال متأوهًا وكأنه يسحب الذكريات من جُبٍّ عميق:

- يا الله! (إبراهيم بن شنودة)، هل لا يزال حيًا؟

قال (يوسف):

- نعم، لا يزال حيًا، ويتذكرك بالخير وهو من أرسلنا إليك!

رفع (بشندي) القدر الساخن من فوق الحطب ثم وضعه على الأرض. ثم قال مستدعيًا الذكريات، وهو يصب منقوع النعناع المغلي في قدح من النحاس:

- آخر مرة التقيته كان منذ أعوام طويلة، أتى محملًا بخمسمائة شمعة نذرها للقديس (أبي حنّس)، بعد أن فتح الرب عليه بالمال.

ثم تنهد قائلًا:

- تتفرق السبل بالناس، ثم يعودون إلى الأصل. هل أنت ابنه؟

- كلا، أنا صديق له، وقد أتيت بالسيدة من (قوص)، فهي تريد أن تلتحق بخدمة الدير.

هزّ (بشندي) رأسه في أسف، وقال:

- للأسف دير الراهبات مغلقٌ منذ سنوات طويلة، ماتت الأم (يؤانا) آخر الراهبات بالدير، فأغلق المكان ولم يعد به مبيتٌ للفتيات.

ندّت عن (ومن) نهنهةٌ بها لوعةٌ، فالتفت إليها (بشندي)، ثم قال:

- عمومًا يمكنكما مقابلة الكاهن (سمعان)، بعد أن يعود من إبراشية الأشمونين.

سأله (يوسف):

- متى يعود؟

- لا أدري، ربما أسبوعًا أو أكثر، فجميع الكهنة يتجمعون الآن في

الأشمونين لاختيار الأسقف الجديد للإبراشية.

تبادل (يوسف) نظرات الخيبة مع (وسن)، ثم سأله لآخر مرة:

- حسنًا، هل لك أن تخبرني أين منزل (إبراهيم بن شنودة)؟

سكب (بشندي) الثمالة الأخيرة من كأس الشؤم، وقال:

- ستجد بيتًا متهدمًا بجوار الساقية القديمة في مدخل القرية. هل تريد أن أرسل معك غلامًا؟

- يكُن كرمًا منك.

نادى على صبي صغير فرافقهما إلى هناك. وصلا إلى الدار فهالهما حالُها؛ تهدمت أغلب جدرانها، ولم يتبقَّ منها سوى حجرة وحيدة مُسقَّفة جهة الجنوب، وكأنما أتى عليها زلزال. عقلَ (يوسف) الدابتين، وسار بين الركام، وصل إلى الحجرة المتبقية، فوجدها تمتلئ بالحجارة والأتربة، فعاد إلى (وسن) وقال:

- البيت يحتاج إلى الكثير من الترميم. ولا آمن دخول الحجرة، فقد تكمن بها الأفاعي.

سألته:

- ماذا نفعل؟

تنهد، ثم قال:

- نضرب خيمتنا هنا، وغدًا أبحث عن عُمال كي تنظف البيت، وتعيد بناء ما تهدّم.

نظرت إليه بامتنان واطمئنان لوجوده معها، ولكن القلق ساورها من جديد

حينما تذكرت كلام القيم. وخشيت أن تفقد حلمها، فقالت:

- ماذا لو رفض الكاهن أن ألتحق بالدير؟

قال لها:

- لا تتعجلي الأخبار السيئة، الآن نوفر مكانًا للسكنى، ثم نرى ما الذي تحمله الأيام القادمة.

* * * * *

(٤٦)

في اليوم التالي، عاد (يوسف) ومعه رجلان عاوناه في إزالة الركام عن البيت. نظفوا الحجرة الوحيدة الباقية من بقايا الهدم والأتربة، ثم وضعوا على حلقها مصراعين من الخشب، شعرت (ومن) براحة بالغة حينما أغلقتهما، وهي تجلس في مكون ومستتر بين جدران أربع لأول مرة بعد أيام من النوم في الخلاء. في اليوم التالي، عكف (يوسف) مع العمال على انتقاء الحجارة، التي تصلح لإعادة بناء سور البيت والجدران المهدمة، من بين الأنقاض. بينما كانت (ومن) تستكشف مطح البيت. فرحت حين وجدت مستوقدًا فوق مطح الحجرة، فقامت بتنظيفه، ثم جمعت بعض الحطب، وملأت به الموقد. رآها (يوسف) تخرج، فسألها:

- إلى أين؟

- سأذهب إلى السوق كي اشتري دقيقًا وسمنًا وبعض الطعام.

تردد قليلًا، ثم قال:

- هل تريدين أن أرافقك؟

أجابت:

- كلا، سأتدبر أمري!

بعد العصر كانت رائحة الخبز تفوح من المستوقد، ثم تلتها رائحة القلقاس والمرق. وقفت (ومن) أمام الباب، ثم نادت على (يوسف)، الذي كان ينقد العمال أجرة يومهم، ويحثهم على البدء مبكرًا في اليوم التالي. أشارت إليه (ومن) كي يتبعها، فدلف إلى الحجرة، فوجدها قد بسطت صحيفة طعام على الأرض، بها أصنافٌ كان يرى مثلها على مائدة أمه في عيد الغطاس. ابتسم وقال:

- كذّبتُ أنفي حين شممت رائحة القلقاس، وقلت إن عيد الغطاس لم يقترب بعدُ.

أطرقت في خجل، وقالت:

- أردتُ أن أطبخ لك طعامًا ساخنًا بعد يومين من الجبن والخبز الجاف.

كان يشعر بالجوع حقًّا، ويشتاق جوفه للمرق الساخن، جلس متربعًا وهو يقول:

- أحسنتِ يا (ومن).

ثم اقتطع قطعةً من رغيف الخبز ووضعها في فمه، وهو يقول:

- ألن تجلسي لتأكلي؟

ترددت قليلًا، ثم حسمت أمرها وجلست. لم يحدث أن تناولت الطعام مع رجلٍ غريبٍ في حياتها. طعام النساء في بلدتها كما القوط، لا يصح أن يطلع عليه الرجال الغرباء. تذكرت القبو المظلم الذي جمعهما من قبل، وتذكرت قماط القماش الذي لفه حول صدرها العاري، فذابت خجلًا، اقترب هذا

الرجل منها كما لم يقترب أحدٌ منها من قبل. كان بالنسبة إليها من قبلُ خيالًا ملثمًا في قبوٍ مظلم، أما الآن فهو حقيقة، لا يفصلها عنه سوى عرض صحيفة الطعام، وهذا كفيلٌ بأن يُشعرها بالاضطراب. قطعت رقيقةً من الخبز مضغتها ببطء وهي تتجنب النظر إليه. ولكنها فجأةً توقفت حينما ندّت منه آهةُ استحسانٍ لطعم القلقاس، ثم قال:

- لم أذق طعامًا جميلًا كهذا منذ ماتت أمي.

فارت في وجهها دماء الخجل، فغمغمت قائلةً:

- أظن أن ذلك من تأثير الجوع، فأنا لا أجيد الطبخ!

قال جادًا:

- طهيكِ أفضل بكثير من طهي خادمتي.

فهمت من طيات كلامه أنه ربما يكون غير متزوج، ولكنها لم تستوضحه، بل قالت:

- تعلمتُ من مربيتي طهيَ بعض الأصناف. ولكني لم أبلغ بعدُ معشار مهارتها.

ثم تنهدت، وقالت:

- لا أدري كيف حالها الآن.

قال:

- أظن أن الشيخ (إبراهيم) سيعتني بها ويخبرها أنك بخير.

ثم أردف:

- المهم أن تسير الأمور بخير قبل أن أرحل!

نظرت إلى عينه مباشرةً لأول مرة، ثم قالت مرتبكةً:

- متى ترحل؟

- سأبقى أيامًا حتى ينتهي بناء البيت، ويعود الكاهن من الأشمونين!

نظرت إليه بامتنان، ووجدتها فرصةً كي تسأله السؤال الذي كان يُحيّرها طيلة الأسابيع الماضية:

- لماذا أنقذتني؟

قال مبتسمًا:

- تقصدين في المرة الأولى، أم في الثانية؟

قالت:

- في كل وقت، فأنت لا تزال تقف إلى جواري كملاكٍ أرسله الرب لي.

مسّت كلماتها قلبه، فوضع الطعام من يده، وقال:

- في المرة الأولي كنتُ مضطرًا؛ رأيتكِ أمام البيت، فخشيتُ أن ينكشف أمري. أما في الثانية، فكنت أشعر نحوكِ بالذنب!

ترددت قليلًا قبل أن تسأله ما كان يحيك في صدرها:

- ما الذي فعلته، حتى يغضب قائد العسس بهذا القدر؟

قال متنهدًا:

- من الأفضل ألا تعلمي، الجهل بالأمر أيسر من محاولة إخفاء معرفته.

لم تُصن ولكنها قالت:

- أيًا ما فعلتَ، أنا أثق أنك رجل نبيل.

ثم أظهرت له قلادةَ الصليب التي أعطاها لها في القبو، وتابعت:

- كما أنك قريب من الرب، فمن يحمل الصليب حول عنقه، يكُن دومًا في حما الرب.

ذكّرته القلادة بأمه، وربما أحس حين رآها حول جيدهابالشبه بينها وبين أمه؛ لديه اعتقادٌ بأن كل نساء القبط في الصعيد يحملن الملامحَ نفسَها: العنقَ الطويل، والجبهةَ البارزة، والخدودَ النحيلة الغائرة. أرضٌ بِكرٌ لم تتلون بالزائرين عليها، بعكس نساء الشمال التي تتباين ملامحهن، وكأن أسلافهن قد أتين من بقاع شتى. قال:

- الحق أني كنت أحملها لأن أمي (ورد) لم تخلعها من جِيدها طيلةَ حياتها. أتدرينَ أن حروف اسمَها منقوشةٌ بالقبطية على ظهره؟

- ولماذا منحتها لي؟

- سمعتكِ تُصلّين وأنت بين الغفلة واليقظة، فأدركتُ أنكِ بحاجة إليه.

همّت أن تخلعها، وقالت:

- تستطيع أن تستعيدها الآن.

أشار إليها وقال مبتسمًا:

- كلا، احتفظي بها، أستطيع أن أتدبر أمري بدونها.

شعرت بالضيق من عبارته، تجرأت وسألته:

- هل أنت من الأرثوذكس؟

- أمي كانت من القبط الأرثوذكس، وأبي ملكاني.

- وأنت؟

- لا أدري.

- ماذا تقصد؟

- هو كما قلت: لا أدري.

- أتعجب من أن يحيا الإنسان دون أن يعرف مذهبه؟

- هل تعرفينه؟

- أعرفه يقينًا!

- ألا يُحتمل أن تكوني مخطئةً؟!

بُهتت من كلامه، فتنهّد، وقال:

- اليقين يأتي من الإدراك، والإدراك متغيّرٌ وليس ثابتًا! فما أدركه أنا غيرُ ما تدركينه أنتِ، فكيف يكون اليقين واحدًا لا يحتمل الخطأ؟

لم تهتم لكلامه، شعرت بخيبة أمل كبيرة فيه، ظنّته قبطيًا مخلصًا، فإذا به أحد المتنطعين على طريق الهلاك. الأفضل ألا تجادله، تعلمت ذلك من معلمة الدين: «افعلوا كل شيء بلا دمدمة ولا مجادلة»، انكمشت قليلًا في جلستها، وغمغمت بصوت خافت:

- لماذا لا تتحدث إلى كاهن؟

ابتسم، وقال:

- لماذا؟

غمغمت:

- لتطلب منه الغفران على ما قلت.

قال كي ينهي النقاش:

- معذرةً يا (ومن)! ولكن الأمر أكبرُ مما تظنين!

ثم شكرها على الطعام، وانصرف.

* * * * *

(٤٧)

خلال الأيام التالية، كانت (ومن) تتردد على الدير كل صباح، تحضر صلوات الأجبية التي يعقدها المعلم الأرشيدياكون، الذي ناب عن الأب (سمعان) في الصلوات. كانت تنتظر في الدير حتى تنتهي من الصلاة التاسعة، ثم تعود بعد الظهيرة، فتصنع الطعامَ وتضعه في صرة قماش، تعطيها لـ (يوسف)، ثم تغلق حجرتها فتمكث بها وحدها حتى اليوم التالي. منذ دار بينهما ذلك الحديث، وهي تشعر بأن جدارًا حاجزًا قد أصبح يفصل بينهما. اقتصر الكلام بينهما على تحية الصباح والمساء، وسؤال متكرر منه عن عودة الكاهن، وكأنه يتعجّل الوقت للرحيل. لم يضايقها ذلك، فهو حتمًا سيرحل، ولكن ما كان يضايقها هو أن يرحل وبينهما ذلك الفتور. لا تنسى المعروف الذي قدّمه إليها، ولا تنكر أنه كريمٌ شجاع، ولكن إيمانه المضطرب والمنقوص جعلها تخشى أن تبتدر معه حديثًا محفوفًا بالشكوك والهرطقة. كان يقضي أغلب اليوم في أعمال البناء، وآخر النهار يقضي ساعةً أو أكثر فوق السطح، في برج الحمام الذي أقامه، وهو يعبث مع زوجين من الحمام

الزاجل، يُطيرهما في الهواء، ثم يدعوهما بصفيره، فيقفان على يده التي تحمل الحبوب. أما في المساء فكان ينام في الفِناء بعد أن اكتملت الدار، وأصبح لها سور من الحَجر.

حتى كان ذلك اليوم الذي عادت فيه من الدير فلم تجده في المنزل. ظنت أنه قد خرج لبعض شأنه. صعدت إلى السطح، فصنعت الطعام ثم وضعته في صرة القماش، وانتظرت حتى يعود. انقضت الساعات واقتربت الشمس من الغروب، ولم يعد. خرجت إلى الطريق ووقفت تنظر نحو الأفق لعلها ترى عربته قادمةً، ولكن خاب ظنها، وعمّ الظلام دون أن يظهر. عادت إلى حجرتها وأوصدت الباب، وانكمشت في سريرها. لأول مرة تشعر بالخوف منذ جاءت إلى أبي حنّس ولأول مرة أيضًا تشعر بأنها وحيدةً في هذه الدنيا، رغم كل ما مرّ بها من أحداث أيمكن أن يرحل هكذا فجأةً دون وداعٍ ولا تنويه؟ رغم اختلافهما، كانت تشعر فيه بالمروءة، فكيف يرحل دون أن يطمئن على مصيرها؟

قضت ليلةً من السهد مليئةً بغفوات قصيرة، تستيقظ منها فَزِعةً، وهي تتوهم فيها طَرقًا على الباب، فتقوم مسرعةً، وترهف السمع وهي تسأل: «من الطارق؟» فلا تجد إجابة. وحين تسللت أشعة الشمس من فروقات النافذة الخشبية، فركت جفنيها المتورمين، ثم قامت واغتسلت وارتدت طرحتها وقررت أن تذهب إلى الدير فهذا هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تجد فيه سكينةً تُذهب عنها فزعها. استقبلها العم (بشندي) بصوته المرتفع، وهو يغسل وجهه من ماء يتقطر من بربخ يخرج من جدار الدير وهو يقول:

- ها قد أتيتِ مبكرًا يا (ومن)! هل علمتِ أن الكاهن (سمعان) قد عاد ليلة أمس؟

خفق قلبها، رحل (يوسف)، فعاد الكاهن! هل رتبتها الأقدار هكذا، أم أن

(يوسف) قد علم بعودة الكاهن فتعجّل الرحيل؟ قد يكون الاحتمال الثاني الأقرب إلى التصديق. فمنذ عرفته، وهو يعرف الكثير من الأشياء التي لا تعرفها. ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، كيف هان عليه أن يرحل هكذا بغير وداع؟

شكرت العم (بشندي)، ثم دلفت إلى الكنيسة بهدوء. جلست في ركن النساء الخالي في انتظار أن تبدأ الصلاة. بعد قليل ظهر الكاهن (سمعان)، وخلفه عدد من الشمامسة، وقد استعدوا لصلاة باكر. وقفوا أمام الهيكل، ثم قرأ الكاهن الصلاة الربانية، ثم صلاة الشكر ثم مزامير الصباح. رددت خلفه ما تحفظه من مزامير في سرّها، ودعت بإخلاص أن يوافق الأب (سمعان) على التحاقها بالدير. وبعد أن انتهت الصلاة، عادت إلى موضعها، وجلست منتظرةً موعد القداس، بينما كان الشمامسة يعدّون المكان لجموع الشعب التي ستتوافد بعد قليل. تراصت فطائر خبز القربان على طاولة أمام المذبح، ووضع إلى جوارها إناء الخمر ومجمرة البخور. وراجع القراؤون المزامير، حتى حان موعد القداس وبدأ الناس في التوافد. دخل الكاهن، فتُليت المزامير ودقت الألحان وتصاعدت تراتيم الشكر المعطرة بالبخور المقدس، فامتلأ قلبها بالسكينة. وبعد أن انتهى القداس، وقف الناس صفًا أمام الكاهن يمسحهم بالصليب، ثم يتناولون منه الخبز والخمر. وقفت أمامه فرشمها، ولكنه قبل أن يناولها سألها:

- من أنتِ؟

- اسمي (ومن بنت مينا).

- هل تناولتِ معنا من قبل؟

- كلا.

- وأين كانت معموديتك؟

- في قوص.

- ولماذا تركتِ قوص وأتيتِ إلى هنا؟

- أريد أن ألتحق بدير الراهبات.

نظر إليها لبرهة، ثم ناولها القربان، وقال:

- انتظري حتى ينتهي القداس.

مرّ وقت طويل حتى فرغ الأب من الطقس كاملًا، بعدها نادى عليها، ثم جلسا في حجرة مكتبه التي تقع خلف المذبح. سألها:

- أين أهلكِ؟

- مات أبي وماتت أمي.

- ولماذا لم تلتحقي بالدير في قوص؟

صمتت مترددة، ثم قالت في صدق:

- يريد ابن عمي أن يتزوجني قسرًا، فهربت من قوص.

هزّ رأسه، وكأنه كان يتوقع ذلك. تهرب بعض الفتيات من أهلهن ويلجأن للدين لا حبًا في الرهبنة، وإنما هربًا من أهلهن. قال لها:

- أنصحكِ أن تعودي إلى أهلكِ يا فتاة، فالدير ليس مكانًا للاختباء.

قالت في لوعة:

- اختبرني أيها الأب الكريم، وستعلم أني ما أردتُ شيئًا في حياتي سوى حياة الرهبنة.

قام وهو يقول:

- هناك فرقٌ كبيرٌ بين أن نرهب وأن نهرب.

ثم أردف:

- كما أن دير الراهبات مغلقٌ ولا يوجد لدينا مبيتٌ للفتيات.

تشبثت بيده وقبلتها، وهي تقول:

- أرجوك أيها الأب، لا أريد أن أعود إلى قوص، أريد أن أظل بينكم، امتحنِّي، فقد امتحنتُ نفسي بإخلاص، وما كنتُ لآكل من هذا الخبز ولا لأشرب من كأس الرب بغير استحقاق.

أحس بصدقها، وشعر بإشفاقٍ نحوها، فقال:

- حسنًا يا بنيتي، سأختبركِ، وإذا رأيتُ منكِ التزامًا سأسمح لكِ بالخدمة في البِيعة. وإن كنتُ لا أزال أنصحكِ بأن تعودي إلى أهلكِ في قوص.

قبلت يده شاكرةً، ثم عادت إلى بيتها.

***

الأيام التالية كانت شاقةً، ولكنها تحملتها بصبر وجَلد. لم تفوت قداسًا ولا صلاةً دون أن تحضرها في الدير إلا صلاة السحار التي كان يؤديها الرهبان في عتمة الليل. كانت تستقبل الشمس المتسللة في الأفق عند الصباح، وتودعها عند الغروب. وما بين الشروق والغروب، يومٌ حافل بالمحبة والعبادة والتكافل والعمل. ففي الأوقات التي كانت تخلو من الطقوس، كانت تشارك في تنظيف الكنيسة، وتساعد في طهي طعام الرهبان والشمامسة، وتخرج إلى الحقول التابعة للبِيعة مع العاملات وبعض المتطوعات، فتجمع ثمار الليمون، والزيتون، في خُرجٍ معلّق حول رقبتها،

ثم تحملها إلى صوامع الدير فيتم تخزينها في جرار يتم تمليحها وتخليلها بعد ذلك. ورغم التعب الذي لم تعتد عليه من قبلُ، كانت سعيدةً بحياتها. وبقدر الصلابة التي اكتسبها جسدها، كانت تشعر بخفة في روحها وكأنها تُحلق في السماء. حتى كان اليوم الأربعون، حين رشمها الأب، وأعطاها قطعةً من خبز القربان، ثم شربت رشفةً من كأس النبيذ، وقبل أن تنصرف، قال:

- مرحبًا بكِ بيننا يا (ومن) خادمةً في دير أبي حنَس.

تذكر انك حملت رواية عهد دميانة حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

عادت إلى مكانها وجلست وعيناها تذرف دموع الفرح. أخيرًا أصبحت تنتمي إلى ذلك العالم الذي كانت تتوق إليه. عادت إلى البيت بعد صلاة التاسعة، فلم تجد لها رغبةً في الأكل وكأنما تشبع جسدها بخبز القربان. بسطت جسدها على الفِراش ونظرت حالمةً نحو السقف، وأمسكت بيدها قلادة الصليب التي تتدلّى من جيدها، فتذكرته. ورغم ما كانت تشعر به نحوه من خذلان، تمنت أن تراه كي تشكره على معاونتها في تحقيق حلمها.

* * * * *

الفُسطاط

١١٥٥ ميلاديًا

(٤٨)

لم يتمالك نفسه من البكاء حينما تذكر ما حدث. كان يطلق سرب إناث الحمام في الهواء، كما كان يفعل كل يوم لعله يجذب إليها وليفًا يحمل رسالةً إليه من (موهوب)، ولكنه فوجئ بذكر الحمام الذي تركه مع (الحسين) يعود إليه مع أنثاه، محمّلًا ببطاقة منه مكتوب فيها: «أتى رجلٌ من طرف أمي يومستينا». أخذ العربة، وانطلق إلى الفسطاط يقطع الطريق عدوًا بغير انقطاع، إلا سويعات قليلة أثناء الليل ليرتاح فيها. وصل إلى الخلوة في وقت العصر فوجد الناس تصلي. ورأى (الحسين) يقف في مؤخرة الصفوف، يركع مع الراكعين. انتظر حتى فرغت الصلاة، وقلبه يرتجف. اقترب من مكان جلوس (الحسين) ووقف خلف عمود، ثم نادى بصوت خافت:

- (حُسين)!

التفت الطفل نحوه، لم يتعرف عليه في البداية، فقد كان (يوسف) أشعث متربًا، وأكثر نحافةً من ذي قبل. ولكنه لم يلبث أن تعرف عليه، فألقى بنفسه في حِضنه بقوة، وهو يقول:

- أبي (يوسف)!

احتضنه (يوسف) وأخذ يقبله وهو يقول:

- اعذرني يا بُني! تأخرت عليك كثيرًا!

قال له (الحسين):

- هل وصلتك الرسالة؟

قال (يوسف):

- نعم.

قال (الحسين) في سعادة:

- كنت أخاف ألا تصل إليك.

قال (يوسف)، وهو يمسح على شعره:

- وصلت لأنك طفلٌ بارع. ثم سأله:

- أين الرجل؟

أعطاه ورقةً، وقال:

- هذا مكانه، واسمه.

قرأها، فوجد فيها مكانًا اسمه (وادي المستضعفين)، يعلم هذا المكان الذي يقع في سفح جبل المقطم، أسفل مشهد الأمير بدر الدين الجمالي، ويتوسط المسافة بين خلوة (ابن الكيزاني) ودير (سمعان الخراز). تأتي إلى هذا المكان قوافلٌ من المسلمين والقبط، لزيارة مقابر الصحابة، ودير الأنبا (سمعان الخراز). خرجا من الخلوة ودارا حول سورها ثم ركبا العربة وذهبا إلى المكان سألا عن اسم الرجل، ثم شقا طريقهما بين الخيام حتى وصلا إلى خيمةٍ متطرفة، جلس أمامها رجلٌ مكتنز ضخم البنية، كان يحك صحنًا بالرمال، أشار (الحسين) إلى الرجل وقال:

- ها هو يا أبي .

تقدم (يوسف) نحوه وقلبه يخفق، ثم قال:

- مرحبًا، علمت أنك تبحث عني.

ترك الرجل الصحن، ونفض يديه ثم قام واقفًا، فبدا شديدَ الطول. اقترب من (يوسف)، ثم قال:

- أنت (يوسف بن صدقة)؟

قال (يوسف):

- نعم.

قال الرجل:

- بحثت عنك كثيرًا.

قال (يوسف) وقلبه يخفق:

- هل جئت من عند (يوستينا)؟

أومأ الرجل برأسه، وقال:

- نعم، جئت من طرسوس، برسالة منها، ولولا وصيتها لرحلت بعد أن كدت أيأس من العثور عليك.

تركه ودقات قلبه تتسارع من الإثارة، دلف إلى الخيمة للحظات، ثم عاد وهو يحمل صندوقًا بين يديه، وبجواره امرأةٌ تحمل طفلةً تنام على صدرها.

وضع الرجل الصندوق أمام (يوسف)، ثم قال:

- هذه رسائل (يوستينا) إليك.

ثم استدار وحمل الطفلة وأدارها نحوه، وقال:

- وهذه ابنتها (دميانة)، قد أرسلتها إليك.

ارتجّ عليه من الذهول، ازدرد ريقه وقال وهو يدفع الشك بيديه دفعًا:

- وأين (يوستينا)؟

نكس الرجل رأسه، ثم قال:

- ماتت (يوستينا)!

***

رسالة (يوستينا) الأخيرة

اعذرني يا (يوسف) إن تعذّر عليك قراءةُ خَطي. فلا أدري هل ثقُل القلم في يدي من وهنِ أصابها، أم لعلمي أنها آخر ما ستخطه يدي إليك! ظننت أن الطاعون الذي التهم جسد أمي قد انتهى ورحل عنا، ولكنه أبى إلا أن ينشب أظافره في جسدي قبل أن يذهب. موجات الحمّى تتركني هامدةً كمن ضربته صاعقةٌ على رأسه، وحين أفيق، يصيبني الرعب على (دميانة). تركتها منذ أيام عند النخاس الذي باعني في مصر حتى لا ينتقل المرض إليها. أعطيته كل أموالي كي يبحث عنك في مصرَ ويرسل إليك (دميانة). أخشى ألا يصل إليك يا (يوسف)، وأخشى أن تُباع (دميانة) جاريةً في مصر لو أني أندم على شيء الآن، هو أني لم أبادر بالرحيل إلى مصر يوم تفشّى المرض. ولكن يبدو أن أمنيات حياتي كلها ستظل معلّقةً على أحبال بالية. أتمنى أن تربّي (دميانة) في كنفك، أريدها أن تحب الله كما كانت أمك (ورد) تحبه، وأن تتذكرني بها دائمًا حتى ألقاك. وضعت رسائلي كلها في صندوق واحد، وسأضيف إليها تلك الرسالة أيضًا، وسأرسلها معها كي

تقرأها. أريدك يا (يوسف) أن تعلم أني ما أحببت أحدًا سواك أنا على يقين أني سأراك، فاليقين ليس ما ندركه بأعيننا أو بعقولنا، وإنما ما تؤمن به قلوبنا، وقلبي يؤمن بأن مثواه لن يكون في أرض ولا سماء، وإنما معك في طيف من النور يجمعنا في يوم من الأيام.

* * * * *

(٤٩)

«ماتت يوستينا»

رتّدها أيها السفح الكئيب.

واذرف معها سيلًا من دموعي.

«ماتت يوستينا»

فكفّ يا قلبُ عن الخفق.

وافرَق لها في صمتٍ وخشوع.

«ماتت يوستينا»

فأريقي يا دنيا كأسَ الحُب.

وكفّي يا شمس عن السطوع!

كان يجلس في الفِراش، يقرأ رسائلها ويبكي. أيّ عذابٍ تحملتِهِ وحدكِ يا (يوستينا) وأنا عنكِ غافل! ظننتُ أن الأقدار قد باعدت بيننا إلى الأبد، فإذا بكِ تسطرين ما بقي من حياتي بمِدادٍ لا يُمحا! ليتني أمتلك أجنحة الشجاعة مثلكِ كي أحلق بها بعيدًا خلف ما أريدا ولكني جبانٌ خانع، تغوص رأسي وأقدامي في طينِ تلك الأرض كأبي قردان، وتعجز أجنحتي أن

تحملني بعيدًا عنها. وداعًا يا (يوستينا)! وهنيئًا لكِ حياةٌ تتكشف فيها الحجب، ويستقر فيها القلب الحائر وتهدأ فيها النفس برؤية اليقين. نظر إلى (الحسين) وإلى الطفلة النائمة إلى جواره. تَذكّر كلام أمه حينما كانت تحثه على الزواج، فكان يرد عليها بأنه لا يريد أن يأتي بعوالق نهر يجرفها التيار في أي وقت، فإذا بالأقدار تمنحه طفلين، في أكثر أوقات حياته اضطرابًا!

في الصباح أعدّت لهم الخادمة فطورًا، فجلس على الأرض ليأكل. وضع الطفلةَ التي كانت لا تزال تشعر بالخوف من تنقلها من يدٍ إلى يدٍ على حِجره، وأخذ يُطعمها بعض الخبز المغموس باللبن. لاحظ بعد قليل أن (الحسين) لا تمتد يده إلى الطعام، ويبدو عليه الحزن. سأله:

- ما بك يا (حسين)؟

طفرت في عينه الدموع، وقال:

- حينما جاء ذلك الرجل من طرف أمي، ظننت أننا سنذهب لنراها!

قرّبه (يوسف) نحوه ثم احتواه بساعده، حتى مسّت رأسه رأسَ أخته (دميانة)، وقال:

- سنلتقي جميعًا يا (حسين)، هي في انتظارنا الآن في السماء، وسنصعد إليها في يوم من الأيام.

ثم قال وهو يشير إلى (دميانة):

- ولتحمد الله أنها قد أتت لك بأختٍ حتى لا تعيش وحيدًا.

ابتسمت الطفلةُ التي كانت لا تفهم كلامهما، ولكنها شعرت بأنهما يتحدثان عنها، جذبت (الحسين) من شعره الطويل البني، وهي تضحك، فصرخ

(الحسين) ضاحكًا وهو يحاول أن يُفلت شعره من يدها، و(دميانة) يزداد ضحكها المرح وضمة قبضتها، كلما حاول (الحسين) أن يجذب رأسه بعيدًا. ضحك (يوسف) لأول مرة منذ شهور، وضمهما إلى صدره في رضا، وهو يشعر بطيف (يوستينا) يرنو إليهم مبتسمًا من مكانٍ ما.

الأيام التالية قضاها ما بين الحانوت والبيت، وعقله مقسومٌ مناصفةً ما بين المرأة التي تركها في (أبي حنّس)، ولا يدري مصيرها، والطفلة التي اقتحمت حياته ولا يعرف كيف سيُربيها. فقد كانت (دميانة) تنفر دائمًا من الخادمة الحبشية، وتبكي كثيرًا حين يهمّ بالخروج مصطحبًا معه (الحسين) في الصباح، حتى اضطر في بعض الأوقات أن يصحبها معه، أو أن يترك لها (الحسين) حتى تكفّ عن البكاء.

وبعد أسابيع، ارتجّت البلاد على نبأ عظيم؛ فقد خرج مجموعةٌ من الصيادين بمراكبهم وهاجموا أسطول الفرنجة المحاصر لدمياط، وأحرقوا عددًا كبيرًا من سفنهم، وحينما حاولت السفن القليلة الناجية الفرار والارتداد إلى ميناء صور، تتبعتهم مراكب الصيادين، وأحرقوا عددًا من السفن في ميناء صور، ثم عادوا إلى دمياط منتصرين. انطلق الناس في الشوارع يهللون. مشاعر الفرحة بالنصر لونت سماء الفسطاط بالبهجة، وجعلت وجوه الناس أكثر جمالًا. هي الوجوه الفقيرة الكادحة نفسها، ولكن ابتسامة السعادة محت كآبة الفقر عنها، ومنحتها بهاءً وجمالًا.

سار (يوسف) منتشيًا بين الزحام، وهو يحمل (دميانة)على كتفيه، ويمسك (الحسين) في يده. شعوره بالغبطة لما حدث جعله يرى الحياة نعمةً تستحق أن تُعاش، وأن يخاطر الإنسان لأجلها، لا أن ينعزل عنها أو أن يتركها تمرّ أمام عينيه وهو ساكن. اليوم يرى أثر أفعاله الماضية على الأرض، وفوق كتفيه وفي راحة يده يرى مستقبله. أصبح (الحسين)

و(نميلة) أملًا يعيش لأجله. وكل ما يرجوه أن ينبتا في أرض ينتميان إليها بغير وعد ولا عهد.

وصل إلى بيته، ففتح باب السور، ثم أنزل (نميلة) إلى الأرض، سارت نحو حوض للزهور، ثم مالت على سوسنة زرقاء فقطفتها. فحملها في سعادة وقبلها، وهو يقول:

- تُحبين الزهور مثل أمك وجدتك!

ثم فتح الباب وأدخلها. التفت فلم يجد (الحسين) خلفه،نادى عليه، فلم يرد. عبر الحديقة وخرج من بابها، وهو يقول:

- يا (حسين)!

ولم تكد قدمه تخطو باب الحديقة، حتى وجد اثنين من المغاربة، يحملان (الحسين)، وقد كتم أحدهما فمه بيده، ويضعه الآخر على صهوة جواد. صرخ (يوسف) وهو يعدو نحوهما، ويقول:

- ماذا تفعلان؟!

ولكنه لم يكد يعدو نحوهما خطوات، حتى تلقى ضربة قوية بعصا على مؤخرة رأسه، أزاغت بصره، فسقط أرضًا.

* * * * *

(٥٠)

أفاق (الحسين) ليجد نفسه أمام امرأة بدينة يفترش جسدها أريكة بأكملها، تجلس قبالته في حجرة مؤثثة بفَرش فاخر قالت في لهفة حين أفاق:

- (حسين)، أياو نو.

لم يفهم أن (أياو نو) تعني (حفيدي) بلغة صنهاجة الأمازيغية، ولكنه فهم إشارتها حينما أشارت للرجلين اللذين وقفا إلى جواره، فحملاه وهو يقاومهما حتى أوقفوه أمامها. مدت يدها ومسحت شعره في حنان، وقالت بعربية ركيكة:

- أنا الجدة أم (نصر) يا (حسين).

شعر بالخوف والنفور وارتد برأسه مبتعدا، وهو يقول:

- أين أنا؟ أريد أبي (يوسف)!

تغير وجه المرأة، وقالت:

- لك أبٌ واحدٌ فقط، هو (نصر).

قال في عناد، وهو يحاول أن يفرّ من قبضة الرجلين اللذين أمسكا به:

- لا أريد أن أبقى هنا، أريد أن أعود إلى بيتي وإلى أبي (يوسف)!

قالت المرأة في غضبٍ حقيقي:

- قلتُ لك (يوسف) ليس أباك، بل قاتل أبيك! وعشيق أمك العاهرة!

ثم أشارت إلى الرجلين، وقالت بلُغتها:

- اذهبا به الآن، وحذار أن يخرج من البيت!

ثم نادت على وصيفتها المغربية، وقالت:

- اذهبي إلى القصر الغربي، وقولي للأميرة (ست القصور)إن أم (نصر بن عباس) ترغب في زيارتك على وجه السرعة.

ثم ناولتها قلادةً من الفضة منقوشٌ عليها اسم الخليفة (الظافر)، كان قد

أهداها الخليفة لـ (نصر)، وقالت:

- أعطيها هذه القلادة، وقولي لها هذه القلادة ظلّت حول عنق (نصر) حتى مات!

بعد قليل كانت أم (نصر) تقف أمام الأميرة (ست القصور)، وبجوارها وصيفتها المغربية التي تترجم لها ما تقول، حتى تضمن أن كلماتها قد وصلت إلى الأميرة واضحةً. قالت في كلمات جمعت أحرفها من الذل وضمختها بالحزن:

- أشكركِ يا سيدتي أن سمحتِ لأرملة بائسة، وأمٌ ثكلى،وعزيزةِ قومٍ أذلتها الأيامُ بأن تشكو لكِ مصابها بعد أن صمّ الجميع آذانهم عنها.

هزت الأميرة رأسها، ثم قالت:

- هات ما عندكِ يا أم (نصر).

قالت المرأة، وهي تبكي في صدق:

- أتدرين يا سيدتي كيف يكون شعور أمٌ ترى ولدهامحبوسًا في قفص من حديد، ويُطاف به بين الناس إذلالًا له، ثم يُشنَق مظلومًا، ويُفصل عنقه بجرمٍ لم يقترفه!

ثم أردفت في نحيب وهي تشير إلى القلادة التي تمسكها الأميرة في يدها:

- أقسم لكِ يا سيدتي أن ولدي (نصر) لم يحب أحدًا مثلما أحب الخليفة (الظافر)، ولم يكن ليمدَّ يدَ السوء إليه، بل كان ليفديه بروحه إن استطاع، وتلك القلادة خير شاهد على ذلك.

تنهدت الأميرة وقالت في أسى، وكأنما نكأت المرأة جراحها المندملة:

- اسمعي يا (أم نصر)، ما اقتنعتُ يومًا أن (نصر) هو من قتل أخي (الظافر)، فقد كنتُ أعلم قدر المحبة بينهما. ولكني لا أغفر لزوجك (عباس) أنه قد قتل أخوتي جميعًا.

قالت أم (نصر) في غير تردد:

- لعن الله (عباس)، وأحرقه في جحيمه! فما أضاعنا إلا طمعه، وأنا ما أتيتُ لأجله يا سيدتي! بل أتيت لأني قد عرفتُ قاتلَ الخليفة!

انتبهت المرأة، وقالت:

- ماذا تقولين يا أم (نصر)؟

قالت المرأة وقد جفت دموعها فجأةً:

- بحثت طويلًا يا سيدتي، حتى عثرت على من خطف حفيدي (الحسين)، في تلك الليلة المشؤومة التي قُتل فيها الخليفة الظافر!

نظرت إليها الأميرة متعجبةً، فلم تكن تعلم أن لنصر ولدًا، ولكنها تركت المرأة كي تكمل حكايتها، فاستمعت إليها وهي تقول:

- في تلك الليلة البائسة، اختفى حفيدي (الحسين) من البيت، رغم أن خادمته أكدت بأنه كان يبيت في حُجرته في بيت (نصر)، بعد أن صرف (نصر) جميع الخدم من البيت.

ثم نهنهت باكيةً، وقالت:

- لشهور طويلة وأنا أنفق الأموال على البصاصين كي يبحثوا عنه ولكنهم لم يجدوه، حتى ظننتُ أنه قد قُتل انتقامًا من (نصر)!

سألتها (ست القصور) باهتمام:

- وكيف عثرتِ عليه؟

- منذ أسابيع، جاءت تلك الخادمة إلى بيتي، رغم أنها طُردت منذ زمن طويل، وأخبرتني أنها رأت ولدًا في سوق الورّاقين يشبه (الحسين) ظننتُ أنها قد يكون قد شُبّه لها، أو أنها تطمع في العودة للعمل أو بعض المال، ولكنها حين أخبرتني باسم الرجل الذي يعيش معه (الحسين)، تأكدتُ أنه هو خاطفه، وأنه من بين قَتلةِ الخليفة في تلك الليلة!

قال (ست القصور)، وقد بلغت بها الإثارة مبلغها:

- من هو؟

قالت أم (نصر):

- (يوسف بن صدقة)! قبطي خبيث، كان يعمل بصاصًا عند (علي بن السلار) في الإسكندرية، ثم طرده (عباس) زوجي منها، بعد أن عشق جاريةَ ولدي (نصر) وأمَّ ولده، ووقع معها في الزنا!

رفعت (ست القصور) حاجبيها دهشةً، فتابعت المرأة:

- أقسم لك يا سيدتي، إن هذا القبطي اللعين وراء قتلِ الخليفة (الظافر)، ولا أحد غيره، فقد كان قلبه موتورًا على (نصر)، وازداد حقده عليه بعد أن قتل الخائن (علي بن السلار).

صمتت (ست القصور) وأطرقت برأسها طويلًا، سطعت الحقيقة من عبارات المرأة وكشفت غيومًا كانت تؤرقها لشهور عديدة. فرغم كراهيتها الشديدة لـ (عباس) الذي قتل إخوانها، كانت تتساءل دومًا عن الدافع الذي يجعله يقتل الخليفة الذي منحه الوزارة! وفوق هذا، كيف يُقدم على تلك الفعلة

وهو يعلم المودة بين الخليفة وولده (نصر)؟ العجيب أنها مع مرور الوقت، بدأت تتكشف لها بعض لأمور. علمت أن (طلائع بن رزّيك) الذي استجارت كا كي ينقذها من (عباس)، وأرسلت إليه بضفائر شعرها، كان يحتقر أخاها (الظافر) ويكرهه أكثر من (علي بن السلار). بل إنه كان يصف أخاها في مجالسه الخاصة بـ (القحفة). ثم علمت أن حارسًا لـ (علي بن السلار) اسمه (حمدان) كان يتردد عليه سرًا قبل وقوع الاغتيال. اليوم يراودها حدس أقرب لليقين، أن مؤامرة الاغتيال التي وقعت، قد يكون وراءها (طلائع بن رزّيك) نفسه!

قطع تفكيرها صوت المرأة وهي تقول:

- أريد القصاص يا سيدتي ممن خطف حفيدي، وتسبب في قتل ولدي!

تنهدت (ست القصور) ثم قالت بعد كل ذلك الصمت:

- سيحدث يا (أم نصر)، سيحدث، وسأرى إن كان سيوافق (طلائع بن رزّيك) على ضرب عنقه أم لا!

ثم نادت بصوت عالٍ:

- يا (عنبر).

فجأة اقتحم الحجرة الحارس السوداني العملاق، فقالت له:

- أريدك أن تذهب برجالك، وتأتيني بذلك المدعو (يوسف بن صدقة) من بيته الآن.

* * * * *

(٥١)

مرت دقائق حتى أفاق (يوسف)، تحسس خيط الدم الذي يسيل من جبهته، ثم نظر إلى يده الملطخة بالدماء في هلع، ثم قام وقال بصوتٍ واهن:

- (حسين)!

تحامل على نفسه، ودخل إلى البيت، فصرخت الخادمة عند رؤية رأسه الغارقة في الدماء، وأسرعت بكبس جرحه بقماشة من الكتان، بينما كانت (دميانة) تبكي مذعورةً. قال (يوسف) في وجعٍ وذهول:

- اختطفوا (الحسين)!

قالت المرأة في لوعة:

- من؟

قال بصوتٍ مقهور:

- لا أدري.

فجأةً، علت جلبةٌ في الطريق وسمعوا صوت خيول في الخارج. خرجت المرأة مسرعةً ووقفت أمام الباب، بينما وقف (يوسف) وراءها وهو يحمل (دميانة) في يده. رأت الخادمة ثلةً من حراس القصر يقفزون من فوق صهوة جيادهم ثم يهرولون في سرعة ناحية البيت، ويتقدمهم حارسٌ فارع الطول.

التفتت نحو (يوسف) كي تقول له إنهم حراس من القصر، ولكنها لم تجده، ولم تجد (دميانة). وصل الحارس الأسود العملاق، فدفعها بيده وقال:

- أين (يوسف بن صدقة)؟

ألجمها الخوف والفزع عن الكلام. اقتحم الرجال البيت ودخلوا إلى الحجرات، وفتشوا فيها فلم يجدوه، فصرخ فيها الرجل:

- أين (يوسف) يا امرأة؟

قالت في ذعر:

- لا أعلم!

رأى خرقة الكتان الملطخة بالدماء فوق المنضدة، فأمسكها بيده، ثم قال للرجال في أمر:

- ابحثوا عنه في حديقة البيت، وفوق السطح؛ هو ليس ببعيد.

تفرق الحراس فوق البيت وحوله، وصعد هو إلى السطح. سار حتى الحواف ثم نظر إلى المزارع والأحراش التي تحيط بالبيت، وإلى قرص الشمس الذي يوشك على الغروب، فعضّ على شفتيه من الغيظ. كان يعلم أن الليل إذا حلّ سيغيب الرجل عن أعينهم لا محالة. ألقى بخرقة الكتان على الأرض ثم أشار إلى رجاله كي يسرعوا للبحث عنه وسط الأحراش قبل أن تغيب الشمس. وبينما كانوا يمتطون جيادهم، ويبحثون وسط أشجار الغاب في يأس، دقّ ناقوس دير مار جرجس أربعَ مرات معلنًا رفع بخور العشية، وبدأ قداس المساء.

فرغت الأم (أغابي) من القداس، ثم دخلت إلى حجرتها وأغلقت الباب خلفها في سرعة. توجهت حيث يجلس (يوسف) مستندًا برأسه إلى الحائط، وقد التفت رأسه بضمادة، وقالت: - لقد رحلوا.

كانت قد رأته وهو يتسلل على أطراف أصابعه في حديقة الدير ويحمل

معه طفلةً يكتم فمها بيده. كادت أن تصرخ، ولكنه أشار إليها مترجيًا، وهمس قائلًا:

- أنا (يوسف)، ابن (ورد). ثم أشار بأصبعه نحو مطح بيته، وقال:

- يبحثون عني!

أدخلته من نافذة حجرتها المطلة على الحديقة الخلفية ثم أوصدتها، ضمدت جرح رأسه، ثم ربتت عليه في حنان، وقالت:

- أنت الآن في أمان.

شاركت في القداس، وبعد أن فرغت منه، دارت حول سور الدير وانتظرت حتى رأتهم يرحلون، وعيونهم تضيء بالشرّ في الظلام. ثم عادت إليه.

شعر بآلاف المطارق، تنهال على جانبي رأسه، فضغطهما بكفيه، وهو يتأوه. ثم قال باكيا:

- اختطفوا (الحسين).

قالت الأم (أغابي):

- ماذا ستفعل؟

أمسك برأسه التي تصيح بالألم ككلاب تنبح، ثم قال:

- سأبحث عنه.

قالت بعد فترة صمت:

- لا تفعل الآن! اهرب يا (يوسف)! اهرب عن الفسطاط بأكملها يا بني!

نظر إليها مفجوعًا، ثم قال:

- و(الحسين)!

قالت وهي تنظر إلى الطفلة:

- إن كانوا قد أخذوا منك واحدًا، فلا تجعلهما اثنين!

ثم أردفت:

- رأيتُ الشرّ في عيونهم يا بني. هؤلاء الناس إذا وجدوك سيقتلونك.

أثارت كلماتها شكوكه. منذ أيام أخبره (يحيى) بأن رجلًا مهندمًا جاء إلى الحانوت وسأل عنه، وحين أخبره (يحيى) بأنه في البيت، طلب عنوان البيت، ولم يظهر بعد ذلك. هناك من يتربص به، وأيًا من يكون هذا المتربص، فهو جادٌ في طلبه، ولن يستطيع أن يتصدى له، وهو مكبّلٌ بطفلة تتعلّق بعنقه وتعوق حركته. شعر بيأس الدنيا يمتطي أكتافه. كلمات الأم (أغابي) تسطع بالحقيقة، فقد (الحسين) وقد يفقد (دميانة) ومعها حياته! فجأةً بزغت (ومن) في رأسه كفكرةٍ أشرقت في الظلام. مرةً أخرى تُمسك الأقدار بخيط حياته وتغزلها على نول تلك الفتاة. قال في رجاء:

- حسنًا. سأهرب يا أماه حين تشتد العتمة، ولكن لي طلب أخير منك.

- ما هو يا بني؟

- أريدكِ أن تذهبي إلى الدار وتخبري الخادمة بأن تأتيني بشيئين ستجدهما أسفل فراشي.

- ما هما؟

- صرة نقودي، وحقيبةٌ صغيرة من الجِلد بها لفافٌ من العشب، أحتاج إليها الآن أكثر من أيّ وقت مضى.

قرية (أبو جِنْس)

(٥٢)

هبّت الرياح شديدةً باردةً في تلك الليلة، شدّت طرحتها كي تقي وجهها الهواء البارد الذي جعل أنفها يسيل، ثم فركت يديها لتمنحهما بعض الدفء. استغرق الطريق من دير (أبي جنْس) إلى بيتها وقتًا أكثر مما هو معتاد، بسبب عاصفة الرياح التي هبّت على البلدة. دلفت من السور وهي تتمنى أن تستتر بجدران حجرتها كي تنال بعض الدفء. فجأةً، وجدت رجلًا معصوب الرأس يجلس أمام الباب وقد نامت إلى جواره طفلةٌ، توسدت برأسها فخذَه، وقد أشعل أمامهما كومةً من الحطب. شهقت مذعورةً، ولكنه بادر بقوله:

- لا تخافي يا (ومن)، أنا (يوسف).

فتحت الباب، فحمل الطفلة ووضعها برفق فوق الأريكة، ثم جلس إلى جوارها. قالت وهي تنظر إلى هيئته الرثة، ورأسه المضمدة:

- ماذا حدث لك يا (يوسف)؟

ثم أشارت إلى الطفلة، وقالت متعجبةً:

- ومن هذه الطفلة ؟

ربّت (يوسف) على الطفلة، التي كانت تتقلب، كي تهدأ ولا تستيقظ، وقال:

- هذه (دميانة).

ثم أردف:

- ابنتي!

نظرت إليه مستنكرةً، ثم قالت:

- ابنتك! لم تخبرني أن لك ابنةً.

قال مترددًا:

- لم أكن أعلم أن لي ابنةً، حين قابلتك!

أطالت النظر إليه، ثم هزت رأسها في سأم، وقالت:

- هل خطفتها؟

نظر إليها مصعوقًا، ثم قال:

- أهذا ظنك بي؟!

قالت في غضب:

- وهل تتوقع مني غير ذلك؟ منذ عرفتك وأنت غريب الأفعال؛ في البداية تختفي وتدّعي أنك تاجر ثم يطاردك العسس، ثم تهرب، ثم تعود مصابًا ومعك طفلةٌ تدّعي أنها ابنتك! من أنت يا (يوسف)؟ قل لي من أنت؟

صمت محدقًا فيها وكأنه لا يتوقع أن يسمع منها هذا الكلام، فأردفت في حنق، وقد أفلتت الدموع من عينيها:

- لماذا تركتني ورحلت بغير كلمة ولا رسالة؟! ألم تسأل نفسك عن مصيري؟ ألم يكن من الممكن أن يردني الكاهن عن الدين وأجد نفسي مضطرةً أن أعود إلى قوص؟

أشفق على دموعها، وأحزنه أن يكون قد خذلها بغير قصد، ولكنه برّر فعله قائلًا:

- لم أهرب، ولكنك لو علمتِ ما بي يا (وسن)، لهان شعور الخذلان الذي

تشعرين به.

مسحت دموعها، ثم قالت بعد قليل:

- لستَ مضطرًا أن تخبرني لماذا هربت، ولكن لماذا عدت، ومن هذه الطفلة ؟!

قال في وهن:

- هذه ابنتي يا (ومن).

ثم اختلج وجهه، وقال:

- وعدت من أجلها، بعد أن ماتت أمها وفقدت أخاها، ولم أجد لها مكانًا آمنًا أتركها فيه، سوى أن تكون معك يا (ومن).

خفق قلبها، وهي تنظر نحو الطفلة المسكينة بإشفاق، وشعرت بالخجل. تضايقت أنها باحت له بالسبب الحقيقي لغضبها. لماذا تتهمه بالخذلان وهو لم يكن مضطرًا من البداية أن يساعدها؟ لماذا نبني توقعاتنا على أسس من الرمال، فإذا انهارت، ألقينا باللوم على الآخرين، ولم نلُم أنفسنا على أننا توقعنا لها الثبات؟ قامت من مكانها ثم حملت الطفلة برفق، تأملت وجهها النائم بحنان، ثم لثمت جبينها، ووضعتها في سريرها.

اعتدل في جلسته، وقال:

- هل يعني هذا أنكِ وافقتِ على بقائها معكِ؟

قالت:

- أنا مدينةٌ لك بالكثير والبيت ليس بيتي!

قال وهو يمسك برأسه التي عادت للنباح:

- هل عاد الكاهن؟!

قالت:

- نعم، ووافق على أن أعمل في البيعة.

سألها في قلق:

- وهل ستقدرين على رعاية (دميانة) والعمل في البيعة معًا؟

قالت في جمود:

- سأتدبر أمري!

ثم أردفت:

- متى تعود؟

تنهد، وقال:

- لا أدري! سأذهب لأبحث عن أخيها، فإما أن نعود سويًا، أو لا نعود على الإطلاق!

قالت:

- وأين هو؟

هز رأسه بالنفي، ثم قال دون أن يشعر:

- اختطفه رجال القصر في القاهرة!

قالت مذهولة:

- لماذا؟

انتبه أنه قال ما لا ينبغي قوله، فأشاح بوجهه، وقال:

- أمرٌ لا أستطيع البوح به.

قامت من مكانها واقتربت منه، ثم قالت:

- أشعر بالخوف عليك، وأشعر بالخوف منك! أراك نبيلًا عطوفًا، وأراك مريبًا مخادعًا.

صمت، فجلست إلى جواره، ثم قالت:

- قل لي يا (يوسف) من أنت؟ أم أن هذا ليس اسمك الحقيقي؟

- بل اسمي.

قالت مترجيةً:

- حسنًا ، قل لي يا (يوسف)، حتى أتوقع أسوأ ما ينتظرني، ما الذي فعلته حتى يطاردك رجال الوالي في قوص، ورجال القصر في القاهرة؟

سكت قليلًا، ثم قال:

- حاولت أن أقيم العدل، فنصرت مظلومًا، وردعت ظالمًا.

- ولماذا يتتبعك هؤلاء؟

نظر إليها، ثم قال:

- لأنهم ظلَمة.

- وما الذي فعلته فأغضبهم؟

قال في بطءٍ وتردد:

- شاركتْ في قتلِ الخليفة الظافر خليفةِ الفاطميين!

شهقت في رعب! فأيقظ صوتها (دميانة) التي بكت، حملها (يوسف) وضمَّها إلى صدره، فهدأت. بينما وقفت (ومن) في ركن الحجرة، غير مصدقة. هربت من بلدتها مع قاتل! وليته قاتلٌ عادي، بل قاتلُ الخليفة!

اقترب منها، وهو يقول:

- كان يستحق القتل.

هزت رأسها مذهولةً، فتابع:

- كان لا بد أن ينال جزاءه بعد أن قتل مولاي (علي بن السلار)، وقتل العشرات من تلاميذه.

قالت مصدومةً، وكأنها لا تسمعه:

- من أنت حتى تنزع روح إنسان؟

- لم أنزع روحًا بريئةً، بل روحًا شريرةً ظالمة.

التفتت نحوه، وقالت:

- أنت مخيف، ويسكن الشيطان قلبَك!

لم يتخيل أن تقول له ذلك، أدرك أنها لن تفهمه مهما حاول التبرير، فتح الباب يائسًا، وهمَّ أن يغادر، فاستقبله الهواء المندفع من الباب بشدة، وأيقظ (دميانة) مرةً أخرى. خلع الشال الذي يُدثر كتفه ووضعه فوق رأس الطفلة، وخرج إلى الفِناء، ولكن (ومن) قالت له:

- انتظر.

استدار نحوها والهواء يطيح بثوبه. مدّت يدها إليه، وقالت:

- أعطني (دميانة).

ثم أردفت:

- ليس لأجلك أنت، ولكن لأجلها هي.

ناولها (دميانة)، التي غلبتها سكرة النوم مرةً أخرى، فلم تشعر بما يجري حولها، ثم ألقت برأسها على كتفها. نظر نحوها ممتنًا، ثم قال:

- أشكرك، وإلى أن تدركي الحقيقة كاملةً، أرجو ألا تخبري أحدًا بما قلته لك.

ثم استدار وانصرف.

* * * * *

(٥٣)

استيقظت (ومن) بعد الشروق على صوت (دميانة)، تبكي بعد أن اكتشفت وجودها في مكان غريب. أفاقت من نومها سريعًا، رغم أنها لم تنم من الليل سوى غفوات متقطعة مليئة بالأحلام المضطربة المتسارعة، كسرعة الريح التي كانت تطرق النوافذ طيلةَ الليلة السابقة. حملت الطفلةَ وهي تقول لها:

- تعالي يا (دميانة)، تعالي يا صغيرتي، أنا إلى جوارك.

وجدت الفتاةَ تلعق إصبعها، فظنت أنها جوعى. حملتهاوقالت لها:

- ما رأيك أن نعد إفطارًا؟

لم تُظهر الطفلة أيّ فهم لما تقوله، فتعجبت من تأخرها في فهم أي كلام أو نطقه، رغم أنها قد جاوزت العامين بشهور عِدّة. فتحت خزانة الطعام،

فأخرجت خبزًا طريًا كانت قد خبزته بالأمس، ثم فتحت ماعونًا من الفخار خزنت به بعض التمرات المطبوخة بالسمن، فأخرجت بعضها ووضعتها في صحن. أشارت إلى (دميانة) بقطعة الخبز وهي تقول:

- بتاو.

مدّت (دميانة) يدها لتأخذ قطعة الخبز ولكن (ومن) سحبتها وهزت رأسها، وقالت:

- كلا، قوليها أولًا.

ثم كررتها مرتين:

- بتاو .. بتاو.

قالت الفتاة:

- تاو ..

ابتسمت (ومن)، وقالت:

- لا بأس!

ثم أعطتها قطعة الخبز فقضمتها (دميانة) بنواجذها الصغيرة. ثم قدّمت لها تمرةً مطبوخةً، وهي تقول لها:

- هيا قولي: عجوة.

كانت الكلمة صعبةً، فنظرت الطفلة إليها مندهشةً ولم تنطق، فتابعت (ومن) أكثر من مرة بحروف مقطّعة:

- ع ج و ة

استجمعت الفتاة تركيزها، ثم قالت آخر حرفين فقط (وه)، فضحكت (ومن) وقالت:

- أنتِ ماكرةٌ يا (دميانة)!

ثم ناولتها التمرة فأخذت تلعقها مستمتعةً بشهدها الحلو، والسمن الذي لطّخ يدها. قامت (ومن) كي تستعد للذهاب للدير. فقد كانت الشمس قد أشرقت منذ ساعة على الأقل، وفاتتها صلاة باكر لأول مرة منذ بدأت التردد على الدير ولا تريد أن يفوتها قداس الصباح أيضًا. غسلت وجهها وغطت رأسها، وبعد قليل كانت في الطريق تحمل الطفلة على صدرها، وقد غطت رأسها برداء إضافي، فقد كان الجو يميل إلى البرودة، رغم هدوء الرياح كثيرًا عن ليلة أمس. نظرت حولها فوجدت أثر العاصفة واضحًا على الأفرع المتكسرة من أشجار الجميز وأوراق الشجر التي أطاحت بها الريح إلى الجرف المنحدر نحو النهر حتى بدا النهر كطريق مغطّى بأوراق الشجر. توقعت أن يثير وجود (دميانة) التساؤلات، وكانت تنوي أن تُخبر الأب (سمعان) أن الطفلة يتيمةٌ، وأنها تعتني بها بعد أن ماتت أمها، دون أن تفصح عن أية تفاصيل. وصلت إلى الدير فلم تجد العم (بشندي) على مدخل الباب، كما اعتادت. ظنت أن القداس قد بدأ، ولكنها حينما عبرت الفِناء، لم يصل إليها صوت الصلوات. دخلت إلى الكنيسة، ففوجئت بالناس وقد تجمعت حول رجل يرقد على الأرض، وقد ابتلت جميع ملابسه و بدا أنه غريق! سمعت أحد الرجال وهو يقول:

- هيا اخلعوا ملابسه.

أدارت وجهها، ووقفت مبتعدةً مع (دميانة) التي لم يهتم لوجودها أحد. فجأةً قال أحد الرجال:

- هو لا يزال حيًا، أحضروا غطاءً من الداخل، فهو يرتعد.

تحرك أحدهم، ولكن فجأةً ظهر الأب (سمعان) وإلى جواره العم (بشندي)، فانفرجت دائرة الواقفين، وأفسحوا طريقًا لهما. انحنى الأب (سمعان) وتطلع إلى الرجل الملقى على الأرض للحظات، ثم مال (بشندي) على أذنه وألقى بها بعض الكلمات. فجأةً، رفع الأب (سمعان) رأسه، وقال:

- (ومن)!

انتفضت لسماع اسمها، اتجهت نحوه وقالت:

- أمرك يا سيدي الكاهن!

أشار إلى الرجل الراقد، وقال:

- هل تعرفين هذا الرجل؟

تعجبت من سؤاله، وهمت أن تقول له: بالطبع لا، ولكنها أمعنت النظر في الوجه الملطخ بالطين، ثم لمحت ضمادةً حول رأسه، فصرخت في جزع:

- (يوسف)!

كان الناس يدثرونه بغطاءٍ سميكٍ جاف، بينما كان الأب (سمعان) يقف معها بالقرب من الهيكل. سألها:

- من هذا الرجل؟

- اسمه (يوسف).

- سمعتك تنطقين اسمه، ولكن من هو؟

صمتت، وقد ثقل الكلام على لسانها. كانت لا تتمنى أن يسألها الأب

(سمعان) سؤالًا، تضطر أن تواري إجابتها عنه وهو كاهنها، فقالت مترددة:

- جاء معي من قوص!

تنهّد الأب (سمعان)، ثم قال:

- أخبرني (بشندي) لتوه، ولكني أريد أن أعرف من هو، هل هو قريبك؟

صمتت مرة أخرى، تأرجحت الحروف على شفتيها دون أن تصدر أية كلمة، لو قالت لا، لسألها ما الذي أتى به إليك؟ ولامتدت الأسئلة بعد ذلك إلى تفاصيل أخرى عن (يوسف)، لا تريد أن تفصح عنها. قالت بعد وقت من التردد:

- نعم!

ثم أطرقت بجفنيها، وأشاحت بوجهها حتى لا تفضحها عيناها.

أحس الأب (سمعان) بترددها، وشك في كلامها، نظر نحو الطفلة، ثم سألها:

- ومن هذه الطفلة؟

قالت مسرعة:

- هي ابنته، تركها عندي بعد أن ماتت أمها.

أطال النظر نحوها ونحو الطفلة، ثم عاد للرجال. قال لهم:

- لنحمد الرب أنه لم يمت. احملوه إلى بيت السيدة (ومن).

* * * * *

لم يعلم أحدٌ ما حدث له، فقد كان يركب العربة ويسير وحده في الليل في طريق تعصف به الريح بذل جهدًا كي يدفع جواده المرهق مثله للسير قُدمًا في طريق العودة ضد الرياح، وضد الجوع والتعب ولكن فجأةً سقط جذع شجرة أمام الفرس، ففزع وجرى على غير هدًى نحو المنحدر. فانخلعت العربة، وسقط جسد راكبها المنهك متدحرجًا حتى وصل إلى حافة النهر ولولا أحراش البردي لابتلعه التيار في جوفه. في الصباح الباكر رأى بعض الفلاحين الجواد يقف إلى جوار العربة، ثم اكتشفوا الجسد الملقى على حافة النهر فحملوه إلى الكنيسة وقد ظنوا أنه مات، ولكنهم اكتشفوا أنه لم يمت، وإنما بلغ به الضعف مبلغًا كبيرًا.

بعد الظهيرة كانت (ومن) في حجرتها، تنظر إلى جسد (يوسف) -الذي كان يرتعد- في قلق. غسلت رأسه وصدره العاري بالماء، لعلها تطفئ لهيب الحمى التي تشع من جسده، وصوت طقطقات أسنانه تُرعبها. صنعت له مرقًا وأسقته القليل منه بصعوبة. أنفاس جوفه الساخنة، وانتفاخ عنقه، جعلاها تشعر بأن نوبة الحمى بسبب لفحات هواءٍ باردٍ أصابت حلقه، وليس الجرح المدمّم في رأسه. فأسقته المرق على رشفات متكررة حتى تزيل التقيح الذي أغلق حلقه.

بعد أن هدأت أنفاسه، أخذت الطفلة (دميانة) ثم خرجت بها إلى الفناء. لاعبتها قليلًا، ثم أحضرت حبلًا ربطته بين غصني شجرة توت، وأجلستها عليه، وأخذت تؤرجحها واجمةً، حتى تزيل من نفسها الكآبة التي جثمت عليها.

في المساء أغلقت باب حجرتها وقصّرت فتيل المصباح، ثم اطمأنت إلى أن أنفاس (يوسف) لا تزال هادئةً رغم حرارة صدره المتعرق. نامت إلى

جوار (دميانة) على السرير ضمّتها إليها، وسحبت الغطاء فوقهما جيدًا وهي تستر كفيها وعنقها به. أغمضت عينيها وهي تتمنى النوم بعد ذلك اليوم الحافل. للمرة الثانية تنام في مكان به هذا الرجل الغريب، الذي يدنو منها كما لم يدنُ أحدٌ من قبل. ولكن شتان بين إحساسها في المرتين، في المرة الأولى كانت خائفةً، ولكنها كانت تثق فيه. أما الآن فهي غير خائفة، ولكنها تشعر بالريبة نحوه وتنهشها الوساوس وسوءُ الظن فيه. كانت تشعر بأنها قد وطئت بقدميها بيت العنكبوت، وأن أقدامها تتكبل -رغمًا عنها- مع كل خطوة تخطوها، فلا هي قادرةٌ على الرجوع للخلف، ولا قادرةٌ على السير للأمام. ويدنو منها ذلك الرجل يومًا بعد يوم، كما تدنو العنكبوت من فريستها. تقلّبت في الفراش، حتى تصرف تلك الأفكار السوداء عن رأسها، وشعرت بالذنب أن تصورته عنكبوتًا، رغم كل ما فعله من أجلها. مست يدها (دميانة)، وشعرت بأنفاسها الرقيقة المنتظمة تلفح وجهها، فهدأت. شعورها بالقرب من هذه الطفلة هو أفضل شيء حدث لها منذ عرفت (يوسف).

مرت ساعات، اشتدت فيها عتمة الليل. وبدأت الريح في التسارع. انفتحت النافذة التي تعلو سريرها فجأةً، فقامت مفزوعةً، وأوصدتها بيدها. اطمأنت إلى أن الغطاء لا يزال يلتف جيدًا حول (دميانة). ثم نظرت نحو (يوسف)، وقامت لتطمئن على حرارته. وضعت كفها اليسرى على جبهته فوجدت حرارته بالفعل قد هدأت. تطلعت إلى وجهه الذي انعكس عليه ضوء المصباح الخافت، فوجدته هادئًا حالمًا، وكأنما قد أخلد أخيرًا إلى نوم يخلو من صخب الحمى. خُيل إليها أن شفتيه تتحركان ببطء، وكأنه يناجي أحدهم في حلمه. ابتسمت في حنان وهي تتطلع إلى صفحة وجهه البريئة، فجأةً أمسك بأنامل يدها اليمنى وكأنه يتشبث بهما. تركتها في يده كي لا توقظه، وهامت في وجهه الذي بدا كطفل يتعلق بأصابع أمه. ولكنه فجأةً سحب كفها إلى صدره ووضعها على موضع قلبه. ارتجفت وهي تشعر

بملمس صدره تحت يدها، أرادت أن تجذبها، ولكنها أبت. ليست هي من أبت، بل يدها التي أبت! طافت يدها على صدره ببطءٍ رغمًا عنها، وشعورٌ باللذة يغمرها وهي تتخيل القماط الذي لفه على صدرها العاري. دقّ قلبها بنغمات لم تشعر بها من قبلُ، وعزفت أنفاسها لحنًا متسارعًا، زادت وتيرته، حين مسحت يدُها الأخرى على شعره برفقٍ مراتٍ متعددة. فجأةً ثار جسدُها بالرغبة، الرغبة في أن تمسّ شفتيه المنفرجة، مال العنق، وتعامد الأنفان، واختلطت الأنفاس، ثم تلاقت شفاة أريغ في قُبلة، سقط لها قلبها حتى رأت فراغًا في صدرها ينفذ منه الهواء في سرعة.

استيقظت فجأةً، فوجدت النافذة مفتوحةً. لهثت، وهي تشعر بأثر النشوة في جسدها. أوصدت النافذة، ونظرت حولها، اطمأنت إلى أن ما رأته كان حلمًا. شهقت في فزع، لأول مرةٍ يتسلل إليها الشيطان في نومها إلى هذا القذر. شعرت بدنسٍ حقيقيٍّ يغمرها. تذكرت أن صلوات أمس كلّها قد فاتتها بسبب انشغالها مع (يوسف). وغدًا سيفوتها التناول بسبب ذلك الحلم النجس.

قامت ومسحت وجهها بالماء، ثم نظرت إلى (يوسف) الذي كان على الهيئة نفسها التي رأتها في حلمها. تطلّعت إليه قليلًا، ثم ذرفت دموعها، وقالت:

- إلهي! إن كان شيطانًا، فاصرفه عني.

* * * * *

الفسطاط

(٥٥)

بعد أن عاد (موهوب) من دمياط، اتجه إلى (خان صدقة) في سوق

الوزاقين، وهو يشعر بالشوق لرؤية (يوسف)، بعد تلك الغيبة الطويلة، المليئة بالأحداث. لا ينسى (موهوب) أنه لولا (يوسف)، الذي أحضر النفط الطيار، لما كان نجاحهم في طرد الفرنجة عن دمياط. انعطف إلى الزقاق الذي يقع في آخره الخان. ولكنه حين وصل إلى هناك، وجده مغلقًا. شعر بالإحباط، فقد كان يستعد لمفاجأة صديقه، ولكن فسدت المفاجأة! امتدار، وما إن خطا ثلاث خطوات، حتى وجد أمامه الصبي (يحيى)، الذي يعمل مع (يوسف) في الخان، يحمل طعامًا ويدخل إلى الزقاق. نادى على الفتى، الذي رفع رأسه ثم أسرع نحوه، وقال في لهفة:

- سيدي (موهوب)! هل لديك أخبارٌ عن سيدي (يوسف)؟

انزعج (موهوب)، وقال:

- هل حدث شيءٌ لـ (يوسف)؟

قال الفتى:

- اختفى منذ أيام، ولا نعلم أين هو!

قال (موهوب):

- كيف حدث هذا؟

نظر الفتى حوله، ثم قال بصوت خافت:

- تقول الخادمة إن أحدهم قد اختطف (الحسين)، ثم أتي بعد ذلك حراس من القصر ليقبضوا عليه، ولكنه هرب مع ابنته (دميانة).

دارت رأسه مع عبارات الفتى الثلاثةِ، فقال مذهولًا:

- ماذا تقول يا فتى! ومن (دميانة) هذه؟

قال (يحيى):

- ابنة سيدي (يوسف)، التي أتى بها بعد عودته من قوص!

أدرك (موهوب) أن أحداثًا كثيرةً قد وقعت في غيابه، وشعر بالقلق على مصير صديقه. فربّت على كتف الفتى، وقال:

- حسنًا يا (يحيى)، أريدك أن تفتح الحانوت، وتبقى به كما لو أن سيدك لا يزال موجودًا.

ثم أعطاه عشرة دراهم، وقال:

- خذ هذه الدراهم لتنفق منها على نفسك، وسأمرّ عليك من وقت لآخر. ولكن لا تخبر أحدًا أنك رأيتني، هل فهمت؟

أومأ (يحيى) برأسه، وقال:

- حسنًا يا سيدي.

صعد (موهوب) إلى حانة سنقر في القطائع، وعقله يدور بالفكر كما تدور الرحى. كلمات الفتى (يحيى) حمّلته بقدر كبير من القلق على (يوسف)، وعلى جماعته أيضًا. ظنّ أن جواسيس الخليفة قد تشككوا في علاقة (يوسف) بالنفط الطيار. بدا له ذلك الاحتمال كبيرًا، خاصةً بعد أن بلغه أن والي قوص (شاور بن مجير) أرسل كتابًا إلى والي الإسكندرية (طرخان بن سليط) يُحذره من وجود جواسيس لـ (نور الدين محمود) في دمياط.
ولكنه لم يفهم لماذا اختطف هؤلاء الناس (الحسين)، ومن هذه الطفلة التي تسمى (دميانة)؟

وصل إلى الحانة الخالية من الناس، إلا من طاولة صغيرة، كان يجلس عليها (فواز) و(حمدان) رفيقاه. عانقهما في شوق، ثم قال لهما بعد أن جلس:

- هل علمتما بما حدث لـ (يوسف)؟

لم تكن الأخبار قد وصلت إلى أي منهما، فـ (يوسف) لم يتردد على الحانة منذ زمن بعيد. حكى لهما (موهوب) ما سمعه من الصبي (يحيى). جمعهم الصمت لفترة، ثم قال (حمدان) بعد تفكير:

- لقد انكشف أمر (يوسف).

نظرا إليه في قلق، دائمًا يعرف (حمدان) أكثر ولا يخطئ حدسه أبدًا، سأله (موهوب) في قلق:

- هل تقصد علاقته بالنفط الطيار؟

هز رأسه نفيًا، وقال:

- كلا، بل بمقتل الخليفة (الظافر).

انزعج (فواز)، تلفت حوله، ثم قال بصوت خافت:

- ماذا تقول يا (حمدان)، انتهى الأمر من زمن، لماذا تنبش في الماضي؟

قال (حمدان):

- بل من أخذ الولد هو الذي يريد أن ينبش في الماضي!

ثم أردف في حنق:

- حذّرت (يوسف) من هذا الولد، كنت أعلم أنه سيكون قاتلًنا!

قال (موهوب) في صوت خافت، وهو يهدئ من روعه:

- فعلنا ما فعلناه بعلم من (طلائع بن رزّيك). ولن يسمح بأن يفتح أحدهم سجلّ الماضي!

قال (حمدان):

- الوزير ليس وحده يا (موهوب).

قال (فواز)، وهو يزدرد لعابه:

- من تظنه ينبش وراءنا؟

قال (حمدان):

- ربما عمة الخليفة (ست القصور)، وربما أمير جديد يريد أن يُطيح بـ (طلائع بن رُزِّيك).

قال (موهوب):

- هل نخبر (طلائع) بذلك؟!

قال (حمدان) متهكمًا:

- لا زلت غِرًّا في السياسة يا (موهوب)! لو شعر بالشكوك تحوم حوله لقدّم رؤوسنا إلى الخليفة على أسنة الرماح، لينفي التهمةَ عن نفسه!

ثم قام قائلًا:

- اسمعا، يجب أن نختفي عن الأنظار ولا داعي للقاء في الحانة.

قال (موهوب) في قلق:

- وماذا عن (يوسف)؟ أخشى أن يكون قد وقع في أيديهم!

قال (حمدان):

- لا أكترث لأمره، فهو من وضعنا في ذلك المأزق.

كانت (ست القصور) تجلس في قاعة الذهب إلى جوار ابن أخيها (الفائز)، الذي بدا عليه الشرود التام، وقد غاصت رأسه تحت عمامة الخلافة التي طمست حاجبيه. انحنى أمامها الحارس العملاق (عنبر)، بعد أن قبّل الأرض بين قدمي الخليفة الشارد، ثم قال:

- حضر الأمير (طرخان بن سليط)، والي الإسكندرية يا مولاتي.

قالت (ست القصور):

- فليدخل بعد أن يضع سلاحه، ومُر الحراس بأن يغلقوا الأبواب ولا يسمحوا لأحد بالدخول.

بعد قليل كانت قباب الدهليز تردد وقع أقدام (طرخان)، قبّل الأرض أمام عرش الخليفة، ثم انتصب واقفًا، وقال:

- أمركِ مولاتي.

قالت الأميرة (ست القصور):

- قد طلبتك لأني أعلم أنك أكبر الولاة وأقواهم في مصريا أمير (طرخان)، وبلادنا ودعوتنا في خطرٍ كبير.

قال (طرخان):

- نفدي دعوتنا وإمامنا المعصومَ، صلوات الله عليه وسلامه، بأرواحنا يا مولاتي.

قالت (ست القصور):

- حسنًا، ما قولك إذا علمتَ أن هناك خونةً في البسيدتيديتآمرون على

الإمامة، وعلى الدعوة الفاطمية! ويتصلون بـ (نور الدين محمود) سرًّا؟ والأهم: أنهم مَن قتلوا الخليفة (الظافر)، رضوان الله عليه.

قال (طرخان):

- أخبرينا من هم، وسنقطع أذرع الخيانة يا سيدتي.

قالت في حقدٍ شديد:

- لا يهم أذرعُ الخيانة، المهم رأسُها، والرأس هي (طلائع بن رُزّيك).

بُهت الرجل، وقال مشدوهًا:

- الملك الصالح (طلائع)!

قطبت حاجبيها، ثم قالت لـ (طرخان) في حقد:

- ليس ملكًا، وليس صالحًا.

ارتجف الخليفة فجأةً، فربتت على كتفه كي يهدأ، ثم أردفت في ندم:

- ليت يدي قد شُلّت يوم قطعت شعري، وأرسلتُ إليه ليُنجدنا من (عباس الصنهاجي)، وأنا لا أدري أني قد أسلمته مفتاح كل شيء!

بان التردد على وجه (طرخان)، ومع ذلك قال:

- أنا طوع أمرك يا سيدتي وطوع مولاي الخليفة. فما الذي ينبغي عليّ فعله؟!

كانت تعلم الكثير عن (طرخان) من رجالها، فهو -ككل الولاة الطامحين- مولعٌ بالمال والسلطة، ولهذا أعدت العدة جيدًا. أشارت إلى (عنبر)، فحمل صندوقًا كان يستقر إلى جوار العرش، وضعه أمامهما ثم فتحه، فقالت:

- هذه خمسون ألف دينار من الذهب، لك ولأخيك إسماعيل، كي تجمعا الرجال وتُطيحا بذلك اللعين عن الوزارة.

اتسعت عينا (طرخان) حين انعكس ضئ الذهب على بؤبيهما. ولكنها لم تمهله لينعم برؤية الذهب، فأشارت إلى (عنبر) كي يغلق الصندوق، ثم أمسكت ورقة ملفوفة إلى جوارها، لوّحت بها قائلة:

- وهذا مرسوم من الخليفة بتعيينك الوزيرَ الأجلّ، أمهره بخاتم الخليفة حين تأتيني برأس (طلائع بن رُزّيك)!

قال في نعومة ثعبان يزحف على بطنه:

- يحزنني أن أرى رأس الوزير (طلائع بن رُزّيك) معلقةفوق حربة على باب القاهرة. ولكن أحزاني حتمًا ستزول إذا كانت هذه هي رغبة مولاي الإمام المعصوم.

ثم أردف:

- أمهليني بعض الوقت حتى أتدبر الأمر يا سيدتي.

قالت في ظفر:

- لا بأس، والمال والمرسوم في انتظارك.

قبّل الأرض أمام الخليفة، الذي عاودته الرجفة مرة أخرى. ثم تقهقر بظهره عدة خطوات، وانصرف.

وما إن انصرف حتى اشتدت التشنجات بالخليفة (الفائز)، فقالت (ست القصور) لـ (عنبر) في قلق:

- اذهب يا (عنبر)، واستدع الطبيب على وجه السرعة.

***

في تلك الليلة، وبينما كان القمر يعلو فوق جبل المقطم، ويُطل على مدينة الفسطاط الساكنة قبيل الفجر اخترقت طعنةٌ مسمومةٌ ظهرَه، ارتطم جسده بالأرض، بينما انسلّت روحُه نحو السماء. اخترق طيفه الفضاء الساكن في سرعة، حتى بدت الكواكب وكأنها تتهاوى من حوله، فجأةً رأى طيف رفيقه (حمدان)، يخترق الظلام بجواره كشعاع ضوءٍ ومض ثم انطفأ سريعًا. نادى بصوت تبعثر بين النجوم:

- حمدان!

فلم يرد عليه!

تباعدت المسافة بينهما، وفصلتهما آلاف الكواكب، فجأةً سكن في موقعه وتعلّق جسده، وكأنما نفدت طاقته على الصعود، صرخ مرةً أخرى، يستجير بصديقه الذي انطلق وحده، ولكن صرخته راحت هباءً، نظر حوله في ذلك الفضاء الفسيح الموحش، قبل أن يهوي كشهابٍ محترقٍ على جبل المقطم.

استيقظ فزعًا، على صوت آذان الفجر يعلو في خلوة الشيخ ابن الكيزاني. قام وهو يحمد الله أنه كان حلمًا. توضأ، واستعد للصلاة، وقد عزم ألا يخبر أحدًا بحلمه. صلى ركعتي الفجر وانتظر أن يقيم المؤذن الصلاة، فجأةً شعر بيد أحدهم على كتفه، التفت فوجده (فواز) ممتقع الوجه، زائغ العين، وقبل أن يسأله ماذا حدث، وجده يقول في خوف:

- قُتِل (حمدان) في بيته.

*****

قرية (أبو جِنْس)

(٥٧)

مددت ديونها كاملةً نحوه؛ أطعمته، وأسقته، واعتنت به في مرضه، ثم اشترت له ملابس جديدةً، بدلًا من تلك التي اتسخت. تذكرت يوم أن أعادها إلى بيتها بملابسها الممزقة المتسخة لم يعد له من فضل عليها، بل ردت إليه فوق ما يستحق هو أيضًا شعر بذلك، ولكن امتنانه الأكبر كان لرعايتها للطفلة، رغم أنها لم تعد ذلك من جملة الديون التي تقوم بسدادها، ففي هذه الأيام القليلة، تربعت الطفلة في حنايا أضلعها، وتوسدت شغاف قلبها بسلامة، وكأنما أتت من رحِمها.

دخل عليهما الفِناء بعد أن استحمَّ وهذب شعره ولحيته. شعره الناعم الممتد خلف كتفه، مع لحيته التي طالت كثيرًا عن لحيته في قوص، منحاه هيئة القديسين. اقترب منها وهي تهز (دميانة) على الأرجوحة التي صنعتها على شجرة التوت. أمسك بالحبل الآخر واشترك معها في دفع الطفلة، وهو ينظر إلى طفلته في شفقة. لو قرأت تعبير وجهه، لوجدته يقول: «مسكينةٌ أنتِ يا (دميانة)، تتنقلين من يدٍ إلى يدٍ ولم تتجاوزي بعدُ عامكِ الثالث». ولو قرأت أمنية عينيه، لوجدتها: «لو قُدر لي أن أعود، أعدكِ ألا أفارقك مرةً أخرى، أنتِ والحسين».

قالت له (وَمْن):

- هل تشعر بأنك قادرٌ على السفر؟

قال في اقتضاب:

- أنا الآن بخير.

ثم أردف وهو ينظر نحوها:

- شكرًا لكِ يا (ومن). لقد فعلتِ الكثير من أجلي.

أطرقت، وقالت:

- أردتُ أن أوفيَ إليك بعضًا من صنيعك.

صمت قليلًا، ثم قال:

- أتدرين يا (ومن) أني لم أشعر بالطمأنينة في مكانٍ قدرَ شعوري هنا؟

نظرت نحوه، فرأت وجهه الأبيض وقد انعكس عليه ضوء الشمس، ابتلعت ريقها ثم أطرقت مرةً أخرى. قالت وهي تدفع الطفلة بيدها، دون أن تنظر نحوه:

- لأنها بلدةٌ صغيرةٌ ليست صاخبةً مثل الفسطاط أو قوص.

أوقف الأرجوحة بيده، وقال:

- كلا، الأمر ليس له علاقةٌ بالأرض، وإنما بكِ يا (ومن)!

نظرت نحوه هذه المرة، فتابع بصوت مسمعه عذبًا:

- أنتِ مثل أمي، قلبكِ أرضٌ بِكرٌ باقيةٌ على فطرتها، ومن يجدها يرفع رايته عليها ولا يرحل!

خفق قلبها، لم تسمع كلامًا كهذا من قبل. فتركت الأرجوحة، وسارت مبتعدةً، حمل هو الطفلة وسار خلفها، ثم وضع الطفلة على الأرض، ثم قال لها بالقبطية:

- أوجاي.

التفتت نحوه، ثم قالت:

- ماذا قلت؟

قال لها:

- أوجاي، أي: كوني بعافية!

سألته:

- هل تعرف القبطية؟

قال لها:

- نعم، واليونانية والعربية.

ثم أردف:

- ولكني لا أجد مرادفًا لكلمة (أوجاي) في أية لغة، كلمات الوداع في اللغات الأخرى تدعو بالسلام، أو الخير ولكن هذه الكلمة تدعو بالعافية. أتدرين ما العافية؟

تذكر انك حملت رواية عهد دميانة حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

لم ترد، غاصت في عينيه العميقتين، وتمنت ألا ينقطع عن الكلام. فتابع:

- العافية اسم يجمع بين السلامة، والصحة، وأيضًا الخلاص. المسلمون في دعائهم يسألون ربهم العفو والعافية، والقبط يتمنونه لبعضهم البعض كل يوم. ولهذا أحب هذه الكلمة.

لأول مرة تشعر بضعفها أمامه، حلاوة كلامه تبدو كحلاوة آخر رشفة في كأس من العصير لماذا سيرحل الآن؟ لماذا لا يبقى لعدة أيام أخرا قالت وهي تنظر إليه:

- (يوسف)، ستعود مرةً أخرى، أليس كذلك؟

همّ أن يقول: لا أدري! ولكنها قطعت عليه الطريق حين قرأتها في عينيه، وقالت في رجاء:

- عِدني أن تعودا

ثم أردفت، وكأنها تتبرأ من رغبتها في أن يعود لأجلها:

- عُد لأجل (دميانة).

صمت قليلًا، ثم قال بصدق:

- أعدكِ أن أحاول.

طال بينهما الصمت، فقالت:

- أريد أن أطلب منك شيئًا؟

- ما هو؟

- أريد أن أعمّد (دميانة) في الكنيسة!

لم يخطر في باله أن يفعل، وكان يظن أنها لا تزال صغيرة، فقال:

- لماذا الآن؟ أليست صغيرةً؟

قالت:

- بلى، ولكني أريد أن أعمدها كي يحفظها الرب من الشرور، وكي يحفظك

من أجلها.

تذكر رسالة (يوستينا) الأخيرة، التي لا يزال يحفظها عن ظهر قلب، وعبارتها التي قالت فيها: «أتمنى أن تربّي (دميانة) في كنفك، أريدها أن تحب الله كما كانت أمك (ورد) تحبه»، فتشجع. إن كان لا يستطيع أن يحقق أمنية (يوستينا) الأولى، فلا بأس أن يبدأ في تحقيق الثانية، لأجل (يوستينا)، ولأجل (دميانة)، ولأجل (ومن) أيضًا.

هزّ رأسه، ثم قال:

- لا بأس، هي لك، ربّيها كيفما تشائين حتى أعود.

قالت سعيدة:

- شكرًا لك.

ثم صمتا حتى حانت لحظة الوداع، فقالا في صوتٍ واحد:

- أوجاي!

*****

(٥٨)

عادت إلى الدير بعد أيام من الانقطاع مكثتها مع (يوسف)، وهي تحمل (دميانة) على ذراعها. أثار وجود الطفلة التساؤلات بين شعب الكنيسة القليل، ومن لم يعرف بقصة الغريق الذي وجدوه في الكنيسة، عرفها بعد أن ترددت الحكاية عشرات المرات. كانت تذهب إلى البِيعة بعد أن ينتهي القداس، ومعها (دميانة). تتركها تلعب حولها في فرح، أو تحملها على ظهرها حين يغلبها النوم وتربطها بقماطٍ من القماش، كما يفعل الأحباش. كانت تشعر بسعادة كبيرة، وهي تجمع الليمون، وأنفاس الطفلة النائمة على

ظهرها تدغدغ جيدها. وفي أوقات الراحة، كانت تُجلسها إلى جوارها، فيتلاعبان، ويأكلان سويًا، حتى اعتاد الناس وجودهما معًا. وفي يوم من الأيام ذهبت إلى الأب (سمعان) بعد انتهاء القداس، وقالت له:

- أريد أن أعمّد (دميانة).

تردد قليلًا، وهو يشعر بثقل ما سيقول. فهو لم يطمئن بعدُ لها، يساوره الشك في ذلك الرجل الغامض، الذي ظهر واختفى، بعد أن ترك تلك الطفلة، ويساوره الشك أيضًا في علاقته بـ (ومن). ودّ لو تقرّ له بالحقيقة كاملةً، ولكن كيف للكاهن أن يرفع الوزر عمّن لم يأتِ إليه مقرًا بذنبه؟

قال لها كي يبرأ ضميره:

- اسمعي يا (ومن)، لا يدخل ابن الزنا في جماعة الرب.

قالت متألمةً:

- ليست ابنةَ زنا!

شعر بالندم لتسرعه، فقال:

- أين أبوها؟

- رحل، وأذن لي في أن أعمّدها!

- متى يعود؟

- لا أعلم.

- أين تعمّد؟

- لا أعلم!

تردد قليلًا، ثم رأى تلك النظرةَ الكسيرةَ في عينيها، فرقَّ قلبه لها. أمرها بأن تخلع ملابس الطفلة، ثم أمسكها من تحت إبطيها، وغطّسها في جرن التعميد ثلاثًا، وهو يتلو عليها صلواته، بينما الفتاة تبكي في فزع. ضمّتها (ومن) إلى صدرها متلهفةً، بعد أن خرجت من جرن التعميد، ثم جفّفت جسدها بجلبابها، وأسلمتها للكاهن مرةً أخرى. مسح الكاهن على جسد الطفلة بزيت الميرون المقدس، حتى مكنت للمسات يده الحانية، ونامت على صوت صلاته وتراتيمه. انتهى الطقس، فخرجت (ومن) من الكنيسة، وهي تحمل الطفلة النائمة، وشعورٌ بالأمومة يتفجّر في صدرها، حتى توهّمت ثقلًا في نهديها. عادت إلى البيت فوضعت (دميانة) في الفِراش، ثم خلعت ثيابها المبتلة من ماء التعميد. تحسّست ثدييها، فتيقنت بأن ما توهمته كان حقيقيًا. ضغطت على نهدها المنتفخ، فنزّت من حلمته قطراتٌ من اللبن، أثارت خوفها. فقد كانت تترقب ذلك الشعور الذي ينمو بداخلها، منذ اقتحمت تلك الفتاة حياتها، بقلق؛ شعورٌ بالأمومة فاقَ كلّ رغبةٍ لديها، حتى رغبتها في البتولية. ما بال الشيطان يتلاعب بغرائزها؟ فتارةً يُغويها بـ (يوسف) في أحلامها، وتارةً يُغويها بأمومة تلك الطفلة، وكأنه يريد أن يسحبها بعيدًا عن الطريق الذي رسمته لنفسها. جلست على السرير عاريةً وهي تشعر بالحيرة. فجأةً تحركت الفتاةُ وبكت، وهي تُمسك أذنيها، التي يبدو أنها قد مُلئت بماء التعميد. حملتها وضمتها إلى صدرها العاري، ظلّت تُهدهدها حتى تنام. ودون أن تشعر ألقمتها ثديها، وشعورٌ باللذة يغمرها، ويسمو بها فوق أيّ خطيئة.

*****

القُسطاط

(٥٩)

توجه إلى بيته مستترًا بظلام الليل. تسلل إلى الدار وهو يتلفت حوله في حذر. حين دخل فوجئ بالبيت خاويًا إلا من حوائطه وعروشه! فقد نُهبت شراشفه، ووسائده، وأوانيه، وصناديق الملابس، حتى برج الحمام، طارت حمائمه وتركت قواديسه خاويةً. لم يعلم أن خادمته قد أصابها الذعر بعد أن تكرر هجوم الحراس على البيت بحثًا عنه، فهربت خوفًا على نفسها وتركت البيت مهجورًا. وأثار البيت المهجور أطماعَ اللصوص، فسطوا على كل شيء تقريبًا. الشيء الوحيد الذي وجده كما هو، كان خزانة كتبه. فتح الخزانة فوجد مفتاح الخان، وكتبه، ورسائل (يوستينا)، ومجموعةً من الأوراق كتبها تعليقًا على كتاب (إخوان الصفا). وضع المفتاح في جيبه، ثم جمع الأوراق في يده، وهو يحمد الله أن اللصوص لا يقرؤون. فرد ملاءةً على الأرض، ثم ألقى فيها الأوراق والكُتب، ثم صرّها، وحملها على ظهره، وتسلل خارجًا من الدار كما دخل إليها. وضع الصرةَ على العربة، ثم توجه إلى سوق الوزاقين الخالي في تلك الساعة. نزل عن العربة، ثم سار في الزقاق الضيق حتى وصل إلى حانوته. فتح الباب في حذرٍ وبطءٍ حتى لا يصدر صوتًا، ثم دفعه ليدخل، فإذا بـ (يحيى) النائم على الأرض، ينتفض وقد أفزعه فتح الباب.

قال الفتى وهو لا يصدق:

- سيدي (يوسف)!

احتضنه (يوسف)، وقال:

- نعم يا (يحيى)، معذرةً فقد أفزعتك.

قال (يحيى):

- أين كنت؟ أتى السيد (موهوب) مرتين ليسأل عنك، وفي المرة الثانية، كان منزعجًا، وترك لك رسالةً.

ثم قام، وفتح الخزانة، وأحضر الرسالة. فتحها (يوسف) وقرأها بعينيه في لهفة، فوجد فيها: «قُتِل حمدان، وهرب فوّاز إلى حلوان، احذر البصاصين في الأسواق، وحذارِ من الظهور في الحانة». طوَى الرسالة، وقد اعتصر الألم قلبه على صديقه (حمدان). رأى (يحيى) الدموعَ في عينيه، فسأله:

- هل الأمور بخير يا سيدي؟

قال في أسى:

- كلا يا بني! أغلقت الدنيا نوافذ خيرها، وفتحت أبواب الشرّ على مصراعيها!

ثم أردف:

- اسمع يا (يحيى)، سأسرُّ لك سرًّا، فأنا لا أدري ما الذي تحمله الأيام القادمة.

قال (يحيى):

- قل يا سيدي.

قال (يوسف):

- قد تركتُ ابنتي (نميلة) عند امرأةٍ في قرية (أبي حنّس)، اسمها (وسن)، فإن لم أعد، أو قضيتُ نَحبي، أسلِمها مفتاح الدار. أما الخان فهو لك، على أن تقتسم ربحه مع (الحسين) و(نميلة).

انزعج (يحيى)، ولكنه قال:

- حفظك الله يا سيدي، سأفعل ما تأمر به.

قال (يوسف):

- حسنًا، ارفع فتيل المصباح الآن، وآتني بورقة ومحبرة وريشة.

فتح (يحيى) الخزانة، وأعطاه طلبه، ثم قال:

- هل أملي عليك شيئًا يا سيدي؟

قال له:

- كلا، فقط، انتظرني بالخارج.

خرج (يحيى)، فغمس (يوسف) الريشة في الدواة، ثم شرع يكتب:

"بسم الله إله الكون هذا ما أنشأه الكاتب (يوسف بن صدقة القيسراني)، إلى ابنته (دميانة بنت يوستينا) .....

مر وقت طويل قبل أن ينادي على (يحيى)، أعطاه الكتاب، ثم قال:

- بعد أن تعطيها مفتاح البيت، أعطِها ذلك الكتاب، وقل لها: «هذا عهد أبيك يا (دميانة)!»

ثم ودّع (يحيى)، وهمّ أن ينصرف، فسأله:

- إلى أين ستذهب يا سيدي؟

قال:

- إلى مكان أبيت فيه بأمان حتى الصباح!

(٦٠)

توقف بالعربة عند خلوة الشيخ ابن الكيزاني بالمقطم. ربط حصانه ودخل إلى الفِناء الذي علا فيه صفير رياح الليلة الباردة من شهر طوبة. برودة الجو، والوقت المتأخر من الليل جعلا الفناء خاليًا تمامًا من المريدين. اختار ركنًا لا تعبث به هبات الهواء، فوضع فيه متاعه القليل، ثم رقد على جنبه. توسد كفه والتحف الغطاء، ثم أغمض عينيه مستدعيًا النوم. رغم التعب، طافت برأسه صورٌ عِدة: (ورد)، و(يوستينا)، و(دميانة)، و(ومن). ولكن (الحسين) كان أكثر استحواذًا على عقله. ثقل جفناه، فأغمضهما، وترك لخيالاته العنان. فجأةً سمع صوتًا، ففتح عينيه، ورأى باب زاوية الشيخ يُفتح، مفسحًا الطريق لنور الحجرة كي يتسلل إلى الفِناء المظلم. جلس منتبهًا في مكانه، وترقب خروج الشيخ الذي لم يره في حياته قط. اتسعت عيناه حين رآه يخرج من الباب مرتديًا جلبابه الأبيض، ومشمرًا عن ساعديه غير عابئٍ ببرودة الجو. صعقته الهيئة التي طالما رأى مثلها في نوبات هذيانه. اعتدل في مكانه، وتقوَّس ظهره وهو يحدق غير مصدق! هو الآن لا يهذي، بكل تأكيد. ربما يبدو الرجل أقلَّ طولًا، أو أكبر سنًا، ولكنها الصورة نفسها التي كانت تطارده عمرًا بأكمله. رآه يميل نحو البئر ويملأ دلوه، ثم يصب الماء على يديه ويمسح به وجهه ورأسه، وقدميه. صوت تساقط الماء جعله يشعر برعدةٍ أعادته سنواتٍ إلى الوراء، وسكون الرجل المتوضئ جعله يقول بصوتٍ خافتٍ حتى لا يُفزعه:

- من أنت؟

انتفض الرجل مكبِّرًا، ثم التفت نحوه، وقال:

- بل، من أنت يا بني؟ وما الذي يجعلك تنام في البرد هكذا؟

أزاح (يوسف) الغطاء، ثم قام من مكانه، اقترب من الشيخ، وقلبه يخفق، وقف قبالته ثم كرر في رجاء باكٍ:

- من أنت؟

قال الرجل في هدوء:

- أنا (عبد الله)! (عبد الله بن الكيزاني).

ردد (يوسف):

- كلا، أنت شيخي، أنا أعرفك، رأيتُك من قبلُ.

- يعرفني الكثيرون، فأنا لستُ وهمًا ولا محجوبًا.

- أراك في اليقظة وأراك في المنام، رأيتك وأنا طفل، وبحثت عنك طويلًا وأنا رجل!

- لماذا تبحث عني؟

- لأن روحي معلّقةٌ بك منذ عقدتني في البحر.

صمت الشيخ قليلًا، ثم قال في الهدوء ذاته:

- لا أفهم ما تقول.

ارتجف جسده، وهو يقول:

- صدقني أيها الشيخ، أنا لا أهذي.

قال مبتسمًا:

- مَعاذ الله! ولكن ربما كانت روحُك تبحث عن شيء أكبر.

- كلا، بل كانت تبحث عنك أنت.

ربّت على كتفه كي يُهدئ من روعه، وقال:

- الرّوح سرٌّ من أسرار الله يا بني، لها سجد الملائكة، وعليها انطوى سرُّ الحياة. هي نفخةٌ مباركةٌ من رُوحٍ قُدُس يتشاركها بنو آدم، وهي طاقةٌ لا تفنى حتى تعود إلى مصدرها.

ثم أمسك كتفيه، وقال:

- الأرواح لا تبحث عن بعضها يا بني، وإنما تبحث عن مصدرها!

- وأين مصدرها؟

أشار بسبابته إلى السماء:

- هناك!

- أريد أن أرافقك!

- لست بحاجةٍ إلى رفقتي، أنت تبحث عنه هو!

- كيف أصل إليه؟

- الوصول إليه سهلٌ يسيرٌ؛ تحدّث إليه وسيسمعك!

- ولماذا تركني حائرًا عمرًا بأكمله؟!

- أعطاك نفخةً منه تمنعك من الحيرة، وتُنير لك الظلمة!

- أريد أن أخاطبه الآن!

- تهيأ للقائه، ولا تتردد!

- كيف أتهيأ؟

- انتظر.

سار الشيخ نحو البئر ثم رفع الدلو الممتلئ، ووضعه إلى جواره. غرف بيديه الماء، ثم مسح به على ذراعي (يوسف) ووجهه ورأسه. شعر (يوسف) بالماء البارد يتقطر على جبهته ووجهه فارتجف. وارتجف أكثر حين جلس الشيخ على الأرض ثم رفع قدميه عن الأرض، الواحدة تلو الأخرى ثم غسلهما بالماء. قال للشيخ وقد امتزجت قطرات دموعه بقطرات الماء المتساقطة على وجهه:

- هل تهيأت؟!

قال له الشيخ:

- نعم!

ثم أشار إلى خلوته، وقال:

- ادخل إلى هناك، وتحدث إليه كيفما تشاء!

- هل سترافقني؟

- قلت لك: لست بحاجةٍ إلى رفقة!

سار وعينه تتعلق بالنور المتسلل من باب الحجرة، تخيل أمه تقف خلف الباب، وتتطلع بدهشةٍ إلى ثيابه المبتلة، وتصرخ في أبيه قائلةً: «اذهب لتعرف من الذي عقد ولدك»! دلف من الباب ثم وقف على عتبته، استدار ونظر نحو الشيخ الواقف إلى جوار البئر ثم أغلق الباب، واختلى بنور الحجرة وحده!

أبو حنَس

(٦١)

لم يكن صبحًا كسائر أيام الصبح في (أبي حنَس). شهد الناس حدثًا لم يروه منذ زمن بعيد. أتت قبائل العربان من جهة الصحراء، وحطوا رحالهم على تخوم القرية. (العربان كما الغربان)، هكذا تقول الأسطورة في (أبي حنَس)؛ إذا ظهروا بأرض حلَّ وراءهم الخرابُ وعمَّ الدمارُ والقتل. توقفت الحياة في الطرقات، والتزم النساء بيوتهن، ومنعوا أطفالهن من الخروج، أُغلقت الصوامع، وحُصّنت الأبواب، ولجأ الكثيرون إلى الدير محتمين ببركة الدين وبأسواره الحجرية العالية التي خلّفها الرومان. كانت المرة الأولى التي تشهد فيها (ومن) حدثًا كهذا. شعرت بالرعب، والتعجب، فلماذا يهجم هؤلاء الناس على قريةٍ آمنةٍ وبيوتٍ تُقام فيها الصلوات، ويلجأ إليها الفقراء! أمرها الأب (سمعان) أن تظلَّ بالبيعة، مع (دميانة)، لأن الطريق غير آمن. رأت الأب (سمعان) وهو يضع صناديق العشور ومقتنيات الكنيسة في سراديبِ أسفل المذبح ثم يغلقه، سألته في وجل:

- ماذا يريدون منّا؟

قال في سرعة دون أن يلتفت إليها:

- يريدون المال والغلال!

قالت في لهفة:

- وأين الولاة والأمراء من ذلك؟

قال وهو يسير خارج الكنيسة:

- هل تظنين أنهم يهتمون لهجوم بعض العربان على ديرٍ في الصحراء؟

ثم أشار إليها، وقال:

- هيا، عودي إلى مخبأ النساء، وإذا دقت الأجراس، أحكموا غلق الأبواب.

خرج إلى الفِناء الذي يفصل الكنيسة عن سور الدير فوجد الرجال قد أقاموا صفين من المتاريس خلف الأبواب، ورأى القيم (بشندي)، يحمل نبوتًا توارثه عن آبائه، يطوف به وقد بدت على طرف العصا الغليظة بقعٌ غامقة اللون من آثار معارك مماثلة حدثت في الماضي. فتمتم بالدعاء، وتمنى ألا تقع معارك تُهرق فيها الدماء.

فجأةً دقَّت الأجراس، حين تقدمت قبيلةُ العربان نحو الدير ارتفع البخور من المذبح إلى السماء، محملًا بصلوات الرهبان. وحملت معها أصوات صراخ النساء. توقفت حوافر الخيل عن السير عند باب الدير ولكنها لم تتوقف عن إثارة الرمال في مكانها. هبط قائد العربان عن فرسه، وتوجه إلى الدير طرق على الباب بشدة بيده، وهو يقول:

- يا أهل الدير ما جئنا للقتال، نريد الغلال والطحين.

لم يسمع ردًا، ولكنه كان يعلم أنهم يسمعونه، وبالفعل كان الأب (سمعان) يقف خلف الباب يفرك يديه في قلق، وبجواره العم (بشندي) يقبض على نبوته بعصبية، بينما اختبأ بعض الشباب خلف مزاغل السور في صمت.

كرر الرجلُ النداءَ ثانيةً، وقال:

- يا أهل الديرِ أجيبونا، فما نريد أن ينالكم أذى، فقط نريد الغلال والطحين.

لم يسمع ردًا للمرة الثانية، فأشار لاثنين من رجاله كي يصعدا السور فانطلقا يحملان سُلمًا عاليًا من الخشب، أسنداه إلى السور ثم تسلقه أحدهم بخفةِ قِطٍّ حتى وصل إلى نهايته، بينما قال الرجل الواقف أمام

الباب:

- لو شئنا اقتحمنا الباب، ولكننا نريد أن ندخل في سلام ونخرج في سلام.

فجأةً علَت صرخةٌ انتفض لها الجميع، حين سقط الشابُ المتسلق مُحطَّم الساقين، بعد أن دفعه أحد الشبان الأقباط من فوق السور.

صرخ قائد الفرسان حين رأى رَجله يصرخ من الألم، وقال في غضب:

- ما أردنا القتال، ولكنكم بدأتم به.

ثم صرخ بصوت هادر:

- اقتحموا الباب يا رجال!

حمل رجال السرية جذعًا طويلًا من جذوع النخل، شُذِّب رأسه فبدا وكأنه حربةٌ من آثار قوم عاد، وقد التفَّ حوله مقابضُ من الحبال، أمسكها الرجال بقوةٍ وهم يهرولون نحو الباب. أنّ البابُ مع ارتطام الجذع به، وأصدر مصراعاه صوتًا، خفق له قلب الأب (سمعان)، وزلزل قلوب الرجال الواقفين حوله، في حين قال العم (بشندي):

- ستتحطم رأسُ من تطأ قدمه الدير!

استبدّ القلق بالأب (سمعان)، فجأةً ارتطم الجذع مرةً أخرى بالباب، فتفسّخت بعض ألواحه، وظهر طرفه المدبب، فقال في وجلٍ وكأنه يحادث نفسه:

- سيتحطم الباب!

نظر نحو كبير الشمامسة، وكأنه يستشيره، هو لا يريد قتالًا؛ سلامة الدير ورجاله أهم عنده من الغلال والطحين، ولكن يبدو أن الأمور ستسير إلى

غير ما يريد. فجأةً اخترق الجذع البابَ بعد الضربة الثالثة، وصنع به نقبًا نفذ منه أحدُ العربان وهو يصرخ متحمسًا. استقبله الشباب الواقف خلف الباب باللكمات، ثم طرحوه أرضًا، ولم يتردد العم (بشندي) في أن يهوي بعصاه على عضده. ولكن لم تمر لحظاتٌ حتى تزايدت أعداد المتسللين من الأعراب المحملين بالسيوف، اشتبكوا مع فتيان الكنيسة، وشقَّ السيفُ صدرَ شاب من خدام الكنيسة فسقط مضرجًا في دمائه. صرخ الأب (سمعان) في هلعٍ حين رأى الشاب يسقط صريعًا، وقال:

- لا داعي للقتال، لا داعي للقتال، الطحين والغلال لكم!

انفتح الباب، ودلف القائد إلى مدخل الدير. اطمأن إلى أن رجاله بخير، ثم ألقى ببصره على الشاب القتيل، والجرحى الذين سالت دماؤهم، ثم قال للأب (سمعان):

- أخطأت أيها الأب حين لم تبادر بفتح الباب.

بعد وقت قصير كانت مخازن الغلال تُفتح، وجوالق الطحين والقمح تُحمل على خيل العربان بقدر ما احتملت. عيون النساء المختبئات كانت تذرف الدمع في صمت، حتى لا يلتفت إليهن أحدٌ من العربان فيأمر بعضهن أو كلهن. كانت (ومن) تحتضن (دميانة) وتشعر وكأنها في كابوس مريع. تبكي وهي لا تصدق أن جهد شهور قد سُلب في لحظات. وتساءلت كيف سيحيا الفقراء والرهبان، بعد أن فقدوا طعامهم لشهور قادمة!

*****

(٦٢)

دقَّ الحزن وتده في دير أبي حنس ثم بسط خيمته على القرية بأكملها. أنَّات المجروحين، والدماء التي لطَّخت الأرض، وصوامع الغلال الفارغة، كل

ذلك كان خلفيةً كئيبةً للوجع الذي اعتصر قلب الأب (سمعان)، وهو يُشرف على غُسلِ الشاب الذي لقيَ حتفه. ذرف دموعه حين رأى الجرح النافذ في الصدر اليافع، وقهره شعورٌ بالذنب أنه لم يسمح للصوص بالدخول بغير مقاومة. انتهى الغُسل، فألبس الرهبان الشابَّ الصريع لباسًا آخرَ نظيفًا، وعطروه بالصندل ثم وضعوا على وجهه منديلًا مثلثًا، ثم أشعلوا من حوله البخور ورتلوا عليه المزامير استعدادًا لإقامة القداس. حين خرجوا من حجرة التحضير إلى الصحن لإقامة قداس الوفاة أمام شعب الكنيسة، علا البكاء والنحيب، وفاق صراخ أهل الشاب كلَّ صراخ، ولم يستطع الأب (سمعان) أن يمنعهم، فهو نفسه كان يبكي وينتحب.

في الأيام التالية انحسر شعور الحزن أمام موجات القلق؛ نفد القمح من الدير ولم تكفِ تبرعات الناس، الذين كانوا يعانون في الأصل من الفقر والغلاء، في سد احتياجات الدير والرهبان لأكثر من بضعة أيام. أرسل الأب (سمعان) إلى مطران الإبراشية في الأشمونين، يُخبره بما وقع عنده، ويطلب منه المعونة. وأرسل كذلك للمحتسب، لعله يتتبع اللصوص. كانت (وسن) تنظر بمشاعرَ مضطربةٍ لما يحدث. تشعر بالغضب لما وقع لأهل الدير، وتشعر أيضًا بالخوف. ألهذا الحد يمكن أن يستباح أمان المرء فيصير لقمةً سائغةً في فم قاطع طريق، يلوكها في لحظات؟ لو وقعت حادثةٌ كهذه في قرية من قرى المسلمين، لانتفض الولاة، ولأعلنوا الحرب على العربان. حدث ذلك بالفعل، وكان الولاة يتتبعون العربان، فيقتلون فريقًا، ويأسرون فريقًا آخر. ولكن هل يثير الاعتداء على دير للقبط مشاعرَ الوزير أو يحرك لهم ساكنًا؟ تذكرت (يوسف)، فلامت نفسها أنها غضبت منه لأنه سمح لمشاعر الانتقام أن تتمكن منه. لم تكن تعلم أن شعور التسامح قد ينسحق أمام شعور القهر والظلم، كما أن التسامح المقرون بالضعف له مذاقٌ مريرٌ كالعلقم. مرت أيام وقد سيطرت عليها رغبةٌ في أن تفعل شيئًا لكنيستها،

وألا تقف عاجزةً في انتظار أن تأتي المعونة من الأسقف أو المحتسب. بعد انقضاء قداس الصباح، دخلت إلى حجرة الأب (سمعان)، فوجدته يجلس ساندًا مرفقيه إلى منضدة، ويضع يديه على رأسه. انعكاس أشعة الشمس المتسللة من الكوّة -الموجودة أعلى الجدار- على نصف وجهه، كشف قدرَ البؤس الذي يشعر به. قالت في صوت خافت:

- أريد أن أفعل شيئًا لكنيستي! أريد أن أعينها في محنتها!

فرد ساعديه على المكتب، وأمال رأسه نحوها، وقال بعينين تنضحان حزنًا:

- قد فعلتِ الكثير يا (ومن)! يكفي جهدك طيلة الشهور الماضية!

اقتربت منه، ثم قالت:

- كلا أيها الأب الحنون، ما قصدتُ هذا.

ثم أردفت:

- أنا امرأةٌ غنيةٌ، أمتلك أموالًا وضيعةً ومَعصرةً للقصب، وقد اعتزلتُ العالم كله كي أحيا في البتولية. ولكن يبدو أنه لا مفرّ من أن نختلط بهذا العالم، الذي اقتحم عزلتنا وأتى إلينا محملًا بشروره وقسوته!

رفع حاجبيه متعجبًا من كلامها، نظر إلى عينيها الناعستين، فرأى فيهما قوةً وحزمًا لم يرهما من قبل، قال لها مشفقًا:

- لا تُعرّضي نفسكِ للأذى يا بنيتي، فأنا أعلم أنكِ تخشين العودة إلى قوص، وقريبًا تأتي المعونة من أسقف الإبراشية.

قالت:

- لا تخش شيئًا يا سيدي الكاهن. لن يصيبني أذى. فقط أريد أن ترسل معي رجلًا يرافقني إلى قرية الشيخ عبادة!

قال متعجبًا:

- الشيخ عبادة؟!

أومأت برأسها، وقالت:

- نعم، لي خالٌ مسلمٌ يسكن هناك.

رفع حاجبيه متعجبًا، لا تزال تلك المرأة تدهشه بأسرارٍ جديدةٍ عنها كل يوم. صمت قليلًا، ثم قال:

- وماذا تريدين منه؟

قالت في ثقة:

- سيأتيني بأموالي من قوص.

أطرق برأسه كمن لا يمتلك حيلةً، ثم نادى بصوتٍ عالٍ:

- يا (بشندي)!

بعد لحظات دخل عليه (بشندي) الحجرة وقد تهدّل كتفاه انكسارًا، وقال له في وجوم:

- أمرك يا أبانا.

قال له:

- رافق السيدة (ومن) إلى قرية الشيخ عبادة، واحرص على أن تعود بها قبل المساء.

(٦٣)

خرج أهالي القرية والدير في جمع كبير يتقدمهم الأب (سمعان) والشمامسة، إلى قارعة الطريق، وقد وقفوا في مشهد مَهيب في انتظار قافلة الغلال القادمة من قوص. فرحة الناس بانكشاف المحنة امتزجت بالإثارة بعدما تداولوا حكاية المرأة الصالحة (وسن)، التي اشترت تلك القافلة بأموالها، فخرج الكثيرون منهم لرؤية المرأة، وليس لانتظار القافلة فحسب. سعادة الأب (سمعان) كانت أيضًا بالغةً بما فعلته (وسن)؛ ففي أوقات المِحن تهتز القيمُ أمامَ موجات اليأس، ثم تأتي الأفعال الصالحة من البعض كطوق نجاة ليحمي تلك القيَم من الغرق. أما (وسن) فكانت تقف متطلعةً إلى الأفق، وقلبها يخفق من الترقب. لم تصدق الأنباء حين أرسل خالُها (بشارة) رسولًا يقول إن قافلة الغلال قد خرجت من قوص، وفي طريقها إلى أبي حنّس.

أشرفت رؤوس الإبل من فوق التلة التي ينتهي إليها الطريق، فتعالت صيحات الناس المبتهجة، بعد أن تراءت أمامهم خمسة جِمال تتدلّى على جوانبها جَوالق الغلال. فجأةً نقرت إحدى النساء بالدفِّ وتغنت مع بعض النسوة، وكأنهن في عُرس:

ناديني بصوتك يا مسيح ناديني

فتحت لك قلبي وفرشت لك يميني

دقّيت صليبك على الإيدين وفي كفّي

وأبيع روحي في رضاك وما يكفي

يا (وسن) يا بنت الأصول تعالي

نخلك طرَح دهب بيلالي

تركتي الكون وقلتي حياتي فانية

ولا يسوى الدهب عندي بَركة مِطانية

ارتسمت البسمة على وجه الأب (سمعان)، بينما دمعت عينا (ومن) في خجل، وهي تسمع أهازيج النساء العفوية، تخرج من قلوبهن الممتنةِ لصنيعها. بعد قليل وصلت القافلة، فأسرع الرجال إلى إنزال الجَوالق عن النُوق المُناخة، وحملوها إلى صوامع الدير. بينما هرولت (ومن) وهي تحمل (دميانة) نحو خالها (بشارة)، أنزلت الطفلة أرضًا، ثم احتضنته قائلةً:

- أشكرك يا خال، لا أدري كيف فعلت ذلك!

ضحك وقال:

- اسألي من أتى معي!

قالت:

- من؟

أشار خلفه، فإذا برجل يمتطي أتانًا، يسير ببطء وخوف؛ فقد كان جسده يميل على ظهر الأتان، ويتشبث بيديه في اللجام خشية السقوط. لم تصدق عينيها حين وجدته الشيخ (إبراهيم). فقطعت المسافة الفاصلة بينهما عدوًا، وما إن نزل عن أتانه حتى هوَت على يده تُقبلها، ثم ألقت بنفسها في حضنه وهي تبكي في فرح. ربَت على ظهرها، وهو يقول:

- كيف حالك يا (ومن)؟ اشتقت إليك يا بنيتي.

قالت في صدق وهي لا تزال تبكي:

- وأنا أيضًا يا عم (إبراهيم).

كانت سعادتها بالغةً برؤيتهما. انتابها شعور سمكةٍ لفظهاالمد على الشاطئ، وقبل أن تلفظ أنفاسها، استعادها الجزر إلى حضن البحر مرةً أخرى، فأخذت تتلوى في الماء بجنون وكأنها ترقص رقصة الحياة. شعورها بالفرحة لرؤية خالها والشيخ (إبراهيم) جعلها تتساءل هل أفرغت قلبها حقًا من محبة العالَم، أم لا تزال في قلبها علقةٌ منه اسمها الأهل والأقارب والحنين إلى الذكريات؟

قال الشيخ (إبراهيم) باسمًا:

- جعلني خالُك أقطع المسافة من قوص إلى هنا على ظهر أتانٍ بغير سرج.

قال (بشارة) مدافعًا وضاحكًا:

- أولم ترفض البغلة، وفضّلت الأتان؟

تدخل (بشندي) الذي اقترب منهما ومعه الأب (سمعان)، وقال:

- لأنه عجوز ولا يقوى على امتطاء بغلة.

عانقه (إبراهيم) بفرح، ثم قال ضاحكًا:

- ليتني فقدتُ شعري مثلك يا (بشندي)، حتى لا تُعيّرني بشَيبتي!

ثم انتبه لوجود الأب (سمعان)، فانحنى يُقبّل يده التي تقبض على صليب من الخشب، رشمه الأب (سمعان) به، ثم قال باسمًا:

- بل نمتطي الأتان لأن يسوع كان يركب الجحش أو الأتان.

ثم أردف وهو يصافح (بشارة):

- بارك الرب صنيعكما، فقد أدخلتما الفرحة في قلوب الناس، وكشفتما عنّا

الكرب.

بعد قليل، كانوا يجلسون سويًا على الأرض في مضيفة الكنيسة، وقد افترشت بإفطار زهيد: خبز جاف، وجبن، وبطيخ، وبعض أوراق الفجل. تركهم الأب (سمعان) سويًا، ورافق (بشندي) إلى الصوامع كي يُشرفا على تخزين الغلال بها. كانت (ومن) تُطعم (دميانة) التي تجلس على حجرها، وتضع في فمها البطيخ بغير بذور، وهي ترقب نظرات خالها والشيخ (إبراهيم) المتسائلة، فبادرت بالإفصاح قائلةً:

- هذه ابنة (يوسف)، ماتت أمها، فتركها عندي.

خفق قلب (إبراهيم) حين سمع الاسم، فقال:

- هل (يوسف) هنا في (أبي حنّس)؟

قالت في اقتضاب:

- كلا. رحل ولا أدري متى يعود.

ثم سألته بفضول:

- كيف جمعتم المال؟ وماذا حدث لـ (بطرس)؟

قال الشيخ (إبراهيم):

- بعد أن رحلتِ عن البلدة، باع (بطرس) المعصرة، وغادر قوص. ظننتُ في بادئ الأمر أنه اغتصب المال وسافر به، ولكنني علمت من كاهن الكنيسة في قوص أنه وضع الأموال في صندوق العشور قبل أن يرحل. وحين جاء السيد (بشارة) وأخبرني بما حدث، استأذنت الكاهن في قوص في بعض الأموال، وبعت حانوتي لأكمل المال المطلوب لجمع القافلة.

قالت في دهشة:

- بعتَ الحانوت! وكيف ستعيش يا عماه؟

قال مستهينًا بجزعها:

- قد عشتُ ما يكفي يا (ومن)، يكفيني طاولةٌ صغيرةٌ أمام بيتي أبيع عليها الشموع حتى يأتي الأجل.

ثم أردف وهو ينظر إلى (بشارة):

- قد باع خالك (بشارة) جزءًا من أرضه أيضًا، كي يساهم في أموال القافلة.

نظرت إليه مندهشةً، وقالت:

- حقًّا يا خال!

قال (بشارة) في صدق:

- ولو امتلكتُ أكثر لما بخلتُ به يا (ومن)!

غَصّت (دميانة) بماء البطيخ، فخبطت (ومن) على ظهرها ثم مسحت فمها بيدها وأكملت إطعامها، وهي تسرح بأفكارها في أحوال القدر. تعارضت أحلام أبيها مع أحلامها في الرهبنة والبتولية، فمات أبوها وتفرّقت أمواله بين الأديرة والكنائس، وهربت هي من قوص بحثًا عن حلمها، فانتهى بها المطاف منغمسةً في شؤون العالَم، وتحمل على حجرها طفلةً لا تدري متى يعود أبوها! قام (بشارة) بعد أن فرغ من الطعام، وقال:

- سأرحل إلى قرية الشيخ عبادة، قبل أن يحل الظلام.

قامت، وهي تقول:

- كنتُ أتمنى أن تبيت عندي الليلة.

قال وهو يودعها:

- لن ينقطع الود يا (ومن).

ودعه الشيخ (إبراهيم) معانقًا، على وعد بلقاء آخر معه بينما قرر هو أن يمكث في (أبي حنْس) لبضعة أيام أخرى، كي يستعيد الذكريات.

*****

(٦٤)

حين عادا إلى البيت بعد منتصف النهار، أدهشه التغيّر الذي طرأ عليه، فأخبرته (ومن) بأن (يوسف) قد أعاد ترميمه بعد أن حطمه السيل. كان يتمنى أن يظل البيت كما هو، ولكن حتى مع هذه التغيرات غادرت بعض الذكريات مكانها بين الأركان، ونبشت وجدانه مستعيدةً صورًا من الماضي. الحجرة الباقية من البيت القديم، كانت حجرته وحجرة أخته (ورد)، وهذه الخزانة المستندة إلى الحائط، جمعه ظلامُها مع أخته في يوم من الأيام، قبل أن يفترقا بعدها للأبد. ملأ صدره بنفَس عميق، وكأنه يستدعي رائحة ذلك الزمان، ثم جلس على الأريكة. خلعت (ومن) طرحتها ثم قالت لـ (نميلة): «انتظري مع جدك الشيخ (إبراهيم) حتى أعد الغداء»، وصعدت الدرج إلى السطح. حمل (نميلة) على حِجره وتأمل وجهها الباسم. رغم شعرها البني، تبدو ملامحها قريبةً من ملامح (يوسف)، وتؤكد عيناها ذلك الشبه. أراد أن يلاعبها، فأحضر لوحًا من الخشب، وضع طرفه على الأريكة، وأسند طرفه الآخر إلى الأرض، ثم أجلسها عليها، وجعلها تنزلق عليه حتى تصل إلى الأرض. فرحةُ الطفلة جعلته يُعينها في صعود الأريكة كي تنزلق على اللوح مرةً أخرى. وضحكاتها جعلت (ومن) تهبط من السطح، بعد أن

أشعلت الحطب في فرن الخبيز وتركته يحمى. رائحة الدخان، وضحكات (دميانة) ملأت البيت الساكن بالدفء، وقلب (ومن) بالسعادة. قالت:

- ليتكَ تترك قوص وتظل هنا يا عم (إبراهيم).

قال وهو يحمل (دميانة) من الأرض ويعيدها إلى أعلى المزلقة:

- لو كنت أستطيع لفعلت منذ زمن يا (ومن)!

لم تفهم مغزى كلامه، وظنت أنه يقصد تجارته، فقالت:

- وما الذي يمنعك الآن بعد أن بعث حانوتك؟

التقط (دميانة) من الأرض ثم حملها إلى صدره، وقال وهو يلهث:

- الأمر لا يتعلق بالتجارة، يا (ومن)!

ثم قال:

- حين ترتبط بعض الأماكن بذكرى لا نريد محوها، نغادرها حتى تبقى كما هي.

ثم ناولها الطفلة، وهو يردف:

- وفي هذا البيت يا (ومن) ذكرياتٌ لو دارت عليها عجلة الأيام لمحتها، ولألفت غيابها، ولكني أريدها كما هي، كي أتذكرها كلما عدت إليه، وكأنها وقعت بالأمس.

رأت في عينيه أسًى، فقالت:

- تحمل الكثير في جعبتك يا عم (إبراهيم).

قال مبتسمًا:

- وهل حياة الناس إلا جعاب ذكريات؟

فجأة لمحت عينه الصليب الذي يتدلى من عنقها. كانت أول مرة يرى نحرها عاريًا، فأثار ذلك الصليب المعدني الصغير انتباهه. مد يده وأمسك به، وقد طافت برأسه ذكرياتٌ شتى. أدار الصليب، ومسح ظهره بين إصبعيه، وهي تتعجب مما يفعل! قال وهو يُجهد بصره:

- اخلعي الصليب.

وضعت (دميانة) على الأرض، ثم أدارت كفيها حول رقبتها، وفكّت قفل القلادة وأعطتها له. جلس على الأريكة، وقلبه يخفق. نفخه برذاذ فمه ثم دلكه بكمّ جلبابه. جحظت عيناه حين رأى الأحرف الأربعة التي نُقشت على ظهر الصليب، في كلمة (فيرت) بالقبطية، والتي تعني (ورد). قال وهو يلهث من الانفعال:

- من أين أتيت بهذا الصليب يا (ومن)؟

ردت في سرعة:

- منحه لي (يوسف)؟

اتسعت عيناه، وهو يقول:

- وكيف حصل عليه؟!

قالت له:

- قال لي إنه صليب أمه (ورد).

ولم تدر أن كلماتها تلك قد أطلقت سهمًا من جعبة ذكرياته، أدمى قلبه وشطره إلى نصفين!

خرج متوكئا على عصاه، وقد أحكم الطاقية على رأسه، ووضع الشال على كتفيه. لم تمنعه توسلات (ومن) من الخروج، وهي تقول:

- إلى أين تذهب؟

- إلى قبر أبي وأمي؟

- الطريق مظلم وموحش!

- يرافقني القمر والمؤمن لا يعرف الوحشة.

- آتي معك!

- لا، هذا لقاء عائلي.

- قلبي لا يطمئن لخروجك.

- تخشين من لقاء ابن بأبويه؟

ثم قال متنهدًا وهو يغمض عينيه ويشير بسبابته للسماء:

- هو من رتّب كل شيء، ولا شيء يفوق ترتيبه!

ألقت بنفسها في حضنه، وقالت:

- لن أنام حتى تعود!

ربت على وجنتها وقال وهو يودعها:

- أوجاي!

غادر القرية من جهتها الغربية ثم اتجه شمالًا. سار بتؤدة مهتديًا بضيّ القمر البدر نحو التلة العالية المعروفة بـ (كومة الشهداء)، والتي تقابلها مقابر أبي حنّس من جهة الجبل. بدت ظلال التلة التي تؤوي رفات مئات

الآلاف من الشهداء الذين قتلهم الرومان في عصر الشهداء، كمارد ضخم يقف شامخًا أمام خرائب مدينة (إنصنا) القديمة التي بناها الإمبراطور هادريان. بينما انساب بريق القمر كنهرٍ من الفضة في المسافة الفاصلة بين التلة والجبانة. تعلّقت يده بالعصا التي ينغرس طرفها المدبب في الرمال مع كل خطوة يخطوها. تهدجت أنفاسه من صعود الكثبان الناعمة، وارتعش فكّاه من البرد والانفعال، ثم انسابت الدموع على وجهه ولحيته، وهو يقول:

- كنتِ قريبةً يا (ورد)، كنتِ قريبةً أكثر مما أظن يا أختاه!

وصل إلى الجبانة، اخترق دروبًا ضيقةً موحشةً بين المقابر التي تعلوها قبابٌ رماديةٌ من الطين، تبدو ظلالها المفترشة على الأرض كأشباحٍ تحرس المقابر. دفع ساقيه المجهدتين، وألقى بحمولة جسده كلها على عصاه، حتى وصل إلى المقبرة التي لم يضلّ طريقه إليها أبدًا منذ كان طفلًا صغيرًا؛ فهي الوحيدة التي تعلوها قبةٌ بيضاء. فحين وقف باكيًا أمامها بعد أن دُفنت أمّه، أخبرته الراهبة التي جهزتها بأن الأرواح المتوفّاة تترك مكانها في السماء، وتجلس على القباب حين يأتي إليهم الزوار. فأتى في اليوم الثاني بدلوٍ به ماءٌ وجير، وطلى القبة بالأبيض حتى لا تضلّ روح أبيه وأمه طريقهما إلى المقبرة في أي وقت. وظلّ يجدد ذلك الطلاء كلما زار (أبي حنّس). وصل إلى المقبرة وهو يلهث. شعر بنيرانٍ تشتعل في صدره، وتمتد إلى كتفه، ألقى عصاه، وسقط أمام المقبرة على ركبتيه. رشم الصليب بيديه، ثم قال وهو يخاطب اللّحد باكيًا:

- أبشر يا أبي، أبشري يا أمي. فقد حافظت (ورد) على العهد ولم تخلع صليبها حتى ماتت. كبرت الفتاة يا أمي وتزوجت وأنجبت ولدًا كفلقة القمر اسمه (يوسف). رأيتُ حفيدتها، ولولا شعرها الأشقر لقلتُ إنها (ورد). لن

ينقطع ذِكرنا يا أبي، وستبقى نطفةٌ منكَ تمشي على الأرض لعقود، اسمها (دميانة).

فجأةً سمع هفيف النسيم يمرّ من خلف أذنه، وخُيّل إليه أن حمامةً طارت من فوقه قبل أن تقف على القبة. ففر فاهُ، وخفق قلبه حين هدلت الحمامة البيضاء وكأنها تحادثه، فقال وكأنه يجيبها:

- أفتقدكم يا أمي، وطالت وحدتي من بعدكم.

- ....

- هربث من أبي حتى تجفّ دموعي عليكم.

- ....

- مللثُ الانتظار وأشتاق إلى وجودي بينكم.

- ....

- لا أخشى على (دميانة)، فقد اختار لها الرب أمًّا تشبه (ورد).

- ....

- لا أدري أين (يوسف)، ولكني على يقينٍ أنه يعرف ما يريد!

- ....

- نعم، أرجوكِ!

فجأةً، هبطت حمامتان، إحداهما سوداء كبيرة والأخرى بيضاء صغيرة، ووقفتا فوق القبة إلى جوار الأولى. اتسعت عيناه من الشوق، ونظر نحوهم في هيام، ثم قال بصوتٍ متهدّج:

- يا الله! ما أجمل اللقاء بعد الفراق!

ثم أغمض عينيه في سلام.

* * * * *

الفسطاط - القاهرة

(٦٥)

اليومَ سأهدِمُ أصنامي

أمزِّقُ شرنقتي

أغادِرُ جَسدي

ويسطرُ قلمي أقداري

اليومَ سأبسطُ أجنحتي

فوقَ غيومِ الشكِّ

وخلفَ سجافِ الغيبِ

سأبصِرُ كلَ الأسرارِ

رأى أباه وأمه في منامه، ومعهما رأى (يوستينا)، لا يدري كيف اجتمعوا سويًا، ولكنهم بدوا وكأنهم في انتظاره. استيقظ فجأةً، فوجد نفسه وحيدًا في حجرة الشيخ (ابن الكيزاني)، ووجد إلى جواره سلة طعام. أدرك من قربها أن أحدهم قد وضعها ليأكل منها، وربما كان الشيخ نفسه. أزاح غطاءها، وتناول منها رغيفًا من الخبز أكله بنهم. ففي هذه اللحظة كان يشعر بالجوع يلتهم أحشاءه. فرغ من الطعام، فخرج من حجرة الشيخ

ليجد الفناء خاويًا ساكنًا، إلا من صفير الريح الذي تردد بين التلال التي تحيط بالخلوة. نظر إلى المِزولة فلم يرَ ظلّها في الجو القاتم الأصفر ولكنه توقع من رؤية قرص الشمس المحتجب خلف السحب، أن يكون الوقت قد اقترب من الضحى. يمّم نحو البئر فملأ الدلو لمنتصفه، وغرف الماء بيده. شرب رشفات من الماء ثم غسل وجهه ويديه وقدميه، كما فعل الشيخ أمس. توجه نحو العمود الذي وضع خلفه صرةَ الأغراض في الليلة السابقة، فوجدها كما هي، وأخبره صهيل الفرس خارج السور بأنه ينتظر قدومه. نظر نحو باب زاوية الشيخ، الذي تركه مفتوحًا، نظرةً أخيرةً، ربما ليتأكد أنه لا يحلم، ثم حمل صرة الأغراض، وخرج إلى فرسه ملبيًا نداءه.

حينما بلغ باب البرقية في القاهرة، وجد رايات الحزن تعلو أسوارها، ورأى الناس تعبر أفواجًا من الباب الذي تُرك مفتوحًا على مصراعيه. نزل عن العربة، وعقل فرسه في مربط الدواب الواقع خارج الأسوار وترجلّ وسط الزحام في شارع القصبة. سمع همسًا بأن الخليفة (الفائز) قد مات فجأةً. أدرك سبب الزحام؛ فقد أتى الجميع ليُشيعوا الخليفة الطفلَ الذي ظلمته الخلافة، وأصابته بالمرض منذ حُمِل إليها عنوةً فوق جثث أعمامه. بلغ القصر الغربي فرأى آلافًا من الناس يقفون أمام أبوابه. تسلل كطيف ملثم خلف الأجساد المتلاحمة، وهو يلقي ببصره نحو باب القصر الغربي، الذي وقف أمامه عشرات الحراس الذين منعوا الناس من التقدم إلا لمن أذِن له. فجأةً شعر بوخزة في صدره حين رأى ذلك العملاق الأسود الواقف أمام باب القصر وهو يدفع الناس بعيدًا. لا يمكن أن تخطئ العين ذلك الطول الفارع، أو تخطئ الأذن ذلك الصوت الجهوري الذي يأمر الناس بالابتعاد حتى يفسحوا الطريق. توقف متعجبًا وهو لا يصدق ما يراه. أراد أن يتلصص ليعرف من خطف ولده، فوجد الخاطف أمامه!

فجأةً خرج نعش الخليفة من القصر الغربي، وخلفه خرج الوزير (طلائع)

ومعه قاضي القضاة، وداعي الدعاة، يحيط بهم ثلةٌ من الحراس.

لم يتبعهم الحارس العملاق، بل انتظر حتى خرجت امرأةٌ ترتدي رداءً أبيض اللون وخمارًا أخضر مرصعًا بالجواهر فأدرك أنها عمة الخليفة (الفائز). وُضع النعش على عربة الخليفة المسرجة الأحصنة، ثم تحركت صوب الجامع الأزهر وخلفها سارت جموع المشيعين، يتقدمهم الوزير وأخت الخليفة. نادته الفرصة كي يغتنمها، ففعل. الكل يسير في جنازة الإمام، وقد تمر ساعات حتى تنتهي الصلاة ومراسم دفنه في حديقة الزعفرانة. فتلك إذن هي اللحظة المثلى للتسلل إلى القصر كي يبحث عن أي أثر للحسين فيه. انسلّ من بين الصفوف بعد أن جاوز الحشدُ أسوار القصر الغربي الجنوبية، ثم انعطف يمينًا نحو باب صغير في السور الجنوبي للقصر يمرّ منه الخدم. صدق حدسه ورأى الباب مفتوحًا بغير حراس. همّ أن ينطلق نحو الباب، ولكن فجأةً شعر بيدٍ تمسك كتفه، وصوتٌ يألفه يقول:

- لا تفعل!

استدار فزِعًا، فإذا به يجد رجلًا طويل اللحية، يمسك في يده عصًا غليظةً، ويبدو كعابر سبيل، تمعّن فيه للحظات، ثم قال في دهشة:

- (موهوب)! ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قال (موهوب):

- الشيء نفسه الذي أتى بك.

ثم جذبه من يده وسار به مبتعدًا، فقال (يوسف) في لهفة:

- رأيتُ الحارس الذي حاول قتلي!

قال (موهوب) وهو يسير إلى جواره دون أن ينظر إليه:

- اسمه (عنبر)، وهو الرجل نفسه الذي قتل (حمدان)!

قال (يوسف):

- لا بد وأن يكون (الحسين) بالداخل.

قال (موهوب) في لهجة حاسمة:

- كلا!

توقف (يوسف)، وقال:

- هل عرفت مكانه؟

دفعه (موهوب) لاستكمال المسير وظلّ صامتا حتى انتهى سور القصر ثم انعطف فجأةً إلى مدخل درب برجوان، استتر خلف جذع شجرة عظيمة.
ثم قال:

- اسمع يا (يوسف)، الأمر خطير منذ قُتل (حمدان)، وأنا أتحسس الأخبار. هناك أمورٌ كثيرةٌ تجري في القصر الغربي، و ..

قاطعه (يوسف)، وقال:

- أين (الحسين)؟

صمت (موهوب) وأطرق برأسه، فقال (يوسف) في جزع:

- هل قتلوه؟

قال (موهوب):

- كلا، هو في بيت (نصر بن عباس) مع جدته أمّ (نصر).

قال مفجوعًا:

- لا يمكن! ليس بعد كل هذا!

تعجّب (موهوب) من كلامه، وقال:

- بعد ماذا يا (يوسف)؟ هو ابنهم.

قال (يوسف) وقد ارتجف فكّاه:

- ليس ابنَهم، بل ابن (يومستينا)، لن تسامحني (يومستينا) لو تركتُ لهم ولدها، هم يكرهونها، ويكرهون ولدها (الحسين)!

هزّ (موهوب) رأسه في ضجر ثم قال:

- اسمع يا (يوسف)! لقد أخطأتَ حين أخذتَ هذا الولد، وقد صدق (حمدان) حين قال إنه قاتلُنا.

نظر إليه (يوسف) في شرود، وقال:

- هل تريدني أن أترك (الحسين)؟

قال (موهوب) في حدة:

- نعم، فقد فقدنا (حمدان) بسببه، ولا أريدك أن تُقتل أنت أيضًا. الأمر أكبر من طفلٍ ....

كان (يوسف) ينظر إلى شفتيه تتحركان ولا يسمع منهما شيئًا، وكأنهما تنطقان عدمًا. كانت (يومستينا) وحدها هي التي يراها في تلك اللحظة. يشعر بها ترنو إليه من خلف إحدى المشرفيات في القصور المحيطة به، وشعورٌ بالخذلان يعتريها. فجأةً جذب العصا من يد (موهوب)، وأطلق ساقيه للريح، تاركًا (موهوب) في مكانه مذهولًا للحظات، قبل أن يهتف:

- غدٍ يا (يوسف)، ستقتل نفسك!

لم يكن يسمع سوى دقات قلبه، وهو يعدو نحو البيت الذي يعرف مكانه جيدًا منذ تلك الليلة التي قُتل فيها الخليفة. اقتحم الحديقة فاستقبله خادمٌ مغربيٌ يرتدي زيّ بني صنهاجة، فعاجله (يوسف) بضربة من العصا الغليظة حطمت فخذه، ثم صعد الدرج في سرعة. رأته خادمة، في منتصف الردهة، فصرخت، ولكنه جذبها من شعرها في قوة أخرستها، وهو يقول:

- قولي أين (الحسين)، وإلا حطمتُ رأسك!

أشارت إلى بابٍ في نهاية الردهة، فأفلت شعرها، وتركها تهرب صارخةً، وأسرع هو نحو الباب، فتح المزلاج المغلق من الخارج. وما إن رآه (الحسين) حتى قفز نحوه، وقال:

- أبي (يوسف)!

احتضنه وهو يقول:

- ولدي (الحسين).

ثم قال له:

- هيا يا بني، هيا قبل أن يأتي الخدم.

همّ أن يعود من حيث دخل، ولكن الفتى قال له:

- تعالَ من هنا يا أبي.

ثم دلف معه من باب سرداب، يصل إلى الحديقة مباشرةً. سأله (يوسف) وهو يعدو خلفه:

- كيف عرفتَ هذا السرداب يا (حسين)؟

قال (الحسين):

- تذكرتُ أني كنت أختبئ هنا وأنا صغير.

خرجا إلى الحديقة، فقال (يوسف) حين سمع صيحات الخدم والحراس:

- هيا يا (حسين)، أسرع في العدو ولا تنظر خلفك. العربة عند باب البرقية.

انطلقا يعدوان، تتعالى خلفهما صيحات الخدم المغاربة. عبرا من باب السور ثم خرجا إلى الشارع. شعر (يوسف) بالسعادة حين وطئت أقدامه حَجر الطريق. أمسك كفّ (الحسين) وانطلق به وكأنه يحلّق معه بأجنحة نحو الفضاء. خفتت أصوات الحرس في أذنه ولم يعد يسمع سوى وقع أقدامه وأنفاس (الحسين). لمح (موهوب) يقف في نهاية الطريق، فعلَت وجهه ابتسامةٌ وكأنه يقول له: قد نجحتُ يا صديقي! ولكن (موهوب) لم يبادله الابتسام، لوّح له في ذعرٍ وكأنه يُحذّره من شيء ما، ألقى ببصره لأعلى، فرأى راميًا فوق سور القصر الغربي يشد قوسه لمنتهاه، ثم يطلق سهمه. أفلتت يدُ (الحسين) من يده في اللحظة التي شقّ فيها السهم صدرَه. شعر بهواءٍ ملتهبٍ ينفذ إلى رئتيه، وبنارٍ تشتعل في جوفه. زاغ بصره، وسمع صراخ الحسين، فجاهد وهو يقول:

- اجرِ يا (حسين)، اجرِ ولا تتوقف.

لم يستطع أن يتماسك فسقط أرضًا. وقبل أن تُظلم عيناه، رأى (موهوب) يحمل (الحسين)، ويعدو به نحو باب البرقية.

***

ارتطم جسده بالأرض الرطبة بعد أن ألقى به الحراس في خزانة البنود،

شذرات الوعي التي أحدثتها الصدمة، ملأت أنفه برائحة عطن الأرض التي لم يتغيّر هواؤها لسنين. اخترق صوت العملاق أذنه، وكأنه يأتي من جوف سحيق، وهو يقول:

- شددوا الحراسة عليه، حتى تفرغ الأميرة من أحزانها!

قال السجّان:

- لن يعيش طويلًا؛ جرحه نازفٌ ونافذ.

قال العملاق في غير اكتراث:

- لو مات، افصل رأسه واحتفظ بها، حتى تراها السيدة (ست القصور).

بعد قليل سمع أقدامهم ترحل، وباب الزنزانة يُغلق بالسلاسل، استسلم للسكون والظلام، غير مندهش للمفارقة بين ليلةٍ عامرةٍ بالنور، عاشها أمس، وليلةٍ حالكةٍ بالظلمة، يبدؤها في تلك اللحظة.

* * * * *

(٦٦)

جلست (ست القصور) في حجرتها بالقصر الغربي وهي واجمةٌ تتطلع إلى مزهريةٍ، رُسمت عليها فتاةٌ تجلس على العرش وينحني تحت أقدامها أسد. ورثت هذه المزهرية عن جدتها التي أخبرتها أن الفتاة المرسومةَ هي (ست الملك)، ابنةُ الخليفة (العزيز بالله) التي بنى لأجلها القصرَ الغربي، أما الأسدُ فهو رمز الخلافة الفاطمية في عهد الخليفة (العزيز بالله). كانت في صغرها مفتونةً بسيرة (ست الملك) التي أنقذت الخلافةَ بعد مقتل أخيها (الحاكم بأمر الله). تذكرت وهي طفلة، حينما أتى إلى القصر مُنجّم من دير البلاص في صعيد مصر، قيل إنه يرصد الكواكب ويستخدم الجانّ في قراءة

الطالع. اجتمعت نسوة القصر حوله كي يرى لهن الطالع. وحين حان دورها، سألها:

- ما اسمكِ؟

- (ستّ القصور).

ضرب الرمل بيده، ثم خطّه في صفوف منقوطة، تمعّن فيها باهتمام، ثم قال:

- تسكنين كوكبًا من بيت فاطمة! مَن أحبُّ النساء إليك؟

قالت بغير تردد:

- ستّ الفلك.

هزّ رأسه وكأنه كان يتوقع إجابتها، فجلجلت الأجراس الصغيرة التي يعلّقها في شعره المُضفّر ثم قال:

- تجلسين على عرشها، بعد أن تفقدي عزيزًا، مثلها!

خفق قلبها، وضمتها أمها في خوف، وقالت:

- ماذا تقصد؟

نظر نحوهما بتحدٍّ، ثم قال:

- الطالع يُقرأ ولا يُفسّر.

ثم مال برأسه نحو لوحة الرمل، وعدّ النقاط بسبابته، فإذا بوجهه يعبس، ويقول:

- وستشتعل نارٌ في البلاد، تكونين أنتِ شرارتَها.

ارتجفت من كلامه، وشهقت أمها في فزع، وقالت:

- لعنةُ الله عليك! أيها المنجّم الكذاب!

ثم أخذتها بعيدًا وهي تلعنه بعد أن أثار رعبهما. العجيب أنها ظلّت تتذكر ذلك الرجل في كل مرحلة من حياتها. حين مات أبوها الخليفة الحافظ، ظنّت أنها فقدت عزيزها كما قال، ثم مات أخوها الظافر فانفطر قلبها، واعتقدت أن النبوءة قد تحققت، ولكن ها هيَ تتذوق مرارةَ الفقد مرةً أخرى، حتى تساءلت: كم عزيزًا ستفقده، حتى تتحقق نبوءةُ ذلك الملعون؟

قطع تفكيرها دخول وصيفتها، وهي تقول:

- يريدك الحارس (عنبر الريفي) في أمر مهم.

خرجت إلى قاعة الاستقبال، رغم أنها كانت لا تريد أن تخرج من عُزلتها، جلست على الأريكة، ثم أشارت إليه، فقال معتذرًا على اقتحام حزنها:

- معذرةً يا سيدتي، ولكنه الوزير (طلائع)!

قالت باهتمام:

- ما به؟

- اجتمع مع زمام القصر حتى يختار الخليفة من بين أبناء إخوتك.

اتسعت عينها دهشةً وغضبًا، وقالت:

- يختار الإمام؟ الإمامةُ بالوصية في أكبر الأبناء، والوصية لـ (علي) ابن أخي جبريل!

أطرق (عنبر) برأسه قليلًا، ثم قال في بطءٍ وهو يتوقع ردة فعلها:

- اختار الوزيرُ (طلائع)، (عبدَ الله) أصغرَ أبناء أخيك (يوسف)، وألبسه

ثياب ولي العهد، واختار له لقب (العاضد) من سجلّ ألقاب الخلفاء.

شعرت بشرارة لهب تشتعل في صدرها، ثم تمتد إلى باقي جسدها، ارتجفت وهي تقول:

- هل فعل ذلك حقًّا؟!

أومأ برأسه، وقال:

- نعم يا سيدتي! وسيُقيم احتفالَ الجلوس غدًا في القصر.

انسابت دموع القهر على وجنتيها حارةً فأجّجت نار قلبها، صمتت في بادئ الأمر ثم مسحت دموعها، وقالت في حسم:

- اسمع يا (عنبر)، اذهب إلى الأمير (طرخان) في الإسكندرية، قل له أن يعجل بما اتفقنا عليه. وأخبره أن عروسًا تنتظر الوفاء بوعده.

نظر إليها مندهشًا، وقال:

- عروس؟!

قالت في حزم:

- نعم، أتزوجه، ويأتيني برأس (طلائع).

شعرت بوجه (عنبر) يزداد قتامةً، وصوته يغمغم قائلًا:

- أمرك يا مولاتي.

استدار ولكنه قبل أن ينصرف تذكّر شيئًا، فقال لها:

- معذرةً يا سيدتي، قد قبضنا على (يوسف بن صدقة) بعد أن هرّب (الحسين بن نصر) من بيت جدّته.

لم يبدُ عليها الاهتمام في تلك اللحظة، فتابع (عنبر) وكأنه يُبرئ ساحته أمامها:

- قد ألقينا به في خزانة البنود! ولكنه جريح، وظني أنه سيموت!

* * * * *

(٦٧)

في ظلام السجن تتسربل الحياة في كفنٍ من السواد، يُجتزأ الوطن في حدود لا تتعدى مساحة الجسد، ويقتصر الزمن على صور من الماضي بلا حاضر ولا مستقبل. تموت الحواس، فتتكيف العين مع الظلمة، والأذنُ مع الفراغ، والأنفُ مع العطن، ويبقى اللمس السبيل الوحيد للتحقق من الحياة.

تحسس صدره فشعر بالألم، اعتدل فشعر بألمٍ أكبر. الألم كان رفيقه في السجن طيلةَ الأيام الماضية، وحين يخمد كان يستدعيه بالضغط على جرحه كي ينتبه، فتصدر منه تلك الآهة التي تُشعره بأنه لا يزال حيًا.

شعر بملمس الجرح الذي نفذ منه السهم بارزًا مستديرًا كلحمٍ احترق بشعلةٍ من اللهب. يدينُ بالفضل إلى السجان، الذي منحه فرصةً أخرى في الحياة، حين كوى جرحه بخنجرٍ ملتهبٍ حتى يتوقف عن النزف. كان فاقد الوعي، وحين شعر بجلده يحترق، صرخ، ثم غاب عن الوعي مرةً أخرى، ربما لساعات، أو لأيام، لا يدري؛ فالزمن قد تغيَّر بعد أن أُغلِق عليه بابُ تلك الزنزانة. منذ أيام بدأ يستعيد وعيه، تحسس الأرض وتحرك على أربعٍ، ككلب أعرج! دون أن يحمل على ذراعه اليمنى التي ترتد حركتها في صدره الجريح. تحسس الجدار حتى وصل إلى الباب، تشبث بيده اليسرى في مزلاج الباب ورفع رأسه حتى حاذت كوةَ الباب التي ينفذ منها بعض الضوء، وينفذ منها هواءٌ أقل عطنًا. رأى الدهليز خاليًا، في آخره مشعل نارٍ وعلى

حوائطه تتعلّق رؤوس حيوانات وطيور محنطةٌ ترنو إليه. لم تحتمل يده التشبث طويلًا فسقط إلى جوار الباب. هل مرت ساعات أخرى حتى وجد ذلك النور الذي ملأ حجرة الزنزانة فجأةً؟ ربما! أدار رأسه في سرعة وأغمض عينيه متألمًا. لأول مرة يشعر بالنور مؤلمًا. بقعة النور التي سقطت على جسده النحيل المنكمش، وثوبه الممزق المتسخ، وشعره الأشعث، جعلته يبدو كفأرٍ مذعورٍ في عيني السجّان، الذي فوجئ به يتحرك، فقال:

- اللعنة، أفزعتني!

ولكنه لم يلبث أن مَنّ عليه بجميل صُنعه، وقال:

- يبدو أن كيّ الجرح قد أفلح معك!

ثم أردف، وقد تلوّن صوته بالسعادة:

- لأول مرة أكوي جرحًا نافذًا في الصدر ويُفلح.

تذكر انك حملت رواية عهد دميانة حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

بمرور الوقت، أصبح السجان يهتم به كمن يهتم بجروٍ أنقذه من الموت. كان يدخل عليه كل بضع ساعات، فيزود القربة بالماء، أو يضع بعض الطعام بجوار الباب، وهو يقول:

- أعلم أنك مقتولٌ لا محالة، ولكني لا أريدك أن تموت جوعًا بعد كل ما فعلته لإنقاذك.

هو أيضًا كان لا يريد الموت. فكان يزحف في الظلام، بعد أن ينصرف

السجان، إلى موضع الماء والطعام، فيأكل ويشرب، ثم يزحف إلى ركنٍ آخرَ يقضي فيه حاجته، ثم يعود إلى ركنه الأصلي فيتمدد وينام. هكذا انحسر عالمه إلى ثلاثة أركان؛ ركنٍ للطعام وركنٍ للنوم وركنٍ لقضاء الحاجة.

تعافى جسده قليلًا، أصبح ينتظر تلك اللحظات التي يسمع فيها جلبة السجان حين يأتي وهو يحمل في يده مشعل النور لحظات تقتل رتابة الموت ببطء، حتى وإن أزعجته جلبة المزلاج، وأدار وجهه بعيدًا عن مشعل النور. إلى أن كان ذلك اليوم الذي أكل فيها كسرات الخبز كلها، وشرب آخر قطرة ماء في القربة، ولم يظهر السجان. أخبرته غريزته أن يومين قد مرّا -على الأقل- دون أن يفتح أحدهم عليه الباب. شعر بالجوع يقرصه، والعطش يُجفف حلقه، فوقف أمام كوة الباب ونادى بصوتٍ تترنح حروفه، وكأنه مكَّينٌ أو طفلٌ لا يعرف الكلام:

- يا مسس.. جج.. اان

فلم يردّ عليه أحد. نادى مرةً أخرى، وثانيةً وثالثةً، بصوتٍ أعلى وأوضح، ومع ذلك لم يردّ أحد.

عاد إلى مجلسه في الظلام وهو يرتعد من الانفعال والجهد. ظن أنهم يمنعون عنه الطعام استعدادًا لذبحه كما يفعلون في البعير. انكمش في ركنه ساعات لا يعرف كم عددها، حتى طرقت أذنه جلبةُ المزاليج، ظهر السجان حاملًا مشعله، ثم وضع الطعام وهو يقول:

- تأخرتُ عليك، قد قامت الحرب حول القاهرة، والعالَم يوشك على الاحتراق.

* * * * *

تحرك جيش (طرخان بن سليط) والي الإسكندرية، نحو الصحراء الغربية بدعوى مطاردة بعض العربان وقطاع الطرق، وما إن وصل جنوبًا إلى الفيوم، حتى استقبله أخوه (إسماعيل بن سليط) مقدم العسكر بفرقة أخرى من الجند بها عدة آلاف من الفرسان، وانطلقوا سويًا نحو القاهرة.

التحرك المباغت لجيش (طرخان) سبقَ أجنحة الحمام الزاجل التي أرسلت إلى الوزير (طلائع) كي تُحذره من الأخوين (سليط) اللذين خلعا عباءةَ الطاعة وأعلنا التمرد؛ فلم يصل الخبرُ إلى الوزير إلا وجيش (طرخان) على أبواب الجيزة. خيم الذعر على مدينة الفسطاط، التي تقع في الطريق بين القاهرة والجيزة. وطافت بعقول سكانها ذكرياتٌ مشابهة لحروب مماثلة، كانت تدفع فيها المدينة العتيقة ثمنًا باهظًا للحرب، فتصير شوارعها ميدانًا للكرّ والفرّ وتشق سماءها النبال المشتعلة وحجارة المنجنيق، بينما تظل القاهرة بأسوارها الحصينة وأبوابها المؤصدة، بمأمنٍ من خطر القتال.

ازدحم سوق القناديل بالناس الذين أخرجهم الخوف من محنةٍ قد تطول، فتكالبوا على شراء الطعام لتخزينه، بينما كان سوق الورّاقين يخلو تمامًا من المارة، وقد أغلقت أبواب المحالّ بمزاليج مستعرضة، أحكم وصدُها بضبةٍ على كل طرف؛ ففي أوقات الحرب تصبح مهنة الوراقة رفاهيةً أمام الشعور بالخوف. الحانوت الوحيد الذي ظلّ مفتوحًا كان (خان صدقة)، جلس (يحيى) بداخله محاطًا بسكون السوق، وشعورٌ بالقلق يجعله لا يستقر في مكانه داخل الحانوت. لا تزال وصيةُ سيده ترنّ في أذنه، ويخشى أن يكون قد وقع له مكروه كما توقع. يشعر بالخوف لغيابه الذي طال، ويزداد خوفه مع هذا السكون المطبق، وشعور الترقب الذي يُخيّم على الفسطاط بسبب الحرب القادمة.

في تلك اللحظة، قرر أن يُغلق المحل، ويذهب إلى صديق له في الحمراء، ضمَّ مصراعي الباب، وهمَّ أن يضع مزلاجه، حين رأى ذلك الرجل النحيف الذي يرتدي جلبابًا مؤززًا من منتصفه، ويحمل على ظهره صرةً متوسطة الحجم، يقف أمامه. كان شابًا في مقتبل العمر ولكن نحافة وجهه وذقنه النابتة التي تتبعثر شعيراتها كحبة من التين الشوكي، يمنحانه عمرًا أكبر. سأله (يحيى):

- هل تبحث عن شيء؟

هزَّ الرجل رأسه، وقال:

- نعم، أريد خان (يوسف بن صدقة).

قال (يحيى):

- هذا هو خان (يوسف)!

تنهد الرجل في ارتياح، ثم قال:

- وأين هو السيد (يوسف)؟

قال (يحيى):

- غير موجود.

قال الرجل في خيبة أمل:

- حقًا؟ ثم أردف:

- هلَّا أخذتني إلى بيته!

قال (يحيى):

- البيت مهجور، فقد غادر سيدي المدينة ولا أعلم متى سيعود.

سأله:

- وأين زوجته؟

نظر إليه (يحيى) متعجبًا، وقال:

- زوجته؟

ثم سأله في حذر:

- من أنت أيها السيد؟

ابتلع الشاب ريقه، ثم قال:

- اسمي (بطرس)، صديقٌ قديمٌ له من قوص.

***

في داخل الخان كان (بطرس) يجلس إلى (يحيى) يستمع إلى فصلٍ جديد من حياة (يوسف)، فصلٍ يُكمل حكاية الرجل المدهشة، الذي ظلّ يتتبع أثرها من قوص إلى الإسكندرية، ومنها إلى الفسطاط. فبعد أن هربت (وسن) مع (يوسف)، احتجزه (طي بن شاور) في محبس في (قوص) لعدة أيام، ضربه بالسوط وبصق عليه، وظلّ يحاصره بعشرات الأسئلة التي لا يعرف لها إجابةً، ولم ترد بخلَده قط. سأله مرارًا عن (يوسف بن صدقة)، وعن رأيه في الشيعة، وعلاقته بالسنة، ونظرته للفرنجة، ثم عاد وسأله عن (نور الدين محمود)، وخليفة القاهرة، و(طلائع بن رُزّيك)، فكان يصمت عن جهل، ثم يسأل بصدق:

- هل يوجد قبطيٌ يهتم لمثل هذه الأمور؟

إلى أن جاءه (طي) وسأله عن جماعة في دمياط يحاربون الفرنجة، من بينهم تاجرٌ اسمه (موهوب). فكان هذا السؤال هو مفتاح خروجه من المحبس، فقد تذكّر أن تاجرًا اسمه (موهوب) كان يتردد على مَعصرتهم ويشتري العسل من عمه (مينا). ثم أخبره بأن هذا الرجل من قرية اسمها شطا، بالقرب من دمياط. خرج من المحبس منسحقًا كحفنة من تراب وطِئها أحدهم بحذائه، وظلّت آلام الوطء ترافقه لأيام متتالية، كلما تذكّر الهوان الذي مرّ به. شعر بأن (ومن) كانت محقةً حينما فكّرت أن تغادر ذلك العالَم القبيح إلى الرهبنة، فماذا جنى المنغمسون فيه سوى الذل والقهر؟ مات عمه كمدًا، ويشعر أنه سيلحق به لو استمرّ في تلك المدينة الملعونة.

باع المَعصرة لتاجر عسل كبير من أصدقاء عمه، ثم وضع ثمنها بين يدي الكاهن في الكنيسة، وقال له:

- هذه أموال ابنة عمي (ومن)، أهبها إلى الكنيسة، بعد أن حرمتُها من الرهبنة بمكري.

وانصرف دون أن يطلب الغفران من الكاهن، ولكنه عزم أن يطلب الغفران من (ومن). جمع حاجياته وقرر أن يبحث عنها في الإسكندرية. رحل إلى هناك، وطاف على الأديرة كلها، سأل عن فتاة من قوص اسمها (ومن بنت مينا) فلم يجدها. ولكنه حين سأل عن رجل يُدعى (يوسف بن صدقة) وجد بعض الناس التي لا تزال تعرف حكايته. حكوا له عن شاب قبطي كان يومًا ما يرافق الوالي كظلّه، ثم انتهى به الأمر معلقًا على صليب أمام دار الإمارة، ثم اختفى ولم يظهر مرةً أخرى تبدل شغفه من البحث عن (ومن) إلى تتبع آثار ذلك القبطي، الذي يفعل كل ما يعجز هو عن فعله حتى كسب ثقة (ومن) قرر أن يرحل إلى الفسطاط ليتحسس من أخباره، فوصل إلى هناك في الوقت الذي كان الناس يحتفلون فيه بالنصر على أسطول الفرنجة بالنفط الطيار. تذكّر قنينة النفط التي وجدوها في بيت (يوسف)

في قوص، حكايات الناس عن ذلك السلاح الذي بدّل موازين القوى، وجعل مراكب الصيادين تطارد أسطولًا كبيرًا، أشعرته بالخجل من نفسه، ففي الوقت الذي كان يصنع فيه (يوسف) مجدًا، ويغرس في نفوس أهل مصر الكرامة، كان هو يزحف على بطنه كدودة أرض، ويُفسد ما غرسه (يوسف).

ظل يبحث عنه لأسابيع، حتى هداه عقله أن يبحث في سوق الورّاقين، بما أن (يوسف) كان كاتبًا. فعرف أن هناك خانًا اسمه (خان صدقة)، فذهب إليه وكان لقاؤه بـ (يحيى).

هل أذهله حديث (يحيى) وهما في الخان؟ نعم أذهله. بل كان حديث (يحيى) هو الأكثر ذهولًا في كل تفاصيل حياة (يوسف) التي جمعها. لا يصدق أن هذا الرجل كان يتبنى طفلًا مسلمًا اسمه (الحسين)، وأن له ابنة قبطية اسمها (دميانة)! كيف اتسع قلب هذا الرجل، رغم ما به من هموم، حتى حوى أرضًا وسماءً يلجأ إليهما كلُّ من عرفه، حتى (ومن) الغريبة عنه، لجأت إليه واحتمت به!

سأله إن كان سمع عن امرأة اسمها (ومن)، فتعجب (يحيى) أنه يعرفها، وقال:

- نعم.

لمعت عينا (بطرس)، وقال:

- حقًا! وأين هي؟

تردد هل يخبره بأمرها أم لا، ولكنه حسم أمره بعد أن شعر بمودة (بطرس)، وقال:

- ترك ابنته عندها في دير بالصعيد، اسمه دير (أبي حنّس)!

أبو جِنْس

(٦٩)

«كما قُمتَ يا يسوع من الموت في اليوم الثالث، وبقيت معنا على الأرض مدة أربعين يومًا من بعد قيامتك، ثم في تمام الأربعين يومًا صعدتَ إلى السماوات أمام رسلك القديسين الأطهار، هكذا أصعِد نفسَ أخينا الراقد (إبراهيم) كما صعدتَ أنت، وأرحها في الأحضان السماوية، واغفر له كل خطاياه».

أنهى الأب (سمعان) صلاة الأربعين على نفس (إبراهيم بن شنودة) أمام قبره، تطايرت الدعوات مع قطرات الماء المقدس التي نثرها الأب على القبر ذي القبة البيضاء. بينما نثرت (ومن) دموعها التي لم تجفّ طيلة أربعين يومًا، بكفها وهي تمسحها عن وجنتيها. جثت على ركبتيها مطرقةً الرأس ووضعت يديها على القبر وهي تتخيله نائمًا مبتسمًا في سلام خلف ذلك الجدار. جاء (إبراهيم) إليها مودّعًا وليس مشتاقًا، صافحها بيد، وودّعها بالأخرى، وكان حضنها له حضن وداعٍ وليس حضن استقبال. شعرت بيد (دميانة) الصغيرة على ظهرها. استدارت نحوها، ثم احتضنتها باكيةً. كانت منذ عام مضى تتمنى أن تعتزل العالم، ولكن العالم هو الذي اعتزلها، انفرطت حبات العِقد القليلة التي كانت تربطها به، وتساقطت الواحدةُ تلو الأخرى، ولم تتبق سوى تلك الحبة الصغيرة التي لا تدري متى ترحل عنها هي الأخرى.

غادرت المقابر وعادت مع الأب (سمعان) إلى القرية. استأذنته في أن تعود إلى بيتها، فهي تشعر بألم ينهش جسدها وخدر يسري في أطرافها، وتريد أن تنام لتقطع ذلك الشعور المتصل بالألم. أغلقت باب حجرتها ثم استلقت على سريرها. احتضنت (دميانة) التي راحت في النوم سريعًا على

ذراعها، ثم سحبت الغطاء برفق فوقهما. استدارت على ظهرها، ثم حدقت في السقف الخشبي، بعقل يترنح من التعب، ولكنه مملوء بالصخب، عيناها مفتوحتان، ولكنهما لا تريان شيئًا، وأنفاسها تتلاحق وكأنها تعدو وهي نائمة. لو تتمنى شيئًا في تلك اللحظة، فهي أن يحتضنها أحدهم، حتى يهدأ ذلك الجسد المضطرب. تذكّرت ذلك الحلم الذي رأت فيه (يوسف)، وتذكرت تلك الرعدة الحلوة التي تركتها خامدةً وكأنها انسحقت بين حجري رحًى، ولكنه انسحاقٌ حلوٌ جميل. لو كان ذلك الحلم حقيقةً الآن لما ندمت على شيء. آهٍ يا (يوسف)! كيف هان عليك أن تغيب هكذا؟ شعرت بجسدها يتمرد ويثور عليها. مالت على جانبها وقد ضمّت فخذيها، ضغطت على بطنها التي يتقلص حشاها بالأسفل، وأغمضت عينيها وهي تلهث. مدّت يدها لتقبض على فوهة بركانها الثائر ولكنها لم تكد تحتك به حتى شهقت وتشنجت في موضعها للحظات، ثم سقطت وراء عقلها في غيابات النشوة.

مرت أيام، لم تذهب فيها إلى الدير؛ شعورها بالذنب كان يُعجزها عن الدخول إلى هناك، وإحساسها بالخجل مما فعلته، كان يفوق أي اعتراف. العجيب أنها أصبحت تصبّ جامّ غضبها على (يوسف)، ذلك الملاك الذي أنقذها ليُسلمها إلى شيطانها. كانت تحترق شوقًا لرؤيته، تشعر بالمرض لعدم وجوده، ورغم ذلك تكرهه لأنه سبب ضعفها، لم ترَ تلك الثقوب في إيمانها إلا حينما غمرها بعطفه. ليته لم يظهر؛ فقد كانت ترى إيمانها قويًا بدونه.

هوّنت عليها (دميانة) الوحدة في تلك الأيام، انتبهت إلى أن الفتاة قد كبرت في الأشهر الماضية، وصارت تنطق بعض الكلمات، وتفهم ما يقال لها. كانت منشغلةً بإعداد طعام لهما حينما سمعت تصفيقًا أمام الباب، وصوتًا

يقول:

- يا أهل الدار.

وضعت الطرحة على رأسها ثم خرجت من الفِناء. فتحت باب السور فوجدت أمامها رجلًا قصيرًا يلتحف شالًا على رأسه، ويحمل في يده بُقجةً، سقطت من يده حين رآها، وهو يقول بصوتٍ أتاها من الماضي:

- (ومن)!

تمعنت للحظات في الرجل الذي لا تعرفه رغم أن صوته كان يبدو مألوفًا، ولكنه ما إن أسقط الشال عن رأسه حتى شهقت قائلةً:

- (بطرس)!

***

ارتدت مذعورةً حينما تقدم نحوها، وقف مكانه كي يطمئنها، ثم قال:

- ألا زلتِ تخافين مني يا (ومن)؟

حذرته قائلةً:

- إياك أن تقترب مني!

شعر بالألم، كان يتمنى أن ترى في عينيه شعوره بالندم،الذي حمله معه طيلة الشهور الماضية، ولكنها كانت لا تزال ترى قسوته القديمة. قال في حنان:

- تركتُ الدنيا كي أبحث عنك يا (ومن)!

صرخت:

- ماذا تريد مني؟

قال معتذراً:

- أريدك أن تسامحيني!

خرجت (دميانة) في تلك اللحظة، فنظر نحوها في عطف، وقال وهو يقترب نحوها:

- هذه ابنة (يوسف)! أليس كذلك؟

حملتها (ومن) في سرعة وارتدت بها للخلف، وهي تقول:

- ارحل الآن يا (بطرس)، ارحل وسوف أسامحك!

خوفها منه جعله يشعر بالخيبة، كان يتمنى لقاءً غير هذا، قال لها في لوم:

- هل تخافين مني يا (ومن)؟

أجابته رعدتها وهي تحتضن (دميانة) في خوف، فقال في حدة:

- لماذا تخافين؟ لقد فعلت كل شيء لأجلك! بعت المعصرة ووهبت أموالها للكنيسة لأجلك، ارتحلت من قوص إلى الإسكندرية، ومن الإسكندرية إلى الفسطاط، ومن الفسطاط إلى هنا، لأجلك.

ثم قال في حدة أكثر:

- بل أحببت (يوسف)، وتتبعت سيرته لأجلك.

ثم صرخ غاضباً:

- كل هذا، ولا زلت تكرهينني!

انطفأ غضبه وتحول إلى دهشة، حينما هرولت (ومن) بغتة نحو حجرتها

وهي تحمل (دميانة). أفاق من دهشته وهي توصد الباب من الداخل. هرول خلفها، ثم طرق الباب وقد تبدل صوته من الغضب إلى الحنان، وهو يقول:

- آسفٌ يا (ومن)، قد صرخت فيك رغمًا عني.

لم ترد عليه (ومن)، سحبت الأريكة وهي ترتعش، ثم تزمت بها الباب حتى لا يقتحمه. اشتد قرعه على الباب حينما شعر بما تفعل، وارتفع بكاء (دميانة)، بينما كان يقول:

- افتحي يا (ومن) ولا تذبحيني بالنفور مرةً أخرى!

ثم ألصق وجهه بالباب، وقال وقد انزلقت دموعه عليه:

- صدقيني، ليس لك أحدٌ سواي في هذه الدنيا، حتى (يوسف)، رحل عنك ولن يعود.

خفق قلبها حينما ذكر (يوسف)، فقالت صارخةً:

- أكرهك!

اخترقت الكلمة البابَ وارتطمت بأذنه؛ جُنّ جنونه، فاشتد طرقه على الباب، ودفعه بكتفه عدة مرات. رأت المزلاج يترنح فهرولت نحو الدرج وصعدت إلى السطح، وهي تحمل (دميانة)، جرت إلى حافة السطح ولكنها ارتدت حين رأت ارتفاعه الشاهق عن الأرض، تلفتت حولها كقطٍّ محاصَر يبحث عن مهرب، رأت برج الحمام الخالي الذي صنعه (يوسف)، حملت (دميانة)، وصعدت السلم الخشبي الضيق، وهي تغمض عينيها. وصلت إلى حجرة القواديس الضيقة فجلست منكمشةً وهي تلهث وترتجف. سمعت صوته يقتحم السطح ويدور بين أركانه، وهو ينادي في جنون:

- (ومن)، أين أنت يا (ومن)؟

فجأةً أجهشت (دميانة) بالبكاء. فكتمت صوتها بيدها، ولكنه كان قد التقط مكانهما. نظر نحو البرج والسلم الخشبي، فاتجه نحوهما، وهو يقول:

- ألم أقل لكِ يا (ومن) إنه لا مفرّ مني؟

ثم صعد درج السلم الخشبي، وهو يقول:

- أنا قدَركِ يا (ومن)، وأنت قدَري.

اقترب من نهاية الدرج فمد يده إلى حجرة القواديس، فأمسكت بذراع (دميانة)، جذبها، فصرخت الطفلة في ذعر بينما انهالت (ومن) على يده ضربًا، وهي تقول:

- اتركها يا (بطرس)، وابتعد عنّا!

صعد الدرجة الأخيرة فبدا جسده الذي حجب الشمس، كعُقابٍ يهجم على قواديس الحمام، ترك الطفلة ثم أمسك بذراع (ومن)، وهو يقول:

- قلتُ لكِ إنكِ قدَري، ولن يُفرّقنا إلا الموت!

ولم يدرِ أن دفعةً من قدمها، وهي تحاول الفكاك منه، ستُطيح به أرضًا من فوق البرج، وستُفرّق بينهما إلى الأبد!

* * * * *

القاهرة

(٧٠)

«هل يمكن أن تأتي الحياة بأسوأ من ذلك؟» كان سؤالًا تسأله (مست

القصور) لنفسها كلما تلقت لطمةً من لطمات القدر ولكن بعد تكرار اللطمات كفّت عن التساؤل، وقد أدركت أن بئر الشؤم الذي يُغرَف منه حظُّها أعمق بكثير مما تتخيل. انتهت الحرب بهزيمة ساحقة لـ (طرخان) وأخيه (إسماعيل)، تدلّى جسداهما على باب زويلة ليكونا عِبرةً لمن يحاول أن يخلع الطاعة عن الوزير (طلائع). لم تحزن على فقدانها الخمسين ألف دينار التي أنفقتها على (طرخان)، قدر حزنها على فقدان الفرصة الأخيرة للتخلص من (طلائع). وها هي اليوم تجلس لتتزين، وترتدي أفخم حُليِّها لتحضر حفل زفاف الخليفة (العاضد) على ابنة الوزير. ذهبت إلى ابن أخيها بعد أن سمعت الخبر وقالت له:

- حملك على الزواج بابنته ليجمع الوزارة والخلافة في بيته؟!

أدار وجهه، وقال في وضوح:

- ولو طلب أكثر لأجبتُ يا عمتي!

قالت في غضب:

- تصرّف كإمام حتى ولو لم تكن تستحق الإمامة.

نظر إليها بوجه محتقن، ثم قال:

- قبلتُ حفاظًا عليكِ!

ثم أردف:

- هل تظنين أنه لا يعلم بأنك دفعتِ لـ (طرخان) خمسين ألف دينار للخروج عليه!

قالت مبهوتةً:

- كيف عرف؟

قال متهكما:

- وكأنك أشعلت الحرب قبل أن تعرفي قدر عدوك!

قالت متحدية:

- قدر عدوي؟! أنا من صنعت قدره يوم أتيت به وزيرًا.

ثم أردفت في حزم:

- اسمع يا (عبد الله)، هؤلاء العسكر لا قيمة لهم بغير الإمامة، هم يحكمون الناس بكلمة منك.

- كان ذلك في الماضي، الناس تخضع الآن لكلمة القوة.

- ولكن خضوعهم لكلمة الدين أكبر وأنت الإمام المعصوم.

- ماذا تريدين يا عمتي؟

- اخلع عنه الوزارة! وامنحها لوالٍ آخر

- مثل من؟

- (شاور بن مجير) والي قوص، أو (أبو الأشبال ضرغام) والي الفسطاط.

- أما تكفي الدماء التي سالت بين الوزراء منذ حرب (علي بن السلار) مع (ابن مصال)!

- حسنًا، اخلعه ولا تسمِّ وزيرًا، فقد حكم جدك الخليفة (الحافظ) عشرَ سنين بغير وزير.

- كلا يا عمتي!

- ماذا تقصد؟

- أتزوج ابنته، ولا أشعل نار الفتنة في البلاد!

قالت باحتقار:

- تتزوج مكرَهًا كالنساء؟! أي إهانة تلك يا أمير المؤمنين!

قال متهكمًا:

- هانت الخلافة يوم أهانها من قَبلي! أما أنا، فلو استطعتُ أن أحفظ دماء الناس بأي طريقة لفعلت!

انتهى الزفاف بعد العصر وحُملت العروس إلى قصر الخليفة بجهاز لم يشهد الناس مثله في القاهرة، بينما عادت (ست القصور) إلى القصر الغربي واجمةً. سارت في حديقة القصر المتسعة، لا تشعر برائحة الزنابق من حولها، ولا بجمال انعكاس الشمس على البركة المتسعة التي تتوسطها فوارة. رآها (عنبر الريفي) فسار وراءها، وقد جعل بينهما مسافةً كافية. رآها تجلس على مقعد من المرمر تُظله مظلة من خشب الصندل، تتسلق عليها زنابق الجهنمية والياسمين، وتفترش أرضها أعواد الريحان. أطالت النظر نحو البركة، التي تتوسط البستان أمامها، ثم فجأةً أجهشت بالبكاء، وهي تُغطي وجهها بكفيها. تقدم منها (عنبر) مترددًا، ثم قال:

- هل أنتِ بخير يا سيدتي؟

مسحت وجهها بكفيها، وقالت:

- لستُ بخير يا (عنبر)!

قال لها في صدق:

- مُريني بما يجعلك تشعرين بالسعادة يا سيدتي، وسأفعله لأجلك.

- لو كانت السعادة بالأمر يا (عنبر) لما كان فيها شقيّ ولا تعيس.

جثا على ركبتيه أمامها، ثم قال بعين مرتعشة:

- أليست (لو) أداةً للتمني؟ تمنّي يا سيدتي، وستجدين عبدك المطيع (عنبر) طوع أمرك!

نظرت إليه متعجبةً، لأول مرة ترى عينيه. (عنبر) بالنسبة إليها صخرةٌ صلدةٌ، أتى به أبوها (الحافظ) منذ عشر سنوات، من الجند السودانية، ليكون خادمها، ثم صار حارسها، لسنوات وهي تأمره فيطيع، ولكنها لا تتذكر أنها نظرت في عينيه قط. فما بال عينيه المرتعشتين أمامها تبدوان بهذه الطِّيبة، وهذا الأمان، وهذا الجَمال أيضًا!

قالت له:

- نعم يا (عنبر)، ولكن (لو) تفيد الامتناع أيضًا! امتناع الجواب لاستحالة الشرط!

قال لها في إصرار:

- لن يمتنع عني جوابٌ، ولن يستحيل معي شرط، فقطضعي شرطك يا سيدتي، وسيأتيك الجواب.

لم تملك نفسها من الإعجاب بنظرة الإصرار في عينيه، فقالت:

- ولكن (لو) حينها ستفتح عملَ الشيطان!

قال في غير اكتراث، وهو يحني رأسه:

- مرحبًا به معي، عبدًا مطيعًا لأوامر سيدتي!

قالت مباشرةً:

- تقتل (طلائع)!

أجاب مباشرةً:

- أمركِ سيدتي!

لم تصدق السهولة واليسرَ الذي أجاب به، قالت وقلبها مفعمٌ بالامتنان:

- كيف أكافئك؟

قال وهو ينظر إلى عينيها:

- ثلث ما عرضتِهِ على (طرخان) الخامس عرضتِ عليه المالَ، والوزارةَ، والزواج!

سألته:

- تريد المال؟

- كلا.

- تريد الوزارة؟

- كلا.

رفعت حاجبيها، وقالت مصدومةً:

- تريد الزواج بي!

انحنى، ثم قبّل قدميها، وقال:

- ولن يمنع ذلك من أن أظلّ حارسَكِ وخادمَكِ وعبدَكِ المطيع.

خفق قلبها لفعله وكلامه، فوضعت يدها على رأسه، وقالت:

- وأنا قبلت. متى تأتيني بمهري؟

- انتظري حتى تحين اللحظة المناسبة.

*****

(٧٢)

كل سجان هو سجين، فكلاهما يحيا الظلام نفسه، وكلاهما يتنفس العطن نفسه، والأهم: أن كليهما يتحرك بإرادة غيره. ربما يزيد في السجان شعورٌ بالسلطة على السجين، ولكنها سلطةٌ وهمية، سرعان ما تخبو نشوتُها حين يكون السجين ضعيفًا ذليلًا، لا يثير لديه أي شعور بالتحدي، وهذا ما شعر به (أهرمان) السجان، نحو (يوسف). اسمه يعني (الشيطان) أو (إله الشر) عند الفرس، وقد أطلقه عليه مسجونٌ من الصفويين في (حبس المعونة) الذي خدم به لسنوات قبل أن يتولّى حراسة (سجن البنود). كان يفتخر باللقب، الذي منحه، مع لهجته الأخميمية العميقة، مهابةً بين المساجين من أرباب الجرائم في (حبس المعونة). ولكنه بعد أن انتقل إلى (سجن البنود)، لم يعُد يحتاج إلى لقب يُعزز من هيبته، فأغلب المساجين في ذلك السجن المُقام داخل أسوار قصر الخلافة، من الأمراء أو الوزراء المغضوب عليهم، وليسوا من أرباب الجرائم. الملل الذي كان يشعر به بسبب رتابة السجن وقلة المحبوسين به، كان يعوضه بمعرفة تفاصيلَ عن حياة المساجين قبل إعدامهم، فما أمتع الاستماع إلى عزيز قوم ذلّ، وانتهى به المطاف في سجن البنود الذي جمع بين كونه محبسًا ومقبرةً يُحتفظ بها برؤوس المحبوسين بعد إعدامهم! كم من أميرٍ ملأ الدنيا ضجيجًا في حياته، وضاقت الحياة بأعدائه، وفي النهاية جمعته بأعدائه خزانةٌ واحدة!

فعلى رفٍّ واحد في الحجرة المجاورة لزنزانة (يوسف)، تتجاور رأس (ابن مصال) مع رأس (علي بن السلار)، ورأس (عباس الصنهاجي) مع رأس ولده (نصر). وفوقهم وتحتهم عشرات الرؤوس الأخرى، التي تناطحت في الدنيا، ثم تجاورت في سكونٍ على أرفف الخزانة بعد موتها!

حين حُبِس (يوسف)، علم (أهرمان) من (عنبر الريفي) أنه حُبس بأمر (ست القصور) أخت الخليفة. أتعس المحبوسين في ذلك السجن، هم مَن يُحكم عليهم بالحبس من قِبل نساء القصر ينتهي بهم الحال إلى الجنون قبل أن يصدر الأمر بإعدامهم. فبعكس رجال القصر الذين يأتي انتقامهم سريعًا مباغتًا، يكون انتقام النساء طويلًا بطيئًا غير محدد النهاية. فيظلّ الأمل يداعب المسجون في النجاة، حتى يفقد عقلَه في النهاية، ويتمنى أن يُسلم رأسه طواعيةً للسياف. يتذكر حين أتى إلى سجن البنود لأول مرة، ورأى رفًا عليه ثلاث رؤوس وُضعت في أوانٍ زجاجيةٍ محكمة الغلق، ومملوءةٍ بالخل. ارتجف قلبه القوي لرؤية الرؤوس التي احتفظ الخلّ بتفاصيل الخوف عليها لعشرات السنين، فعلم أنها لثلاثةٍ من الوزراء قُتلوا تباعًا بأمرٍ من السيدة (صدر) أم الخليفة (المستنصر)، أول من اتخذت من خزانة البنود محبسًا، وجعلتها خزانةً للرؤوس بدلًا من كونها خزانةً للبنود والأعلام.

بعد أن اقترب من (يوسف) خلال الأشهر الماضية، انتابه شعورٌ مغاير نحو هذا السجين! ليس فقط لأنه أنجاه من الموت، ولكن لأنه أحس نحوه بالألفة، فهو ليس نبيلًا كنزلاء (سجن البنود)، وليس من أرباب الجرائم كنزلاء (حبس المعونة)، بل رجلٌ عاديٌ من الذين يقابلهم في شوارع أخميم في أيام راحته. لم يعرف تهمته من (عنبر الريفي)، فأمر الحبس لا يحتاج إلى اتهام، بل يكفي أن تأمر سيدة القصر بذلك، لينفَّذ. وحين سأل (يوسف) عن تهمته في أول حوار بينهما، بعد أن أصبح قادرًا على الكلام، أجابه

إجاباتٍ مبهمةً لم يفهمها. سأله بلهجته الصعيدية:

- فيم حُبست؟

- لأني سارق!

- ماذا سرقت؟

قال بصوت متقطع:

- سرقتُ الحب.. وسرقتُ العدل.. وسرقتُ الكرامة .. وسرقتُ الوفاء.

قال له متهكمًا:

- وممن سرقتَهم؟

- من الذين ينثرون الكراهية .. ويستقوون بالظلم.. ويُرهبون بالذل ويتنفسون الخيانة.

اقشعر بدنه، ولكنه استمر في تهكمه، قائلًا:

- ولكنها سرقةٌ لن تجعلك غنيًا.

قال في إعياء:

- يكفي أن تجعلني إنسانًا.

بعد أن اندلعت الحرب بين (طرخان) و(طلائع)، أصبح يترقب ما ستسفر عنه النتيجة. تنتهي الحرب دائمًا بنزلاء جُدد، وهذه المرة قد يكون النزيل هو الوزير (طلائع بن رُزّيك) نفسه. تعلّم ألا ينحاز في السياسة إلى أحد، هذا هو الدرس الأهم الذي خرج به من مئات الحكايات التي سمعها من المساجين. الطاعةُ لمن غلَب، ومهنته عقابُ المنهزم بقسوة. ألا يستحق

المنهزمون العقاب على فشلهم؟

استيقظ يومًا على طرقٍ على باب السجن، فتحه فوجد رأسي (طرخان بن مليط) وأخيه (إسماعيل) تتدلّيان من حبل المشنقة، بعد أن فصلهما السيّاف وأتى بهما معلّقتين. تناولهما برتابة، ثم اختار لهما صفًا فوق الأرفف المكدّسة. نظر طويلًا إلى خزانة الرؤوس الممتلئة، ثم تساءل: هل يطلب من ديوان الإمداد خزانةً أخرى، أم يبدأ في تفريغ بعض الأرفف القديمة، ووضعِ محتوياتها في مقاطف؟

بعد مرور تسعة أشهر على حبس (يوسف)، بدأ يسمعه وهو يتحدث ليلًا بصوتٍ عالٍ. يدرك (أهرمان) هذه الحالة التي تنتاب المساجين بعد شهور من الحبس في الظلام، يُصيبهم الهذيان، وتختلّ لديهم الحواس؛ بعضهم يرى أشباحًا تطارده، وبعضهم يسمع أصواتًا تجعله يرتطم برأسه في الحائط. يعرف أن هذه هي بداية الموت للسجين. فبعدها يمتنع السجين عن الطعام حتى يموت، أو يشنق نفسه بملابسه لينهي معاناته. العجيب أن (يوسف) لم يكن يهذي في حديثه الذي يمتد لساعات طويلة. بل كان يتحدث حديثًا مفهومًا مع أناس تزوره ليلًا. ظنّ (أهرمان) أن (يوسف) قد صارت أيامه معدودة، خاصةً بعد أن امتنع عن الطعام والشراب لأيام، ولكنه مع ذلك ظلّ مستمرًا في أحاديثه التي تبدأ بعد أن يجنّ الليل، وتمتد حتى الصباح. شعر (أهرمان) بالشفقة عليه، وقرر لأول مرة أن يسأل عن مصير مسجون لديه في الخزانة. ارتدى قبعته، وتمنطق بالسيف، وذهب إلى القصر الغربي. انتظر طويلًا حتى سمح له الحراس بالدخول إلى (عنبر الريفي). لا يدري سبب كرهه لـ (عنبر)، هل لصلفه وغروره، أم لأنه يكره الجند السودانية في العموم. دخل على (عنبر) فوجده يجلس على مكتبه وحوله اثنان من الجند السودانية، وقد خلع خوذته، وأخذ يشحذ خنجره بين يديه، وقد بدت رأسه الصلعاء كحجر من البازلت الأسود المصقول. قال

دون أن ينظر نحوه:

- ماذا تريد يا (أهرمان)؟

- السجين الموجود بخزانة البنود، ما مصيره؟ فقد أصابه الجنون.

توقف (عنبر) عن شحذ الخنجر وقال له متعجبًا:

- أيّ سجين؟

- (يوسف بن صدقة).

قطب (عنبر) حاجبيه الكثّين، وقال:

- هل لا يزال حيًّا؟

قال (أهرمان):

- نعم، هو لم يمت!

قال (عنبر) غاضبًا:

- وكيف لم تخبرني إلى الآن؟

ارتبك (أهرمان)، وقال:

- لم يسألني عنه أحد.

قام (عنبر)، ثم قال وهو يتظاهر بالانفعال:

- أخبرتك أن تفصل رأسه وتحتفظ بها، حتى تطلبها الأميرة (ست القصور).

تعرّق جبين (أهرمان)، وأراد أن يقول إنه اشترط لذلك موت السجين،

ولكن (عنبر) لم يمهله، بل اقترب منه، وهو يقول في غضبٍ مبالَغٍ به:

- هذا خطأ لا يُغتفر أيها الحارس المخضرم. ولكني أعلم لماذا أخفيتَ خبر حياته.

ثم مال على أذنه، وقال بصوتٍ مسموع:

- لأنك كنتَ تُعاشر المسكين، ولا بد أن هذا ما أفضى به للجنون.

ثم انفجر مقهقهًا، وشاركه الجنديان الضحك حتى بدَت لِثاهم الحمراءُ فوق أسنانهم الصفراء، كلُحاء زمانة فاسدة. كتم (أهرمان) حنقه، والتزم الصمت حتى فرغ (عنبر) من ضحكه، ثم قال في تعالٍ:

- اقتله يا (أهرمان)، اقتله وأرحه من عذاب الجنون، ولا تنسَ أن تفصل رأسه!

قال (أهرمان) في جمود:

- ألن تسأل مولاتي (ست القصور) أولًا؟

عبَس وجه (عنبر) جديًا هذه المرة. استدار في مواجهة (أهرمان) وحدق في عينيه التي كانت تنظر لأسفل في ثبات ولا تطرف. ثم قال له:

- أنا الذي يُصدر الأوامر لك أيها الحارس!

ثم أردف قائلًا:

- هيا انصرف، ودَع رأسه في الخزانة، حتى إذا أرادت مولاتي رؤيتها!

عاد (أهرمان) إلى الخزانة مشتعلًا بالغضب. ألقى قبعته، وسيفه. ثم تناول مشعلًا كبيرًا وسار به في الدهليز نحو زنزانة (يوسف). فتح الباب فوجد (يوسف) يرتجف في ركن الزنزانة. ثبت المشعل على الحائط، ثم اقترب

منه وحمله بين يديه في يسرٍ بعد أن فقد (يوسف) من وزنه ما يزيد عن خمسين رطلًا، ثم خرج به إلى الردهة. وضعه في حوض مملوءٍ بالماء، شهق (يوسف) من برودته، ثم صبّ فوق شعره المتلبّد الماءَ والصابون. قام فأحضر موسًى مسنونَ الحدّ، ثم جمع شعر (يوسف) في يده ومرّر عليه الموسى من عند المنبت. تساقطت جدائل الشعر والذقن على كتفي (يوسف) وصدره، حتى بدت رأسه كرأس كاهن ممن يُرسمون على جدران البرابي في أخميم. أخرجه من الحوض وهو يرتعد، جففه، ثم ألبسه جلبابًا أبيضَ نظيفًا من صندوق ملابسه، وأعاده إلى الزنزانة مرةً أخرى. ترك مشعل النور بالداخل وأغلق الباب، وهو يقول:

- حاول أن تتماسك! فأنا لا أريدك أن تموت!

* * * * *

(٧٢)

كانت الشمس تتوسط كبد السماء، حينما وقف (موهوب) فوق حافة جبل طرة، يتطلع إلى السهول المنبسطة في أرض حلون، والتي تمتد بساتينها حتى تصل إلى النيل غربًا، بينما تحفّها التلال الصخرية البيضاء الممتدة من طرة جنوبًا وحتى المقطم شمالها من جهة الشرق. كان (الحسين) يمتطي حصانًا، ويهرول به فوق التل، مثيرًا سحابةً من الرمال، بينما كان (فواز) يعدو خلفه بفرسه يحاول أن يدركه. ابتسم وهو يرى مهارة (الحسين) في الفروسية تتزايد يومًا بعد آخر حتى أصبح يهبط التل المنحدر في سرعة، ويثب بفرسه فوق الصخور النائتة بمهارة ورشاقة، وكأنه يمتطي أرنبًا بريًا. منذ عام، و(فواز) يتعهده بالتدريب على الفروسية، بينما كان يقوم هو بتدريبه على الرمي بالنبال والطعن بالسيف. كانت هذه هي الطريقة المُثلى التي أخرجت الصبي الصغير من أحزانه، بعد أن ظلّ شهورًا يبكي على فراق

(يوسف). تذكر (موهوب) ذلك اليوم المشؤوم، واستعاد عقلُه المشهد الذي اخترق فيه السهمُ صدرَ (يوسف)، قبل أن يسقط على الأرض مضرجًا في دمائه، حينها حمل الصبي، وهرول به مبتعدًا، ثم ركب عربة (يوسف) المربوطة عند باب البرقية، وانطلق بها حتى بلغ جبل طرة في حلوان، حيث يختبئ (فواز) مع باقي الرجال.

ظلّ لعدة أسابيع يراوده الأمل في أن يكون (يوسف) لا يزال حيًا، اتصل ببعض الوسطاء ممن لهم علاقةٌ بالقصر، أخبروه أنه قد مات متأثرًا بجرحه. طلب جثمانه، ولكنهم استنكروا طلبه، وحذروه من أن يقترب من القاهرة، حتى لا يلحق برفيقه. أدرك أن تهديدهم كان نابعًا من خوفهم على أنفسهم وليس خوفًا عليه. هو بالنسبة إليهم، سهمٌ أطلق ليصيب هدفًا، ولو ارتدّ إليهم لكسروه.

قرر أن يغيّر خُططه؛ لن ينتظر حتى يحين عليه الدور في القتل هو و(فواز) مثلما قُتل (حمدان) و(يوسف)، جمع هو و(فواز) عددًا كبيرًا من الرجال، سكنوا في مغارات جبل طرة، واتخذوا من منظرة (خمارويه) الخربة حِصنًا يحتمون به إذا دعت الحاجة. ثم عكفوا على شراء الخيل والسلاح سرًا حتى تجمع لديهم منه الكثير. شهد الحرب بين (طرخان) و(طلائع) من مكانه دون أن يُحرك ساكنًا. هو لن يكون أداةً في يد أحدهم، بل سيكون أداةً لنفسه. وجيشه الذي بلغ ألف مقاتل، وينتشر بين مغارات حلوان، سيخرج يومًا من مخابئه، ليزيل الظلم عن الناس، وتكون له الكلمة الفصل فيمن يحكم أهل مصر.

* * * * *

(٧٣)

خلف أعمدة الدهليز المظلم المفضي إلى مجلس الخليفة، لمعت أزواجٌ من العيون المتلصصة في تأهب، بعد أن ارتفع صوت خطوات الوزير الصالح (طلائع) وولدِه (رُزّيك)، وقائدِ حرسه (الحسين بن أبي الهيجاء)، وهي تقرع أرض الدهليز المبلّط بالحجر. فجأةً ارتفع صرير باب السرداب وهو يُغلق، وظهر أمامه (عنبر الريفي) بطوله الفارع، وهو يرتدي كاملَ سلاحه. توقف الثلاثةُ حينما أشار إليهم (عنبر) قائلًا:

- معذرةً سيدي الوزير، إن مولاي الخليفة يعجز عن لقائك اليوم!

تعجب (طلائع)، وسأل (عنبرَ):

- هل الخليفة بخير؟

- نعم بخير، ولكنه نذرَ أن يحتجب اليوم.

استدار الوزير وتبعه ولده وحارسه. ولكن صوت استلال السيف من غمده، جعلهم يستديرون في سرعة، هوت ضربةٌ أصابت عاتق الوزير، فتفجر الدم من عروقه، وهوَت الثانيةُ على عضد ابنه (رُزّيك) فجرحته، بينما سقطت الثالثةُ على نصل سيف (الحسين بن أبي الهيجاء) حارس الوزير، الذي بارز (عنبر) في استبسال، وهو ينفخ في بوقه كي يُنبه باقي الحراس. فجأةً خرج من خلف الأعمدة عددٌ من الجند السودانية، هوت طعناتُهم على ظهر الوزير حتى انقطعت سلسلة ظهره، وسقط غير قادرٍ على الحِراك. اشتبك معهم الأمير الشاب (رُزّيك)، وهو يحاول أن يمنع طعناتهم القاتلة عن أبيه. وبوق (الحسين) يصيح في جنون مستدعيا حراس القصر، فجأةً انفتح باب السرداب، ودلف منه عشرات الحراس، ارتبك الجنود السودانية، بعد أن تكاثرت أعداد الحراس، وفرّ آخرهم ليجد (عنبر) نفسَه وحيدًا، وثلةٌ من

الحرامس حوله، ألقى بسيفه أرضًا، ومسجد وهو يقول:

- أمستحلفكم بالله ألا تقتلوني، إنما هو أمر مولاي الخليفة.

انهالت اللكمات عليه، ثم كبّله الحرامس، بينما أمرع (رُزّيك) و(الحسين) إلى الوزير (طلائع)، فشدّا على جرحه بمنديل، وحملوه، مع الحرامس إلى قصره وقد شلّت أطرافه الأربعة. وبينما كان (طلائع) محمولًا على عربة إلى بيته، كانت (مست القصور) ترقب ما يحدث من مشرفية القصر وهي تتمتم في رعب:

- هلكتَ وأهلكتنا معك يا (عنبر)! عليك لعنة الله!

***

بعد قليل كان (طلائع بن رُزّيك) في بيته يرقد مشلولًا في السرير، وهو يتمتم في إعياء بكلمات غير مفهومة، وبجواره جليسه الشاعر (عمارة اليمني). بكى (رُزّيك) وهو يرى أباه يحتضر، ومأل (عمارةَ) في حزن:

- ماذا يقول؟

- هي نفحات رجل يُشرف على الآخرة، يقول: «نحن في غفلةٍ ونوم، وللموت عيونٌ يقظانة»، ويقول أيضًا: «إن كان عندك يا زمان بقيةٌ، مما تُهين بها الكرامَ فهاتها».

بكى (رُزّيك)، فسأله (عمارة):

- هل علم الخليفة بما حدث؟

- نعم، وأقسم أنه لا يعلم بالمؤامرة ولا يرضى بها.

فجأةً مسمعا شهقةً عاليةً من الوزير انتفض بعدها جسده، ثم خمدت

أنفاسه تمامًا. انحنى عليه (رُزّيك) وهو يبكي، ثم حلّ المنديل الملطخ بالدماء عن عاتق أبيه، مسح به دموعه، ثم قال:

- أقسم أن أنتقم لك ممن قتلوك يا أبتاه!

*****

(٧٤)

كان قلبها ينقبض قهرًا وهي تسير إلى مجلس الوزير (رُزّيك بن طلائع)، وأمامها حارسان من القصر. لم تصدق ابن أخيها الخليفة (العاضد) وهو يقول لها:

- اذهبي إلى (رُزّيك)، واطلبي منه العفو!

صرخت فيه:

- أنا (ست القصور) بنت الخليفة (الحافظ)، وأخت الخليفة (الظافر)، وعمة الخليفة (الفائز)، أطلب العفو من ابن (طلائع)!

لم يلتفت إلى استثنائه من قائمة الخلفاء، وكأنها لا تعترف به إمامًا، ثم قال وكأنه يتوسل إليها:

- اذهبي يا عمتي، فقد شهد عليك (عنبر الريفي)، ولن يرضى (ابن طلائع) إلا بطلب العفو بين يديه!

نظرت إليه مبهوتة، ثم قالت:

- ألا تنتخي؟ ترسل عمتك متذللة لشاب كان أبوه يقبّل الأرض بين قدميك!

قال لها صارخًا:

- كفاكِ كِبرًا، فقد أشعلتِ كرةَ النار، وستأكلنا جميعًا لو لم أوقفها!

ثم نادى بصوتٍ عالٍ:

- يا حراس!

دخل حارسان من الباب، فقال لهما، دون أن ينظر في عينيها:

- رافقا السيدة (ست القصور) إلى مجلس الوزير (رُزِّيك بن طلائع).

دلفت إلى المجلس، فوجدت (رُزِّيك) يجلس على كرسي أبيه (طلائع)، وحوله ثلة من الرثاة والمعزين. ظنت أنه سيصرفهم حين دخولها، ولكنه أشار إلى الشاعر (عمارة اليمني) وقال له:

- أنشد يا (عمارة).

قال (عمارة) بصوت يتهدج بصدق المحبة لا برغبة العطاء:

أفي أهل ذا النادي عليمٌ أسائله؟

فإني لما بي ذاهبُ العقل ذاهلُه

دعوني، فما هذا بوقت بكائه

سيأتيكم طلُّ البكاءِ ووابلُه

ولِمَ لا نُبكيه ونندب فقدَه

وأولادنا أيتامُه وأراملُه

فيا ليت شِعري بعد حُسن فِعاله

وقد غاب عنا ما بنا الدهرُ فاعلُه!

سكت (عمارة)، بعد أن أسكتت كلماته الألسنة، وحركت الدموع في المقل.

أشار إليهم (زِرْبك) جميعًا بالانصراف، بما فيهم حارسي الخليفة، حتى خلت القاعة عليه وعلى (ست القصور).

طال الصمت بينهما، إلى أن أخرج منديله الملطخ بدماء أبيه الجافة، فمسح به وجهه، ودموعه، وقال متنهدًا:

- صدقت يا (عمارة)، فما هذا بوقت بكائه!

اقشعر بدنُها لرؤية المنديل المتسخ بالدماء، ولكنها تماسكت، وقالت في كبرياء:

- أخبرني الخليفةُ أنك تريد مقابلتي!

قام من مكانه ثم هبط الدرج أمام الكرسي، وهو يقول:

- نعم، فقد شهد عليك (عنبر الريفي)!

قالت دون أن ترتجف:

- ما لي وما لعبدٍ خَصيٍ، يريد أن ينجو بعنقه!

قال لها:

- عجبًا، ولكن (طرخان) شهد عليكِ أيضًا أمام أبي، قبل أن يُقطع عنقه!

قالت في حدة:

- كان أبوك يكرهني، رغم أني أنا من منحته الوزارة.

قال لها متأوهًا:

- يا الله! كيف احتمل أبي كلّ هذا الغدر؟ كم كنتَ حليمًا أيها الرجل، حتى بعد أن نزفتَ دماءك الزكية!

ثم أدنى المنديلَ من وجهها، وقال:

- أتدرين أن صاحب هذه الدماء قد عفا عنك، وهو في فراش الموت، بعد أن شهد عليكِ (عنبر الريفي)؟

أزاحت يده في غضب، وقالت:

- وإن كان كما تقول، فماذا تريد مني؟

جُنّ جنونه، فقال:

- أن تطلبي العفوَ مني على كل ما فعلتِ! وأن تُقبّلي تلك الدماءَ بشفتيكِ وأنتِ نادمة!

صرخت قائلةً:

- الموت أهون من أن أفعل ما تقول!

جحظت عيناه، وهو يقول:

- إذن، فليكن أهونُ الأمرين عليكِ!

ثم لفَّ المنديل حول عنقها، وشده بيديه، وهي تدفع بقدميها الأرض، حتى خمدت حركتها، وسقطت جثةً هامدة.

* * * * *

(٧٥)

حين فتح (أهرمان) مزاليج خزانة البنود، لم يصدّق عينيه حين رأى (عنبر الريفي) مكبّلًا بالسلاسل، وخلفه اثنان من الحراس، يدفعانه بقوة كي يتحرك ويهبط الدرج إلى داخل الخزانة. لم يبدُ على (عنبر) الانكسار وهو يهبط الدرج في تؤدة، غير عابئٍ بدفعات الحراس له، ولا بنظرات (أهرمان)

الشامتة له. أجلسه الحارسان في زنزانة ثم ربطا يديه وقدميه في كُرتين من الحديد، وأحكما قفلهما، ثم قال أحدهما لـ (أهرمان):

- لا تقتله، يريده سيدي (زُريك بن طلائع) حيًا!

أومأ (أهرمان) برأسه موافقًا. وهو يشعر بالسعادة، لوجود غريم له في السجن، سيضفي الإثارة على لياليه القادمة. أغلق باب السجن الخارجي، بينما ترك باب زنزانة (عنبر) مفتوحًا؛ وقد اطمأن لتكبيله بكُرات الحديد. جلس على مقعد في الطرقة أمام الزنزانة، وقد انعكست شعلة النار المعلقة على الجدار على وجهه، ثم قال لـ (عنبر) في شماتة:

- أظلم السجنُ بقدومك يا (عنبر)!

قال (عنبر) في صلفه:

- لا تشمت أيها الحارس الخرِف، إنما هي جولة، وتتبعها جولات.

ثم أردف مهددًا:

- ولتعلم أنه لو مسّني سوء، سيحرق الجند السودانية القاهرة حرقًا.

قام (أهرمان) من مكانه، وأمسك شعلة النار الموجودة فوق رأسه، ثم سار بها إلى داخل الزنزانة، دنا بالنار من وجه (عنبر) وقال:

- لا يهمني أن تحرق القاهرة بمن فيها، ولكني سأحرق وجهك إذا نعتّني بالحارس الخرِف، فأنا هنا: السيد (أهرمان).

ثم مسّ وجهه بالنار، وهو يقول:

- هل فهمت؟

ارتد (عنبر) بوجهه من الألم، ولكنه لم يتأوه، أغمض عينيه ثم فتحهما،

وقال وهو يكتم ألمه وغضبه:

- حسنًا يا.. سيد (أهرمان)!

ابتعد (أهرمان) وهو يشعر بنشوة تدغدغ رأسه، لم يشعر بها منذ زمن طويل. حمل المشعل وسار في الطرقة إلى داخل السجن، رآه (عنبر) يضع المشعل أمام حجرة أخرى، يتسلل منها النور بالفعل، ثم سمعه يقول بعد أن دلف منها:

- تأخرتُ عليك يا صديقي.

لم يسمع صوت من يحادثه، ولكنه سمع (أهرمان) يقول مرةً أخرى:

- حسنًا، دعنا نستأنف ما كنا نقول، أين توقفنا؟

- ....

- آه، تذكرت. حينما باعني أبي لنخاس في أخميم بسببفقره، يومها أدركتُ أن الطفل بداخلي قد مات، وأن عليَ أن أحيا بقلب رجلٍ حتى ولو كنتُ لا أزال طفلًا في الخامسة من عمره.

***

لم يتوقع (أهرمان) أن يفقد (عنبر الريفي) عقلَه بعدأسابيع قليلة من حبسه. كانت تنتابه نوبات من الغضب، يظل يتشنج أثناءها، ولولا كرات الحديد المعلقة في يديه وقدميه، لاخترقت لكماته حائطَ السجن. دخل عليه (أهرمان) بصحيفة عليها صحنان من الطعام، وضع أحدَها أمامه، ثم حمل الصحن الآخر وهمّ أن يخرج، فقام (عنبر) بسرعة، وقال في رجاء:

- (أهرمان)، اجلس، لديَ عرضٌ أريد أن أقدمه لك!

نظر إليه (أهرمان) بحدة، فصحح كلامه، وقال:

- أقصد: يا سيد (أهرمان)!

ثم أردف:

- ساعدني في الهروب من هنا، وأعدك أن تكون قائدًا لحراس القصر. صدقني يا (أهرمان)، لن يطول الأمر بـ (ابن طلائع)، لن يسكت الجند السودانية على سجني، ولن يقبل الولاة بحكم (ابن طلائع). هل تظن أن رجلًا كـ (شاور بن مجير) سيسمح لصبي أصغر من أبنائه أن يكون وزيرًا عليه؟ اعقِلها يا (أهرمان)، وفكّر كيف تغادر هذا القبر العطن الذي تعيش فيه.

تجاهله (أهرمان) وسار في الدهليز نحو الزنزانة الأخرى، فخطا (عنبر) خلفه خطوتين بقدر ما سمح له طول السلسلة المقيدِ بها، ثم مدّ رأسه ليراه، وصرخ قائلًا:

- (أهرمان)، قف لتتحدث معي!

رآه يدلف إلى الزنزانة المضيئة، وسمعه يقول:

- خذ طعامك يا صديقي، وسآكل معك!

صرخ (عنبر) قائلًا:

- مع من تتحدث يا (أهرمان)؟ لا يوجد في السجن أحد سوانا، أنا لم أسمع صوت من تحادثه مرةً واحدة. هل تريد أن تصيبني بالجنون؟ أم أنك أنت المجنون؟

لم يُجبه (أهرمان)، فصرخ (عنبر):

- (أهرمان) أيها الحقير! أقسم أن أقتلك حين أخرج من هنا. لا، بل أقسم أن أقتلك حالَ أن يُفكَ القيدُ عن يدي.

سمع صوت احتكاكٍ بالأرض، وكأنما يجذب (أهرمان) شيئًا ما، مطّ عنقه بقدر ما يستطيع، فرآه بالفعل يسحب صندوقًا ضخمًا من الزنزانة إلى الدهليز ويبدو من الجهد الذي يبذله أنه ثقيل. وصل (أهرمان) بالصندوق أمام زنزانته، فوجده تابوتًا حَجريًا يشبه توابيت الفراعين، على جدرانه نقوشٌ محفورة، وفوقه غطاء من الحجر الجرانيت. وقف (أهرامان) لاهثًا وهو يقول:

- هل تريد أن تعرف مع من كنتُ أتحدث؟

ثم أزاح الغطاء بجهد كبير حتى كشف ما بداخله. قطب (عنبر) حاجبيه، وهو ينظر بدهشة. رأى داخل الصندوق رجلًا حليق الرأس والوجه، يرتدي جلبابًا أبيض، ويرقد في سلام وهو مغمض العينين. قال مستنكرًا:

- من هذا؟

- هذا (يوسف بن صدقة).

قال متعجبًا:

- هل هو حيٌ أم ميت؟

- ميت.

- لماذا لم يتعفّن؟!

- العفن لأمثالك! أما هو، فيستحق الخلود.

- ستقضي هذه الظلمة على عقلك يا (أهرمان).

- سيد (أهرمان)، حذرتك من قبل!

- أنت مجنون، مجنون وبائس! تتحدث إلى رجل ميت بالساعات لأنك لا تجد من تحادثه.

صفعه بقوة، وهو يقول:

- قلت لك تأدب!

بصق عليه (عنبر) وقال في جنون، وقد انتفخ عنقه بالعروق:

- يمنعك مني ذلك القيد. أقسم أن أقتلك بيدي لو فككته عني.

مسح (أهرمان) البصقة بيده، واستلّ سيفه. احتقان وجهه، وانعكاس نار المشعل عليه جعلته يبدو بالفعل كشيطان، ضرب رسغ (عنبر) الأيمن بالسيف، فبتره، وهو يقول:

- ها قد فككت لكَ اليمنى.

ثم ضرب رسغه الأيسر وقال:

- وها قد فككت اليسرى.

صرخ (عنبر) من الألم، وسقط أرضًا، ولكن غضبه تجاوزألمه فقام كالثور يريد أن ينطح (أهرمان) في بطنه برأسه، ولكن (أهرمان) العجوز استقبله بنصل سيفه في صدره، فجحظت عيناه، وسقط على وجهه بجوار كفّيه.

* * * * *

(٧٦)

كان (أهرمان) يجلس في حجرة (الحسين بن أبي الهيجاء)، الذي كان

يستجوبه بعد أن علم بمقتل (عنبر). سأله (الحسين):

- من أين أتيث بالصندوق؟!

قال (أهرمان) بلسانه الأخميمي، الذي ينطق به في دفء حينما يتذكر الماضي:

- كنت طفلًا صغيرًا في أخميم، حينما أتى أبي مع جماعة من النباشين، وقاموا بالحفر في أرض منزلنا بحثًا عن كنوز الفراعين. كان يأمل أن يعثر على تماثيل الذهب، ويصبح ثريًا مثل مئات الناس من قريتنا، ولكن الفقر الذي كان يلاصقه، جعله يجد تابوتًا فارغًا، بعد شهور طويلة من الحفر.

ازدرد ريقه، ثم قال:

- أسرني ذلك الصندوق، وظللت متعلقًا به حتى بعد أن باعني أبي لنخاس، وباعني النخاس، لأستاذ مطوق من أساتذة القصر. كنت كلما ذهبت إلى زيارة أبي في أخميم، أتحسس ذلك الصندوق، وأتمنى أن أدفن به حين أموت. ولكني علمت أن التابوت لم يكن للدفن، وإنما يوضع فيه الموتى بعد تحنيطهم. سألت راهبًا مسنًا من أخميم، كان يقوم بتحنيط الكهنة بعد موتهم، عن سرّ التحنيط، فأخبرني أنه يستخدم في ذلك ملح النطرون، وشمع العسل. وتمنيت لو مت، أن يقوم أحدهم بتحنيطي.

صمت قليلًا، ثم قال:

- حتى كان ذلك العام الذي أصبحث فيه مسجانًا على خزانة البنود، لم يكن يمرّ الشهر حتى تأتيني رأس أمير أو وزير من الوزراء. تعجبت أن رؤوس النبلاء تُهان الآن، بينما جثامين القدماء كانت تُلف محنطةً ومكرمةً في توابيت من الحجر. وخطر لي أن المصريين نسوا سرّ التحنيط حينما نسوا أن هناك حياةً آخرة، ورضوا بحياة واحدة، وكأنهم كفروا بالخلود، وآمنوا

بالعفن!

تعجب (الحسين) من أن يتحدث (أهرمان) السجان بهذ الوجد، ولكنه لم يشأ أن يقاطعه، فتابع (أهرمان):

- أثناء إجازة لي في أخميم، حملت الصندوق على عربة، وأتيت به إلى الخزانة، ثم أتيت بملح النطرون، وشمع العسل. وتعلمت التحنيط على الطيور والحيوانات. وعلّمته لصديق لي، أوصيته إذا ما مت، ألا يترك جسدي لدود الأرض، وأن يقوم بتحنيطي، وتركت له جُوالق من ملح النطرون حتى يكفي جسديَ الضخم!

قاطعه (الحسين)، قائلًا:

- ولماذا قمت بتحنيط (يوسف بن صدقة)؟

تنهد، ثم قال:

- مثله يستحق الخلود؛ طيلة أشهرٍ لم يتحدث عن نفسه، كما يفعل المساجين، لم يطلب الرحمة، ولم يشاغب. ولكني عرفت عنه الكثيرَ حينما بدأ يتحدث إلى الأرواح التي تزوره ليلًا.

قال (الحسين) متعجبًا:

- أرواحٌ تزوره ليلًا؟!

قال (أهرمان):

- نعم، ففي الظلام يرى الإنسانُ ما لا يراه في النور.

ثم أردف:

- سمعته يتحدث إلى أمه وأبيه كثيرًا، وسمعته يتحدث إلى الوزير (علي

بن السلار) مرةً، وكان يتحدث في كل ليلة إلى امرأة اسمها (يومتينا)، كانت تزوره دومًا ولم تتخلف عن زيارته قط.

مكت، ثم تهدّج صوتُه وهو يقول:

- وسمعتُه يتحدث إلى ذلك الشيخ، الذي زاره في الليلة الأخيرة قبل موته.

قال (الحسين):

- أيّ شيخ؟

ارتجف صوت (أهرمان)، وهو يقول:

- كنتُ قد حممته، وحلقت له شعره، وذقنه، وألبسته جلبابًا أبيض، ثم وضعته في حجرته مع مشعل النور حتى يستعيد حواسه، وذهبت للنوم. وفي منتصف الليل سمعت صوتَه وهو يقول: «وداعًا يا شيخي»، قمت فوجدت المشعل قد انطفأ، فسرتُ نحو الزنزانة، فهالني النور الذي يخرج منها. أردت الاقتراب، ولكني ارتجفت، وأنا الرجل القوي! فقد سمعته يقول:

يا من أشرقتِ الدنيا بجَمالِه

ومنحني الحياةَ بنوره الذي لا يفنَى

يا من وضعَ في صدري نفخةً من رُوحه

واختارَ لي الأرضَ موطنًا

ورعاني جَنينًا وصبيًا ورجلًا

أبحث عنه وهو بقُربِي

أستوحشه وهو أنيسي

أشهدُ أنّ كلَّ انتماءٍ لغيرِهِ باطل

وكلَّ مذهبٍ لا يدعو لحُبِّهِ باطل

وكلَّ هوًى يَحيدُ عن هواهُ باطل

فهو الهَوَى، والهَوَى هو

دمعت عين (الحسين)، وارتجف صوت (أهرمان)، وهو يقول:

- ألا يستحق مَن يقول هذا الكلام الخلود؟

قال (الحسين):

- بلى!

ثم أردف:

- اسمع يا (أهرمان)خيرًا فعلتَ بقتل (عنبر)، ولكن لن يهدأ الجند السودانية إلا بالقصاص لأجله، فخيرًا لك أن تهرب إلى أخميم، ولن ينقطع راتبك.

قال (أهرمان):

- واللهِ لا أخشى الجند السودانية، ولكني مللتُ الحياة في سجن البنود، وأشتاق إلى موطني أخميم.

ثم قال:

- هل عثرتم على أهل (يوسف بن صدقة)؟

- أخبرني رجالٌ في القصر أن له غلامًا اسمه (يحيى)، يعمل في حانوتٍ له في سوق الوزاقين، كما أني أعرف صديقًا له، كنا على وفاق في يوم من الأيام، ثم فرقتنا الأهواء.

لم يصدق (موهوب) ما سمعه، تجددت أحزانه، وكأن أحدهم قد نكأ جراحه المندملة بخنجر. جثا على ركبتيه، ثم ضمّ (الحسين)، الذي كان يتشبث باكيًا بالتابوت الحَجري، إلى صدره، وربت عليه. مسكينٌ هذا الولد الذي صار وحيدًا في الدنيا! حتى جدته أم (نصر)، تركت القاهرة ورحلت إلى المهدية، بعد مقتل (ست القصور).

شعر بيد (الحسين بن أبي الهيجاء) على كتفه، وهو يقول:

- أين ندفنه؟ هل ندفنه في مقابر القبط، أم في مقابر المسلمين؟

قال (موهوب) في حيرة:

- لا أعلم!

فرغم طول صداقته مع (يوسف)، لم يتحدثا سويًا في أمر الدين، جمعهما همُّ الأرض، ولم يسأل أحدهما الآخر عن إيمانه. همَّ أن يقول: ندفنه إلى جوار أمه في مقابر القبط بالقرافة. ولكن (يحيى) قال:

- أنا أعلم أين ندفنه.

ثم قدّم له صندوقًا، وقال:

- أعطاني سيدي وصيته.

فتح (موهوب) الصندوق، وأخرج الوصية. قرأها في لهفة، وأنفاسه تتهدج، ثم بكى وهو يقول:

- رحمك اللهُ يا (يوسف)! رحمك اللهُ يا أخي!

***

ساروا في وادي المستضعفين بالقرافة الصغرى. وصلوا إلى بقعة يجاورها

جنوبًا: مقابر بعض الصحابة من أهل السُنة، وشمالًا: تبَّة (سمعان الخراز)، ويعلوها مشهد أمير الجيوش (بدر الجمالي) الذي يربض فوق التلة. حملوا التابوت الحَجري من فوق العربة التي حملته من القاهرة، ثم صعدوا في طابور كبير إلى الجبل، يتقدمهم (موهوب)، و(الحسين)، و(فواز)، و(يحيى)، وقد انضمَّ إليهم (أهرمان)، و(الحسين بن أبي الهيجاء)، وعشراتٌ من القبط ممن عرفوا (يوسف) أو سمعوا عنه. بدا المشهد مع التابوت القديم، وكأنه موكبُ لمَلِكٍ عظيمٍ من المصريين القدماء، نقله أتباعه -خطأً- إلى البر الشرقي بدلًا من البر الغربي! وضعوا التابوت إلى جوار الحفرة المعدّة لدفنه، ثم بدأ الناس في الدعاء له. فجأةً ظهر الشيخ (ابن الكيزاني) ومعه العشراتُ من أتباعه، فرح (موهوب) و(الحسين بن نصر) بمقدمه، ظنوا أنه جاء يُشيِّعه فحسب، ولكنه استقبل القِبلةَ، ورفع يديه، وقال:

- مات اليوم رجلٌ صالح، فادعوا لأخيكم.

ثم أخذَ في الدعاء وهم يؤمِّنون خلفه، حتى أوشكت الشمس على المغيب. أهالوا عليه التراب، ووضع (يحيى) شاهدَ قبرٍ من الحجر، نُقشت عليه عبارةٌ كتبها (يوسف) بيده في وصيته:

«هنا، يرقد مَن كان اسمُه منقوشًا على الماء».

***

تلوَّن الأفق بشفق أحمر باهت، يفترش المسافة بين البحر والسماء. وتتابعت موجات البحر في دوائر وكأنما صنعها قرصُ الشمس الذي غاص لمنتصفه في الماء، لتحملَ رسالته الأخيرة إلى شاطئ الإسكندرية. على صخرة فوق الشاطئ تتوسط المسافة بين حي دار الإمارة والفنار القديم، وقفت حمامتان تستمعان إلى رسائل الموج وتتناغيان. يلتفُّ عنقاهما في

وَجْد، وينبسط جناحاهما في شوق، ويتهامسان في عشق. فجأةً حلّق فوقهما سربٌ من الحمام، طاف فوقهما وقد ملأ السماء بهديلٍ مسجوع. نظرتا إلى بعضهما البعض ثم بسطتا جناحيهما، وانطلقتا خلف السرب الذي اخترق الغمام، منطلقًا إلى ما وراء حدود الكون.

*****

قرية (أبو جِنْس)

(١١٦١ ميلاديًا)

(٧٧)

أطرق الأب (سمعان) آسفًا، بعد أن قرأ (موهوب) عليه الوصية، ثم قال:

- فليرحمه الرب، وليُعزّ (ومن) وابنتَه (دميانة).

قال (موهوب):

- أتينا أنا و(الحسين) لنأخذ (دميانة).

عبَس وجهه قليلًا، ثم تناول منه الصندوق، وقال:

- سأعطي لـ (ومن) الوصية، والأمرُ لها في النهاية.

وبعد أن رأى فجيعةَ (ومن)، عاد إليه، وقال:

- فلننتظر حتى الصباح يا سيد (موهوب)، فالمرأة مفجوعة.

ثم نادى على (بشندي)، وقال:

- أعدّ مبيتًا للسيد (موهوب) و(الحسين) يا (بشندي).

في اليوم التالي، جاءته وهي ترتدي ثوب الحِداد، أجلست (دميانة) على

مقعد إلى جوار أخيها (الحسين) في الصفوف الخلفية، ثم ذهبت إليه عند الهيكل، وقالت وهي تطرق برأسها:

- أوصاني (يوسف) بأن أعيش مع (دميانة) وأخيها.

- علمتُ.

- سأرحل إلى الفسطاط.

- افعلي ما يرتاح إليه قلبكِ يا (ومن).

- يُحزنني أن أرحل عن الدير.

- لا تنقطعي عن الصلوات، وحين تصلين إلى الفسطاط،اسألي عن الأم (أغابي)، في دير مار جرجس، فهي أكبر الراهبات سنًا وستقدم لك الكثير من العون.

رفعت رأسها، ونظرت إلى وجهه ثم بكت، لطالما كان الأب (سمعان) أباها الروحي، وسندها في الحياة. لو تمنت شيئًا فهو أن يظلّ إلى جوارها إلى الأبد، ولكنها مضطرةٌ للرحيل، ليس من أجل (دميانة) فحسب، وإنما من أجل (يوسف) أيضًا. اختلج وجهها، وأطرقت مترددةً، ثم قررت أن تُلقي عن كاهلها حملها الأخير، فقال:

- أريد أن أعترف قبل أن أرحل.

نظر إليها مشفقًا، وكأنه يشعر بما يُثقل قلبها. أخذها إلى ركن التائبين في الكنيسة. جلست على الأرض أمامه وقد جمعت أطرافها الأربعة، وغاصت برأسها بين كتفيها كجَنين يسبح في ظلمات الغيب، أمسك في يده الصليب فرشمها به، ثم فتح الإنجيل على آية من إنجيل لوقا تقول: «ها أنا أعطيكم سُلطانًا لتدوسوا الحيّات والعقارب، ولا يضركم شيء». ثم قال:

- هيا يا (ومن)! تحدثي، وضعي عنك ما يُثقل قلبك.

شعرت بمسٍّ من السكينة يَفتِق رَتْق الحزن الذي رانَ على قلبها لسنوات، فخلعت عن روحها رداءَ الخوف، ووقفت تتطلع إلى موجات الذكريات، قبل أن تُلقيَ بنفسها في لُجّتها، متشبثةً بطوق الغفران الذي منحه لها أبوها الروحي، وقالت:

- أحببتُ (يوسفَ) يا أبي!

***

فرغت من حكايتها، أطلقت مشاعرها الحبيسة التي كانت تؤرّقها لأعوام في يقظتها، وتتسلل هاربةً من خبيئة نفسها في غفوتها، لم يلُمها الأب (سمعان) على شيء، قرأ عليها صلاة التحليل، وبعد أن فرغ، قبلت يده، ثم ودّعت كل من في الدير، وحين خرجت، وجدت العم (بشندي) يقف مع (موهوب)، وقد أعطاه قدحًا من النعناع. قالت له:

- سأفتقدك يا عم (بشندي).

أدار وجهه كي يُسيطر على انفعاله، ثم قال:

- وأنا أيضًا يا (ومن).

ثم حمل (نميالة)، وقبّلها، وقال:

- لا تنسَيْ أهلك في أبي حنّس يا (ميمونة).

سارت العربة التي يجرّها جوادان بمحاذاة النهر، تطلعت نحو الأفق الصافي، الذي انعكست شمسه على صفحة الماء، وتنفست ندى الصباح المعطّر برائحة النعناع فملأ صدرها بالشجن. تذكرت يوم أن أتى بها (يوسف) أولَ مرة، وشعورٌ بالخوف كان يعتريها. اليوم، تُغادر قرية (أبي

حنُس)، وهي تشعر بالطمأنينة. أرادت أن تسير في طريقها للخلاص على أرض مستوية، ولكنها أدركت أن الحياة لا تخلو من المِحن والاختبارات، وأن للخلاص سُبلًا كثيرة. تحسست القلادةَ التي منحها لها (يوسف)، فشعرت بالوجدِ والحنين إليه. رغم رحيله الأبديّ إلا أنها تشعر بأنها أقربُ إليه من أيّ وقتٍ مضى. منحها قطعتين من قلبه، وأودعهما لديها، ومتحافظ على العهد، من أجله، ومن أجل (الحسين) و(دميانة).

تذكر انك حملت رواية عهد دميانة حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هتظهرلك.

* * * * *

(٨٧)

"بسم الله إله الكون"

وبعدُ، فهذا ما أنشأه الكاتبُ (يوسف بن صدقة القيسراني)، إلى ابنته (دميانة بنت يوستينا). أكتب إليك يا بُنيتي وأنا أبحث عن أخٍ لكِ فقدتُه، ولا أعلم إن كنتُ ساعود بعدها أم لا. ولكني رأيتُ أن أحدثك بما سعيتُ له وأدركته، وما تمنيتُه ولم أدركه، وليكن هذا عهدي لكِ يا (دميانة). سعيتُ لأن أكون إنسانًا يعرف ذاتَه، وقد عرفتُها. بحثت عن جوهري، فأدركتُ أن جوهر الإنسان لا يحدّه جسدٌ ولا بيتٌ، ولا وطنٌ، ولا دينٌ، ولا مذهب. فحدوده كونٌ يحيط به، ومنتهاهُ إلى خالقٍ أبدعه وأنشأه واختارَ له الأرضَ موطنًا. سعيتُ لأن أرى أثرَ أقدامي على الأرض، فأدركتُ أن الأثرَ في النفوس أبقى وأدوم. فكلُّ أثرٍ على الأرض زائلٌ، وكلُّ أثرٍ في النفسِ خالدٌ

خلودَ الروحِ حتى تعود إلى بارئها سعيتُ للعيش فردًا، فأدركتُ أن أجملَ ما في الحياة هو أن تستمرَّ الحياة ولن تستمرَّ الحياةُ إلا إذا تقاسمتُها مع الآخرين هذا ما سعيتُ له وأدركتُه أما ما تمنيتُه يا بُنيتي، ولم أدركه، فهو العدل. فالعدلُ مُتوهَّمٌ في هذه الدنيا، وكفى المرءَ عدلًا أن ينصر مظلومًا، أو يردعَ ظالمًا. أعهد إليكِ يا بُنيتي بأن تكوني حرةً، حرةً في ذاتِك، وحرةً في دينِك، وحرةً في زواجِك. ولو وجدتِ أخاكِ، فلا تفارقيه، فكلاكما يحملُ شطرًا من (يوسَتينا)، ولن تبلغا الكمالَ إلا سويًا.

أوصي ببيتي لكِ وللحسين، وبالحانوتِ لـ (يحيى) على أن يدفعَ لكما نصفَ ما كسب.

وأوصي لـ (وسن بنت مينا) بتريبتكِ كيفما شاءت، فهي كالأرض الطَّيِّبة، ولن تُثمرَ إلا طَيِّبًا. وأوصي بدفني في البقعة التي رأيتُكِ فيها، وليُكتَب على قبري: (ماتَ مَن كان اسمُه منقوشًا على الماء).

يوسف بن صدقة القيسراني

* * * * *

تمت في القاهرة - ديسمبر ٢٠٢٢